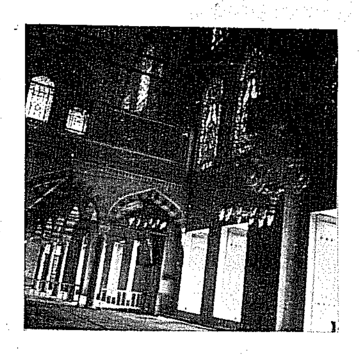


اسلامية ثقافية شهرية

السنة الثامنة ــ العدد ٨٥ ــ غرة محرم ١٣٩٢ هـ ــ ١٦ فبراير (شباط) ١٩٧٢ م



سمو أمير البلاد المعظم وهـو يستقبل بقصر السـيف العامر كبار رجال الدولة ووجهاء البلاد وأعيانها ، حيث قدموا لسموه ولسمو ولي العهد ورئيس مجلس الـوزراء ، التهنئـة بمناسبة عيد الأضحى المبارك .



تحفة رائعة من الفن الاسلامى تنقلها هذه الصورة الفنية بآيات الابداع التى تتجلى فى كل ما ترمقه العين فى المسجد الأزرق بتركيا .

الوعي الإسلامي

اسلامية ثقافية شهرية

AL WAIE AL ISLAMI

Kuwait P. O. B. 13

السنة الثامنة

العدد الخامس والثمانون

غرة محرم ١٣٩٢ هـ

١٦ فبراير (شباط) ١٩٧٢

تصدرها وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية بالكويت فى غرة كل شهر عربى

هدفها : المزيد من الوعى ، وايقاظ الروح ، بعيداً عن الخلافات المذهبية والسياسية

الثمن

الكويت	٥٠	فلسا
السعودية	١	ريال
العراق	٧٥	فلسا
الاردن	٥٠	فلسا
ليبيا	١٠	قروش
تونس	١٢٥	مليما
الجزائر		دينار وربع
المغرب		درهم وربع
الخليج العربى	١	روبية
اليمن وعدن	٧٥	فلسا
لبنان وسوريا	٥٠	قرشا
مصر والسودان	٤٠	مليما

الاشتراك السنوى للهيآت فقط

فى الكويت ١ دينار
فى الخارج ٢ ديناران
(أو ما يعادلهما بالاسترلينى)
أما الافراد فيشتركون رأسا
مع متعهد التوزيع كل فى قطره

عنوان المراسلات

مدير ادارة الدعوة والارشاد
وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية
ص.ب ١٣ هاتف : ٢٢٠٨٨ ــ كويت

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث الشهر

إن الله معنا

تطالع المسلمين اليوم ذكرى هجرة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من مكة الى المدينة على راس ثلاثة عشر عاما قضاها فى معية الله ، وفى جوار بيته الحرام يهز جنبات الوادى بصيحة التوحيد ، ويفتح مغاليق القلوب بمنطق الوحى الجديد ، ويمهد للانسانية طريق حريتها ، ويفك عن أعناقها قيود الذلة والعبودية للحجر والبشر ، ويقيم الاصلاب الراكمة لغير الله ، ويرفع الجباه العانية لغير وجهه حتى ترى العيون وتبصر القلوب الوجه الحق الذى يجب أن تسلم له الوجوه ، وتعنو لألوهيته جباه العالمين .

وما كان لقريش وقد ذر قرن الشيطان فيها ، وشابت لممها فى الكفر والضلال — أن تفىء من قريب الى الحق ، أو تصحو على صوت النذير ، فقد أعماها الهوى وأضلها الشيطان ، فحاولت ما وسعتها الطاقة أن تضع فى طريق الرسالة أشواكا لا تخيف الا الفارغين من الايمان ، وان تلقى على كواهل المؤمنين أثقالا تعوقهم عن المسير ، وباءت محاولتها بالفشل والخيبة .

وأخيرا بعد ان أعياها الجهد العنيد والضلال الحقود دبرتها بليل ، وسول لها جبروتها وبطشها أن فى مقدورها أن تخضب أيديها بدم النبوة الزكى الطهور ، وأنى لها ذلك وصاحب الرسالة فى معية الله : « **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** » .

وكانت الهجرة الخالدة ، وخرج المهاجر الاعظم صلى الله عليه وسلم بالنداء الذى تلقاه والوحى الذى وافاه فى غار حراء الى غار ثور ليكون منه المنطلق لاذاعته فى الأرجاء من فوق منارات المدينة أرض الهجرة المنورة التى استجاب أهلها لله وللرسول ، فآمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه، فكانوا حداة الركب المؤمن ورواد القافلة المسلمة التى حملت مشاعل التوحيد ، وشرقت وغربت تحت راية القرآن تعلى كلمة الله وتنشر نوره والله متم نوره ولو كره الكافرون .

وما اكثر ما تحمل الهجرة النبوية من حقائق عليا ، ومبادىء مثلى ، وقيم ونماذج تستوقف النظر ، وتأخذ بمجامع القلب ، وتضع الاعلام على الطريق لأمتنا التى تسعى لتنهض من كبوة ، وتستأنف مسيرتها من عثرة ، وترفع رايتها بعد نكسة .

التضحية .. الفداء .. الثبات على الحق .. الفهم الحقيقى للهدف .. الادراك الواعى لمرامى العدو .. ذلكم بعض ما تنطوى عليه الهجرة من معان وحقائق .. على أن الحقيقة الكبرى التى تعتبر الركيزة الاساسية والمنبع الحقيقى لهذه القيم والمبادىء هى الدخول فى معية الله والايمان الكامل بهذه المعية التى طمأن بها المهاجر الأعظم صاحبه وصديقه : **« ان الله معنا »** .

حقا ان سيد الغار صلى الله عليه وسلم كان فى معية الله لأنه كان اقوى المؤمنين ايمانا ولهذا كان اكثرهم عملا واصبرهم على الجهاد ، ومن ثم كان اكثرهم تفاؤلا وأملا ، اذ الايمان القوى يستلزم العمل الدائب ، والعمل يبدد ظلمات اليأس ، ويملأ آفاق النفس ، املا ورجاء ، واننا لنرى النفس المحمدية فى جميع مراحل الدعوة الى الله تشرق بنور الأمل فى الله حتى فى اشد الظروف حرجا واحلكها ظلمة ، وتشيع هذا الأمل فى القلوب المؤمنة الملتفة حولها :

١ — فى عنفوان الاضطهاد لأصحابه قبل الهجرة كان يدعوهم الى الصبر ، واحتمال ما يلقون من العذاب والأذى فى سبيل الله حتى يأتى الله بالفتح أو امر من عنده ، وكان يهون عليهم ما يجدون بتذكيرهم بسير المؤمنين فى الأمم التى خلت ، ايمانهم وصبرهم على الوان العذاب ، وما كان من قوة احتمالهم ورسوخ ويؤكد لهم أنهم فى معية الله وان النصر آت لا ريب ، وان الدنيا ستفتح عليهم .

روى البخارى عن قيس قال : سمعت خبابا يقول : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم — وهو متوسد برده فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : الا تدعو الله ، فقعد وهو محمر الوجه ، فقال : قد كان من قبلكم يمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم او عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق راسه ، فيشق باثنين .. ما يصرفه ذلك عن دينه .. وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ما يخاف الا الله عز وجل والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » .

لا يقول هذا القول الا من كان فى معية الله ، ولا يرى هذه الرؤية الا من كان يرى بنور الله ولا يصبر هذا الصبر الا مؤمن اشد الايمان بالله .

٢ — وفى خروجه صلى الله عليه وسلم الى الطائف يلتمس النصرة والمنعة من ثقيف ، والشقة بين مكة والطائف ليست شقة هينة اذ تزيد المسافة بينهما على مائة وعشرين ميلا يقطعها ماشيا بين جبال وعرة ، ووهاد مقفرة — فى هذا الخروج الذى اساءت فيه ثقيف استقباله ، فأغرت به سفهاءها ، وسلطت عليه صبيانها ، فقعدوا له على الطريق يرشقونه بالحجارة حتى دميت

قدماه . فى هذا الوقت الحرج ، والموقف الرهيب يأنس الرسول بمعية الله ، وتنسيه لذة المعية كل أذى وتعب ، وتتحرك فى قلبه الشريف الآمال العراض فى نصر الله ، ويجيش صدره بالضراعة والابتهال الى الله ، ويفيض لسانه بكلمات عذاب تسكن بها نفسه ، ويطمئن بها قلبه :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس .. يا ارحم الراحمين .. أنت رب المستضعفين وأنت ربى .. الى من تكلنى . الى بعيد يتجهمنى ، أو الى عدو ملكته أمرى .. ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى .. ولكن عافيتك أوسع لى .. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك .. لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » .

هذه نبضات قلب ، ودفقات دم ، وموجات نفس تفرغ من حولها الى حول الله ، وتتخلى عن كل عون الا عون الله ، وتلقى بثقلها فى معية الله .

٣ ــ وفى الهجرة الى المدينة بلغ الخطر على حياته مبلغا لا يجد معه أشد الناس تفاؤلا منفذا لنجاة ، وبلغ ايمانه بمعية الله مبلغا لا يحس فيه صاحبه بخطر ما ، فقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت الجأش مطمئن الخاطر تغمره السكينة والطمأنينة ، ويملأ قلبه اليقين بأن الله يرعاه ، وأن قريشا ستبوء بالخيبة مهما دبرت له من كيد ، ومهما استعانت بمالها من خبرة وقوة ، ففى اللحظة التى وصل فيها الأعداء الى الغار ، وسمع أبو بكر صوت اقدامهم كان رسول الله يرى ما لا يراه أبو بكر ويحس ما لا يحسه أبو بكر . كان يرى جنود السموات والأرض فى حراسته ، ولهذا لما قال له الصديق يا رسول الله لو أن احدهم نظر الى موضع قدميه لأبصرنا اجابه من نوره . من قوة معاينته من صدق معيته : **« لا تحزن ان الله معنا ، ما ظنك يا ابا بكر باثنين الله ثالثهما »** .

٤ ــ وفى غزوة الأحزاب ألب اليهود القبائل عليه وعلى المسلمين فى المدينة ، فخرج نحو عشرة آلاف مقاتل تحت امرة أبى سفيان ، وحاصروا المدينة قرابة شهر فى أيام شديدة البرد جافة الزرع يابسة الضرع ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثقة كاملة بالله وفى يقين قوى بمعية الله وقف مع أصحابه يشاركهم حفر الخندق ، ويبث الثقة والطمأنينة فيمن حوله ، ولما استعصت صخرة على سلمان الفارسى أخذ الرسول المعول منه وضرب ضربة لمعت تحت المعول برقة ثم ضرب ضربة أخرى فلمعت تحت المعول برقة ثانية ، ثم ضرب ضربة ثالثة ، فلمعت تحت المعول برقة أخرى . قال سلمان : قلت : بأبى انت وأمى يا رسول الله . ما هذا الذى رأيت لمعه تحت المعول وأنت تضرب به ؟ قال : أو قد رأيت يا سلمان : قلت : نعم . قال : أما الأولى فان الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية فان الله فتح على بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فان الله فتح على بها المشرق .

والحديث يطول عن التفسير العملى والايجابى لقول الرسول الكريم لصاحبه فى الغار : ((**ان الله معنا**)) وكذلك تفصيل النتائج لهذه المعية الربانية فى حياة الصحابة وفتوحاتهم وانتصاراتهم ، ولا شك ان ميدانا يغمر الواقفين فيه احساس عميق بأن الله معهم لهو ميدان النصر الذى يتحرك فيه المجاهدون على ثقة من الظفر ، ويقين من الغلبة والفوز ، وان ساحة تشيع فيها هذه الثقة لا تطيش فيها قذيفة ولا ينبو سيف ، ولا تخطىء طعنة ولا ضربة .

ان على امتنا ان تذكر ان معية الله قلبت موازين القوى ، فجعلت من الحفاة العراة الرعاة ابطال وغى وقواد أمم وساسة شعوب دانت لعقيدتهم ، وارتضت شريعتهم وتفيأت ظلال الأمن والعدالة . فى ظل حكمهم وسلطانهم ، وما حكمهم الا حكم الله ، ولا سلطانهم الا سلطان الله والله غالب على امره ولكن اكثر الناس لا يعلمون .

ان الدخول فى هذه المعية يفجر الطاقات ، ويذلل الصعاب ، ويحطم العقبات ، ويعلو بالمؤمن فوق مستوى الماديات ، ويضع فى يده مفاتيح الدنيا لأنه يرى رؤيا العين أن البعيد قريب وان الصعب سهل وان المستحيل ممكن وقد رأى انصار الله من قبل ان الطوفان مخاضة لا تبل الاقدام ، وان النيران التى تخطف الطير برد وسلام ، وان الفيلة نمال ، وان أصحابها كعصف مأكول .

والطريق لانقاذ المسلمين من الضياع الذى يخبطون فيه ، والفراغ الايمانى الذى يعانون فيه انعدام الجاذبية بينهم وبين الله تعالى .. الطريق لدخولهم فى حماية الله وكنفه واضح المعالم أمامهم كما كان واضحا أمام الأنصار والمهاجرين .. العودة الى دين الله ، والوقوف عند حدوده ، والالتزام بشريعته .

والدلالة على هذا الطريق واجب أجهزة الاعلام الاسلامية وحملة الأقلام الواعية التى تنطق باسم الله وتغار على دين الله ، وتحرص أشد الحرص على اقامة المؤمنين على الجادة التى لا يزيغ من سلكها ، ولا يضل من التزمها .

ومن فضل الله على هذه المجلة وهى تدخل بهذا العدد فى عامها الثامن انها التزمت فيما تنشر ان تصل المؤمنين بالله ، وان تمهد لهم طريق العودة اليه ، وان تربط حبالهم بحبل الله حتى يكونوا أهلا لمعيته .

ولقد كان من الآثار الطيبة لهذه الدعوة المخلصة هذا التجاوب الحبيب من القراء وهذا النشاط المقدور من الكتاب وهذه الرسائل من المسلمين شرقا وغربا وهى تتابع ما ينشر فيها ، وتفتقدها اذا غابت ، وتسأل عنها اذا منعت .

وان هذا الاقبال الذى تلاقيه من القراء والعون الذى تجده من الكتاب ليحفز المسئولين فيها الى المزيد من الجهد والمزيد من العطاء حتى تؤدى الغاية المرجوة من نشر الفكر الاسلامى ، وايقاظ الوعى القرآنى .

—— ● ——

ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين .

مدير ادارة الدعوة والارشاد

رضوان البيلى

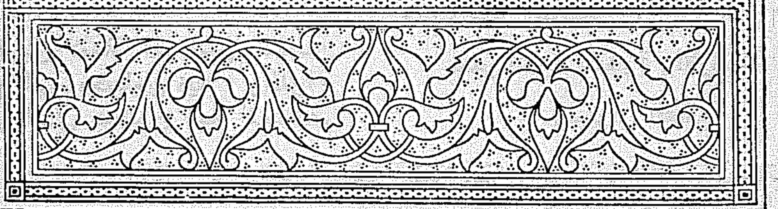


للاستاذ عبد العزيز العلى المطوع

(١١٤) سورة الناس مكية
وآياتها ٦ نزلت بعد الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾
إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾
ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ
وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾



قل اعوذ : الاستعاذة فى بدء سورة الناس من الوسواس الخناس الـــذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ، هى تخلية وطلب الهداية من رب العالمين الرحمن الرحيم الى الصراط المستقيم والطريق القويم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين ـــ كما جـاء فى ختام سورة الفاتحة ـــ هى تخلية وجب الحمد عليها ، فكان ذلك الحمد فى الافتتاح لفاتحة كتاب اللـــه ومن المعلوم أن الضلال والهدى لا يجتمعان فى قلب انسان فى وقت واحد ، كما لا يجتمع النور والظـــلام فى مكان وزمان واحد . .

صحيح ان قوة إشعاع النور تختلف وتبدأ من الشمعة الواحدة ، وان الانسان غالبا ما يتردد ويتشكك ويحتار ولـــكن الحيرة والتردد والتشكك لا تلبث أن تزول ويحل محلها ايمان سليم يهدى الى صراط مستقيم ، كما يحـــل النور محل الظلمات ويذهب الباطل امام قوة الحق وهذه سنن كونية لا تبديل لها ولا تحول عنها ، قال سبحانه « وقل جاء الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقا » (الآية ٨١ من سورة الاسراء) وقال سبحانه ايضا : « وهو الـــذى جعل الليل والنهار خلفة لمن اراد ان يذكر او اراد شكورا » (الفرقان ٦٢) .

برب الناس : رب الناس هو رب العالمين الرحمن الرحيم كما جـــاء فى سورة الفاتحة .

ملك الناس : هو ملك يوم الدين كما ورد فى سورة الفاتحة أيضا وكلمة ملك بالنسبة لله غالبا ما تأتى فى كتاب الله مقرونـــة بيوم الدين ، اليـــوم الـــذى لا ملك ولا مالك فيه غيره سبحانه مصداقا لقولـــه جل شأنه : « وما أدراك ما يوم الدين . ثم ادراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله » (الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ من سورة الانفطار) وقوله سبحانه : « الملك يومئذ لله يحكم بينهم » (الآية ٥٦ من سورة الحج) وقولـــه سبحانه : « قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور » (الآية ٧٣ من سورة الانعام) وقوله سبحانه : « الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوما على الكافرين عسيرا » (الآية ٢٦ من سورة الفرقان) وقوله سبحانه : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » (الآية ١٦ من سورة غافر) ـــ وفى الاثر عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يطوى الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : انا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الارضين ثم يأخذهن قال ابن العلاء ، وهو محمد أبو كريب : بيده الأخرى « وكلتا يديه يمين » ثم يقول : أنا الملك اين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ . .

ولعل فى تكرار ذكر الناس ما يفيد أنهم مركز الثقل ، وبيت القصيد ومصداق قوله سبحانه : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون . إن فى هذا لبلاغا لقـــوم عابدين . وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الآيات ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ من سورة الأنبياء) . .

الوسواس الخناس والجنة والناس : الظاهر أن كل ضار سواء أكان من

الناس أم من الجنة فهو شيطان يستعاذ من شره وكل ما جن عن الغين فهو من الجنة والخناس هو الذى يخنس أى ينكمش ويتضاءل ويقصر عند ذكر الرحمن وهم مردة الجنـــة كما قال الله سبحانه فى موضـع آخر من كتابه الكريم « إن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » (الآية ٢٠١ من سورة الاعراف) أن شياطين الجن تمثل الظلام الذى لا يجدى فى ازالته مهانة ، او تجهم عليه ، أو لعنة توجه اليه ، ولكن شمعة واحدة تزيل جانبا من الظـــلام بقدر قوة إشعاعها وعلى قدر امتداد الاشعاع يكون انحسار الظلام .

ان شيطان الجن يخنس ويقصر ويتلاشى (عند ذكر الرحمن) ثم ينبعث ويكبر كلما غفل الانسان عن ذكر الله مصداقا لقولـــه سبحانه « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » (الآية ٣٦ من سورة الزخرف) .

وقد ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم انه قال لرديفه حينما عثرت ناقته وقال الرديف (تعس الشيطـــان) فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا تقل ذلك فانك إذا قلتها تكابر وقال بقوتى صرعته ، ولكن قل بسم الله فانك أذا قلتها تصاغر حتى يكون كالذبابة) . .

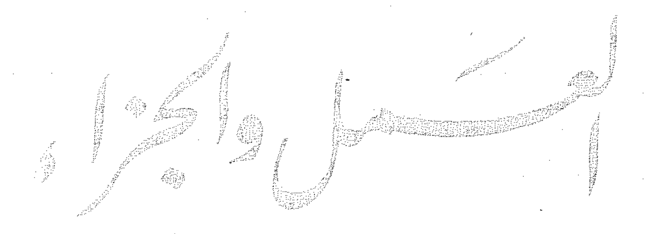
وقد جاء فى الحديث الشريف ما يدل على اعتبار الميكروبات الضارة شياطين ايضا لقوله صلوات الله عليه : (قصوا الاظافر كى لا تتظلل تحتها الشياطين) ولعل المقصود من ذلك الا تكون وكرا لهـــذه الشياطين أى الميكروبات الضارة ، ومن الفطرة حف الشارب وهو فى طريق مجرى الغذاء والتنفس ، وقد ورد فى الاثر عنه (صلى الله عليه وسلم) الفطرة خمس : حف الشارب ، واعفاء اللحية ، ونتف الابط . وقص الاظافر ، وحلق العانة) .

كذلك قال صلوات الله عليه (غلقوا الابواب أذا رقدتم ، واطفئوا المصابيح ، وأوكئوا الأسقية ، وخمروا الطعام والشراب) وقال أيضا : (تنكبوا الغبار فانه من النسمة) ومن الندب تغطية الفم باليد عند التثاؤب ، والاحاديث فى هـــذا المعنى كثيرة .

أما شياطين الانس فقد لا يتأثرون بكلمة الحق ، ولا يحفلون باشعاع النور ، وقد وصفهم الله سبحانه بقوله « وإخوانهم يمدونهم فى الغي ثم لا يقصرون » (الآية ٢٠٢ من سورة الاعراف) وإنما تردعهم العدالة الحقة بالقصاص عنـــد إقامة الحدود ، وقد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه وذلـــك أضعف الايمان » . .

من هدي السنة

للدكتور : على عبد المنعم عبد الحميد
الأستاذ فى جامعة الكويت



عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل قال :

« قال : ان الله عز وجل كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله لهعنده حسنة كاملة ، فان هم بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى اضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فان هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة » .

ـ رواه البخارى وغيره بلفظ مقارب ـ

تمهيد :

قال الحافظ بن حجر العسقلانى : [يحتمل ان يكون هذا الحديث مما تلقاه النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه بلا واسطة ويحتمل ان يكون مما تلقاه بواسطة الملك] ..

الحسنة :

ضد السيئة وفى التنزيل : ((من جاء بالحسنة فلهعشر امثالها)) ، والجمع حسنات ولا يكسر ، والمحاسن فى الاعمال ضد المساوىء ، وقوله تعالى : (انا ويعين المظلوم ، ويعود المريض ، فذلك احسانه ، وقوله تعالى : (ويدراون بالحسنة السيئة) أى يدفعون بالكلام الحسن ما ورد عليهم من سىء غيرهم .

والسيئة : الخطيئة ، وسيء وسيئة عملان قبيحان ، يصير السيء نعتا للمذكر من الاعمال ، والسيئة نعتا للمؤنث منها ، وفى القرآن الكريم .. (استكبارا فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله .. الآية الكريمة) .. وهم بالشيء يهم هما : نواه وأراده وعزم عليه . ومن معانى الهم : ترجيح قصد الفعل ، يقال : هم بالشيء قصده بهمته .

١ ــ الله رحيم بعباده ، رؤوف بهم ، أرسل اليهم رسله مبشرين ومنذرين ليسلكوا بهم شعاب الحياة ودروبها فى يسر ، منيرين لهم دجناتها ، ليصلوا الى غاياتها الكريمة على هدى وبصيرة ، وليضعوهم فى أول درجات السلم ثم يرتقوا فيه على مقتضى السنن الكونية وطبائع الاشياء ، ولم يكلفهم ما لا يطيقون ، وجعل لكل عمل نافع مثوبة ، وبقدر اتساع رقعة التطبيق والفائدة تكون جزالة العطاء من الله تعالى والتفضل ، واقتضت سنته فى الكون انه لا بد من عمل وسعى وقوة عزم ، ونفاذ ارادة ، وصبر ومداومة لكى يصل السائرون فى مختلف المسالك الى أهدافهم ، ويجنوا ثمار جهودهم وينعموا بالبهجة والسعادة حين الحصاد ، وابان الجنى ، وبتأمل سلوك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السير بالدعوة الى ما استقرت عليه من كمال فى جميع مناحيها ومقاصدها ووضوح منهاجا ، نجد العمل الواقعى هو العدة فى كل خطوة خطاها عليهأفضل الصلاة وأزكى السلام وهنا لا أستطيع أن اقول : ان التنفيذ الدقيق الذى نراه فى كل حركة وسكنة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى انتقالات الدعوة من مرحلة ضيقة النطاق لا تتجاوز المخالطين فى المعيشة والسكن الى العشيرة الاقربين مستهلة بدعوة شركاء النسب وذوى القربى القريبة ، واللحمة البعيدة ، الى أن تتجاوز كل الحدود الى مختلف الآفاق ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه مسلم : **(والذى نفسى بيده لا يسمع لى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى الا دخل النار)** .. ويقول الله عز وجل : **((وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون))** الآية ٢٨ من سورة سبأ ثم ما كان بعد ذلك من هجرة عظمى الى يثرب ومفارقة للأهل والوطن وما تلا الهجرة من غزوات وحروب . أقول : لا نستطيع أن ننسب هذه الخطة الدقيقة الا الى الله رب العالمين ، ومنفذها فى الواقع المحس هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن دلالاتها ، التوجيه القوى للامة التى استجابت للنداء ان تدرس أمور حياتها وكونها على ظهر الارض دراسة مستنيرة واعية ، فلا تقدم على عمل الا بعد معرفة أبعاده ونتائجه وأن تتيقظ لكل ما يحيط بوجودها، وما يرسى قواعد الدولةعلىأسس لا ينالمنها الزمان ولا الانسان، بل ولا تتطاولها الاحداث وهنا لا بد من وقفة مدركة لتوجيهات الاسلام المستوحاة من القرآن العظيم والسنة الشريفة تلك هى : أن الجدير بالانتساب الى الاسلام ، والحقيق باسم المسلم كما يريده الله ورسوله هو الذى يصل ليله بنهاره كادحا ، جادا فى ايجاد مصانع أدوات الحياة فى الوطن الاسلامى ومن أسس البقاء الكريم نماء انتاج القنابل الذرية واضرابها من المهلكات فى أرض الاسلام ، شريطة أن تنهض بها عقول مسلمة وجوهها لله تعالى مؤمنة بعظمته وعونه وانه بالغ أمره ، فهذا هو الفيصل بين الحق والباطل ، وتلك هى العدة التى أمرنا باعدادها فى بعض آى الذكر الحكيم ، فلئن قيل فيما مضى من زمان :

السيف أصدق انباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

فانه يقال هذا فى كل حين وزمان ، ويأخذ السيف اسماء متعددة متغيرة مع رقى وسائل الدمار ، وتقدم الانسانية فى هذا المضمار ، وكما كانت الأمة الأقوى هى الاكثر سيوفا ، فلا زال ولن يزال ميزان (الاقوى) منوطا رجحانه بالقنـا والقنابل ، وهنا تتداعى الى الأذهان حين قراءة هذا القول عدة أسئلة ربما يظن أنه ليس لبعضها جواب حاسم ، ولنقطع تلك الحيرة ونجيب على هذا الفكر بمـا نراه فى هذا الصدد ولعل لغيرنا من العلم ما لم يبلغه ادراكنا ولم يصل اليـه علمنا ، وبعد الاستعانة بالله على الصواب ومجانبة الخطل والخطأ نقول :

كيف وصل غيرنا الى ما اليه وصل فى هذا الميدان ؟ نشأ الاكتشاف فى دولة ثم تسرب الى اخرى وذاع وصار من الممكن أن يدرس ويدرك ، ووقائع احـوال ابناء الاسلام فى بلاد الشرق والغرب تشير الى رؤوس وأمخاخ وعقول مستنيرة استنارة ذرية علمية واقعية منتجة فى هذا الحقل ، وما ينقصها الا الأخذ بيدهـا وتهيئةالاسباب والاجواء الصالحة لانتاجها، ومن سار على الدرب وصل، ولنصبر ونصابر على المدى طال او قصر ، مع دأب ودرس وانتاج محلى وعمل على اكتفاء ذاتى فالاسماع قد صمت من (اسطوانات) القدماء وامجادهم وتريد أن تصيخ الى مجد حديث يضاف الى التليد ، وتلك أمور لا تأتى ارتجالا ولا عفو خاطر ، وانمـا تحتاج الى لقاء عقول وأفكار ، وسرعة فى رسم خطة عملية مستمرة مع الحياة التى لا يتوقف سيرها، ومن اراد ايقاف عجلاتها حطمته وتركته أثرا بعد عين ، وهذا هو الاسلام المهيب الجانب أى الذى تدور فيه مصانع كل شىء من الابرة الى الذرة ، وليس الاسلام هو ما يحكى كل يوم فى كلمات نظرية تردد اقوالا غبر بها الزمان ، ولم يعد لصداها اى أثر فى النفوس والمتأمل فى بعض احاديث الرسول صـلى الله عليه وسلم يدرك أن الفقه الحقيقى لها كان غائبا ولا يزال عن مدارك الحاكين والسامعين ، ولنضرب لذلك مثلا بحديث تداعى الأمم على المسلمين ، حيث نرى فهما فجا وادراكا ضعيفا لما يهدف اليه ، أليس فى طياته مايشير الى ضعف يصيب المسلمين ، وانحلال يحل بواديهم فيحيل كثرتهم غثاء ، وجمعهم تفاهة ، وما لديهم هباء ، بلى هو كذلك فهل تدبر المسلمون موارد الضعف واحتاطوا لها ، وحاولوا توقيها حتى لا تحل بواديهم ولا يقعوا فيها ، الجواب : لا . لقد كان نسيان للتذكير واهمال للتوجيه وانتظار للموت والابادة ، على أن هذه نهاية محتومة وما عداها أمور موهومة ، ويقينى أن كل ما أشار اليه سيدنا رسول الله صلى الله عليـه وسلم مما ظاهره نذر خراب وفساد ، انما هو دعوة صريحة للعقلاء أن يفكروا فى الأمر قبل وقوعه ليتداركوا أخطاره ، وليتلافوا شروره ولكن انعكس الفهم فضلت القافلة الطريق فترددت فى مهاوى صار الخلوص منها صعبا ولكنه ليس محالا مع صدق العزائم والادراك ـــ الحقيقى لأهداف التوجيه النبوى الكريم .

٢ ـــ يعلم الله الذى وسع كل شىء علما ، أن فى كل عمل أخطاء ، وأن الكمال الكامل لا يصل اليه مخلوق محدود القدرة والفكر ، فمهما أوتى من علم فالله هـو العالم الحق ، وقل ذلك فى كل صفة ونعت تحبه ومن أجل هذا أخبر نبيه سيدنا وحبيبنا رسول الله ليخبرنا بأن لا نيأس من رحمته عند وقوع الاخطاء ، وليعلمنا أن الله يرانا ويراقب أعمالنا وأنه قد أوحى الى ملائكته أن يتصرفوا وفق ارادته هو وعلى مقتضى رحمة الرحيم بعباده الضعفاء (وخلق الانسان ضعيفا) . . فانظروا الى ما بين أيدينا من قول رسول الله حاكيا عن ربه عز وجل حيث نلحظ منتهـى

العطف والرأفة بالعباد الذين كلفهم الله بالعمل والجد ، فأبان انهم سيخطئون ويهمون بفعل ما يخالف المروءة والحق ولكنهم لا يواقعون الفعل فاذا ترك (بالبناء للمجهول) الفعل السيء خشية لله كتب حسنة قد تضاعف ، واذا جاوز السيء ولو كان التجاوز لأمر خارج عن الارادة ، عفى عنه ولم يسجل عليه شيء في صفحات المسئولية الالهية ، واذا أراد مسلم عمل خير ولم يستطع التنفيذ سجل ذلك له حسنة كاملة عند الله تعالى ، واما اذا هم ونفذ ما أراد من عمل نافع مفيد فهذا يضاعف فى كتاب الحسنات أضعافا كثيرة ، (مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) كما يشير الحديث الشريف الى أن من نفذ سيئة جوزى بها سيئة واحدة لا تزيد .

وفى ختام هذا البحث : أؤكد ان الاعمال التى ترفع بها الدرجات وتزداد بها الحسنات هى ما مكنت نتائجها لدين الله تعالى فى الارض ،-وما أثمرت عزة وقوة للاسلام والمسلمين ولا يمكن أن تنحصر فى صلوات لا روح فيها ، ولا صيام لا غناء منه ، ولا حج قصاراه رحلة شكلية . فان لم تكن الصلاة تنظيما لحرب وقتال تحت امرة قائد رشيد ، والصيام كفاحا وصبرا يعين على احتمال الشدائد ، والحج تمرينا عمليا على رحلة شاقة فى سبيل أهداف الاسلام السامية أقول اذا لم يكن ذلك كذلك مضافا اليه بذل المال فى اقامة مصانع الحياة الحرة المتمثلة فى انتاج ما يكفى البلاد من معاش وما يدفع عنها أذى أعدائها بمثل أسلحتهم مع خروج كل ذلك من بين ايد مسلمة لله وجوهها مؤمنة ايمانا كاملا بقدرته وعونه فقل على دنيا المسلمين العفاء ، وأعتقد أن هذه هى الأعمال التى تضاعف حسناتها ويعفو الله عن سيئاتها .

١ ــ عن ابن عمر قال اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب بزفاشترى منه قميصا باربعة دراهم فخرج وهو عليه فاذا رجل من الانصار فقال : يا رسول الله اكسنى قميصا كساك الله من ثياب الجنة فنزع القميص فكساه اياه .

ثم رجع الى صاحب الحانوت فاشترى منه قميصا باربعة دراهم وبقى معه درهمان فاذا هــو بجارية فى الطريق تبكى فقال : ما يبكيك ؟ قالت يا رسول الله دفع الى أهلى درهمين أشترى بهمـا دقيقا فهلكا فدفع النبى صلى الله عليه وسلم اليها الدرهمين الباقيين .

ثم ولت وهى تبكى فدعاها فقال : ما يبكيك وقد اخذت الدرهمين ؟ فقالت أخـاف أن يضربونـى فمشى معها الى اهلها فسلم فعرفوا صوته ثم عاد فسلم ثم عاد فثلث فردوا فقال : أما سمعتم أول السلام ؟ فقالوا نعم ، ولكن احببنا أن تزيدنا من السلام . فما اشخصك بابينا وأمنا ؟ قال : أشفقت على هذه الجارية أن تضربوها . قال صاحبها : هى حرة لوجه الله لممشاك معها .

فبشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخير وبالجنة وقال : لقـد بارك الله فى العشرة كسا الله نبيه قميصا ورجلا من الانصار قميصا وأعتق منها رقبة ، وأحمد الله هو الذى رزقنا هــذا بقدرته ، اخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد جـ ٩ صـ ١٣ » .

٢ ــ وعن عبد الله بن شداد عن ابيه رضى الله عنه قـال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسم فى احدى صلاتى العشاء وهو حامل حسنا أو حسينا فتقدم النبى صلى الله عليه وسلـم فوضعه ثم كبر للصلاة فسجد بين ظهرانى صلاته سجدة أطالها .

قال أبى : فرفعت رأسى فاذا الصبى على ظهر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ساجـــد فرجعت الى سجودى .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قيل : يا رسول الله : انك سجدت بيــن ظهرانى صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك ؟

قال : كل ذلك لم يكن ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن اعجله حتى يقضى حاجته ، أخرجه النسائى.

وعن بريدة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا اذ جاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : صدق الله (انما أموالكم واولادكم فتنة) نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم اصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما ثم اخذ فى الخطبة . اخرجه الاربعة .

وعن أنس انه صلى الله عليه وسلم قال : انى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد اطالتها فاسمع بكاء الصبى فاتجوز فى صلاتى مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه . أخرجه الشيخان عن أنس .

٣ ــ وعن أبى موسى الأشعرى قال : دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبى صلى الله عليه وسلم فرأينها سيئة الهيئة فقلن لها مالك ؟ ما فى قريش من رجل أغنى من بعلك .

قالت : مالنا منه شىء أما نهاره فصائم واما ليله فقائم .

فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فذكرن ذلك له قال فلقيه النبى صلى الله عليه وسـلم فقال : يا عثمان : أمالك فى أسوة ؟ قال : وما ذاك يا رسول الله ؟ فداك أبى وأمى ، فقال : أما أنت فتقوم بالليل وتصوم بالنهار وان لأهلك عليك حقاً وان لجسدك عليك حقا فصل ونم وصم وأفطر .

قال فاتتهم المرأة بعد ذلك عطرة كأنها عروس فقلن لها : مه . قالت : أصابنا ما اصاب الناس . رواه ابو يعلى والطبرانى .

النور الأعظم

للشاعر : محمود حسن اسماعيل

يا اوَّلَ نُــورٍ

.. سكبَ الله النورَ الأعظم من شفَتَيْهْ

يا اوَّلَ نــورٍ

.. كُلُّ النورِ تَألَّقَ منه ، وجابَ الكونَ على كَفَّيْهْ

يا أوَّلَ نــورٍ

.. خَفَّ اليه الروحُ القُدُس ، وكبَّر شوقاً بين يَدَيْهْ

يا اوَّلَ نــورٍ

عطَش الدنيا جُنَّ عليه ، ورَوَّىٰ الحَيْرَةَ من قدمَيْهْ !!

... اَلْبيدُ الظَّمآىٰ شربَتْ منهُ ،

وراحتْ تسقى الظَّما اللَّاهثَ فى الاكوانْ

واذابَ ضحاهُ جــدارَ اللَّيل ،

همّ الشاعر للعمرة ، فكانت
هذه القصيدة نجوى من روحه
لنبي النور الأعظم صلى الله عليه وسلم

واوغلَ ، اَوْغلَ ، حتّى شَمْشَعَ فى الإنسانْ
رشَّ اليَقظةَ ، والتَّوحيدَ على رِئَتَيْهْ
ومَحا الذِّلَّةَ والإطراقةَ من جَفْنَيْـــه
ودَهَى الرقَّ وكان مُحالاً لا يَتَزَحْزَحُ عن كتفَيْه
ومضَى يسْـــحَقُ كلَّ ظــلامٍ
عبَرَ الدهرَ ، ومَرّ عَلَيْهْ ...
عرَجَ الأُفقَ ، واذَّنَ من اعلَى اعـــلاهْ
وراح يدقُّ ، ويَطْرُقُ .. يَطْرُقُ فى الأبوابْ :
... اَلْفجْرُ توهَّج يا سارِينَ على الأعتابْ
والليلُ الضَّاربُ حول الكَوْن ،
تصدَّع فى شفتَيْه وذابْ
واللّٰه الحقُّ .. تعالى اللّٰـــهُ
.. سَناهُ تَفجَّر فوق الغارْ
وانْشَقَّ ستَارْ

وارتعدَتْ كلُّ حنايا الكـــونِ الفارقِ ،

في ليل مَسْجُورْ

بُشْرَىٰ للأرض .. اتاها النُّورْ !!

يا اولَ نـــورٍ

شرب الكونُ رحيقَ العزّةِ ،

لمَّا سار على شطْئَيْه ..

... رفَضَ الظُّلْمَ ،

واوْقَدَ نـــارًا ،

لا تتحرَّكُ من جَنْبَيْهْ

... رفضَ خُضوعَ الحـــقِّ لبـــاغٍ ،

غَنَّىٰ الحقَّ ، وحلَّق بالاغْلال عَلَيْهْ

... رَفَضَ خُنوعَ المظلومينْ ،

وطِيبَةَ وَجْـــه المقهورينْ !

.. رفَضَ صلاةَ الأوَّابين لغير اللّٰهْ

.. رفضَ خشوع الكذَّابينَ بغير شِفَاهْ !

.. رفض الرزقَ ، إذا لم ياتِ ،

أبيَّ الخطوة ، غيرَ هجينْ !

.. رفضَ الكِلْمَةَ ،

إنْ لم تسحَقْ كمَدَ الذُّلِّ ،

.. بكلِّ جَبِينْ

.. رفضَ اللُّقمةَ ،

إنْ لم تأتِ حصادَ الفَرْس

لكلٍّ يمينْ

.. رفضَ خُفُوتَ المغلوبينْ

رفض سكوتَ المسلوبينْ

.. رفض هَسِيسَ الرشوةِ

حين تَفِحُّ ، وتَمْرُقُ كالتِّنِّينْ

.. رفض البَسْمَةَ حين تَزُوغُ

لتخلِسَ صيْدَ الفشَّاشينْ ...

★ ★

.. رفض حَياةً

شَقِيَ الرفْضُ عليها غَضَباً للغافين !!

رفع النُور حُدَاءَ الدرْبِ ..

وتُهْنَا عن نَغْمةٍ قدحَيْةْ ،

فشربنا الْحَيْرَةَ .. لم يرحَمْنا نُورُ يدَيْهْ !!

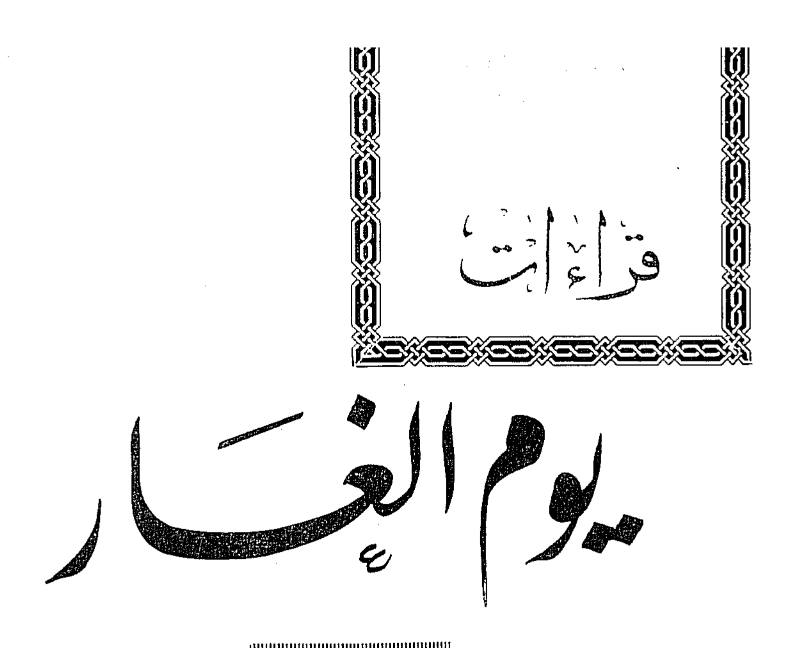
★ ★

عُدْ لِخُطَانَا ..

عُد لِهَوَانَـــا ..

يَعُدِ النورُ لهذا اللَّيلِ ،

ويَرجعْ كلّ النورِ إليْهْ !!



ستطلع الأقمار بعد الأقمار ، وتقبل السنة القمرية بعد السنة القمرية ، وكأنها تقبل بمعلم من معـالم السماء يومىء الى بقعـة من الأرض هى غار الهجرة ، أو يومىء الى يوم لمحمد هو أجمل أيام محمد ، لأنه أول الأيام على رسالته ، وأخلصها لعقيدته ورجاء سريرته ، وهو يوم التقويم الذى اختـاره المسلمون بالهام لا يعلوه تفكير ولا تعليم .

لمَ كان يوم الهجرة ابتداء التاريخ فى الاسلام ، ولم يكن يوم الدعوة ؟

ولمَ لمْ يكن يوم بدر أو يوم ولادة النبى أو يوم حجة الوداع يوم ابتـداء التـاريخ ؟

كل يوم من هذه الأيام كان فى ظاهر الرأى وعاجل النظر أولى بالتاريخ والتمجيد من يوم الفرار بالنفس والعقيدة فى جنح الظلام .

فالرجل الذى اختار يوم الهجرة بدء التاريخ الاسلامى قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والايمان ومواقف الخلود من كل مؤرخ وكل مفكر يرى غير ما رآه .

لأن العقائد تقاس بالشدائد ، ولا تقاس بالقوة والغلب .

كل انسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة .. أمـا النفس التى تعتقد حقا ، ويتجلى فيها انتصار العقيـدة حقـا فهى النفس التى تؤمن فى الشدة ، وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء .

وليس يوم أحق بالتاريخ اذا من اليوم الذى هجر فيه النبى بلده : (اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمـة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم) .

ليقل من قال : إن التوقيت بما قبل الهجرة وما بعدها كان توقيتا معروفا

على عهد النبى عليه الصلاة والسلام .

وليقل من قال ان دخول المدينـــة هو المقصود بالتاريخ من الهجرة وهو يوم عظيـــم .

ليقل من قال هذا أو ذاك فان تاريخ النصر فى القرآن ظاهر اذ هـــو يوم ثانى اثنين اذ هما فى الغار .

وان ابن الخطاب لنبيل ملهم الفؤاد ـــ سواء كان هو المقترح أو مجيب الاقتراح ـــ حين نظر الى غار (ثور) ولم ينظر فى التاريخ الى نصر المدينـــة ولا الى نصر أحد ، ولا الى نصر فارس ، ونظر الى تلك الجنود التى لم تروها وقد نراها نحن الآن .

يوم الدعوة لم يكن يوم الاسلام الأول ، لأن الدعوة كلمة يستطيعها كل انسان ، ويستطيع النكول عنها بعد قليل أو كثير .

ويوم ميلاد النبى لم يكن يوم الاســـلام الأول ، لأن ميلاد محمد لم يكن معجزة الاسلام كما كان ميلاد عيسى معجزة المسيحية ، ولأن محمدا بشر مثلنا فى مولده ، ولكنه سيد الرسل يوم دعا ويوم نجا بالدعوة الى حيث تنجو وحيث تسود وحيث يكون امتحانها الاول فى قلب صاحبها وقلب صاحبه الصديق ، وهما اثنان فى غار .

كذلك تؤرخ العقائد والأديان بالشدة تاريخها ، وليس بالغنائم والفتوح وانها لشىء فى القلوب فلنعرفها اذن حين لا تكون الا فى القلوب ، وحين يكون كل شىء ظـــاهر كأنه ينكرها ، وينفى وجودهـــا وهى يومئذ من الوجود فى الصميم .

ان يوم الغار ليوم له عبرته وعزاؤه فى كل يوم ، ولا سيما أيام القلق والحيرة والانتظار .

انه يوم عقيدة فهو يوم رجاء ويوم نظر الى المستقبل الذى ينظر اليه من ليس له رضـــا فى حاضر عهده ، وحـــاضر العالم فى عهده لا يرضى أحـــدا من محبيه . .

حيثما غلبت الحيرة والقلق فى العالم فهناك أمر واحد كن منه على أتم يقين ، كن على يقين أن العالم يبحث عن عقيدة روحية .

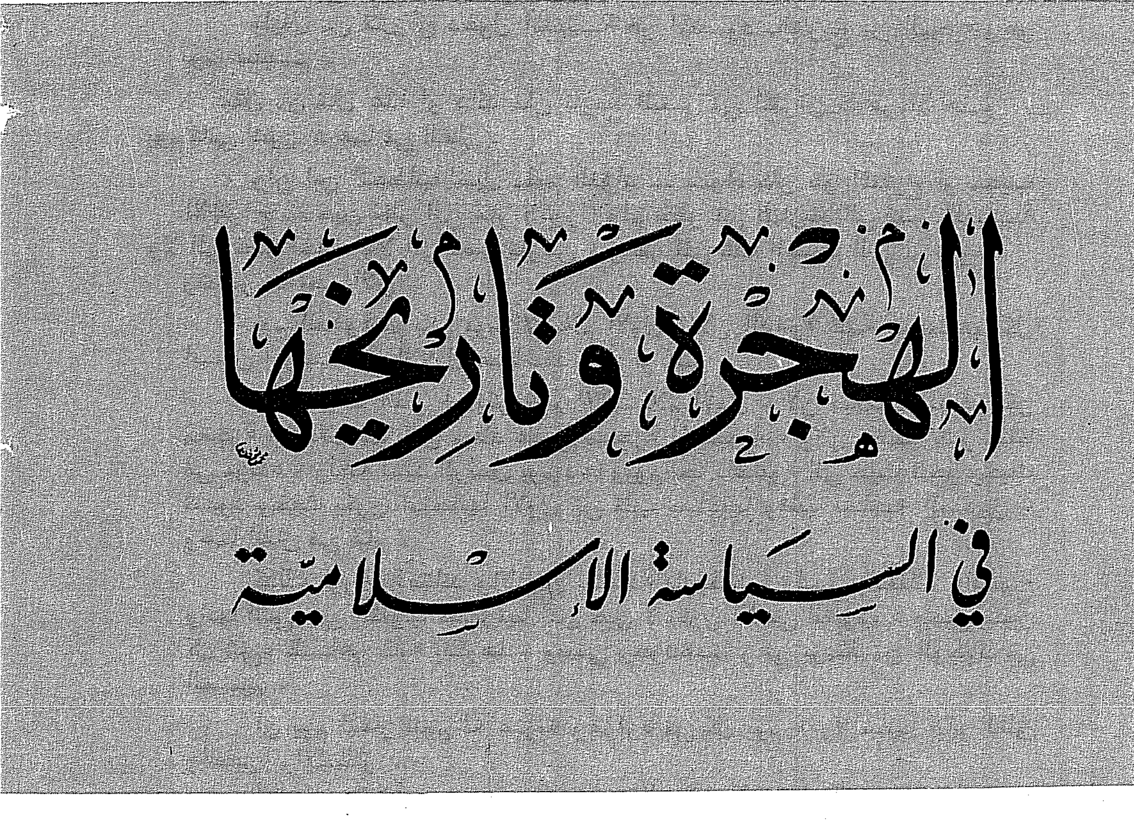
لأنه يضيق بالحاضر ، وينظر الى المستقبل ، وكل مستقبل فلا محل له من جوانح الصـــدور ان لم يكن موضوع رجاء ومرجع ايمان وغاية ســـعى يستحق الكفـــاح .

وفى التاريخ الانســـانى كله لم تتم حركة عظيمة على المـــاضى الذى لا مستقبل بعده انما تقوم الحركات العظمى جميعا على الرجاء فى غد محجوب ، أو على شىء يمكن أن يتحقق فى حيـــاة الانسان ، أو شىء يبقى أبدا موضـــع الرجاء البعيد .

لقد كان (على) فتى يستقبل الدنيا ، وكان (أبو بكر) كهلا يدبر عنها يوم أعانا محمدا فى يوم حراء .

ولكنهما كانا معا على أبواب غد واحد ورجاء واحد . يستوى فيه الفتى الكهل والشيخ الدالف الى قبره لانه رجاء الايمان لا رجاء العيان .

عبقرية محمد



الدكتور : محمد البهى

● يحلو للمستشرقين من الغرب والشرق على السواء ـ والمغرضين من الكتاب والمؤرخين ضد الاسلام : ان يصوروا هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله عليهم على انها (فرار) وهرب من مكان الى آخر بعيد ، حماية للنفس وامنا على استمرار الحياة ..

ربما يكون هذا مفهوم الهجرة بالنسبة لفرد يريد أن يضمن لنفسه حياة مادية أفضل ، أو يخلق لنفسه جوا من الثقة والاطمئنان أكثر من الجو الذى يعيش فيه . وربما يكون مفهومها كذلك بالنســـــبة لجملة من الافراد على شاكلته . ولكن الهجرة بالنسبة لصاحب رسالة وصاحب دعوة فى سبيلها لاصلاح البشرية ودفعها الى الصراط الســـوى .. لا تكون من أجل الذات ووقايتها الاضرار المادية ، أو من أجل حصولها على متع افضل وانما تكون من أجل الرسالة نفسها ، ومن أجل تمكين دعوتها من أن تأخذ طريقها الى التحقق فى تحويل المجتمع الانسانى القائم على العبث والفساد والاعتداء والظلم .. الى مجتمع انسانى فى مستوى رفيع ، لا يخلد الى الارض ولا ينجذب نحو الهوى والغايات الدنيئة ..

وتلك كانت الغاية من هجرته عليه الصلاة والسلام وهجرة اصحابه : قبله ، ومعه ، وبعده .. من مكة او من غيرها الى يثرب . هاجروا الى الله ورسوله ، ولم يهاجروا الى دنيا يصيبونها او متعة يستمتعون بها . والهجرة الى الله ورسوله هى الهجرة فى سبيل الرسالة وفى سبيل الحفاظ على القيم العليا والدعوة اليها . وهى الهجرة الخالدة فى تاريخ الانسانية ، والهجرة التى يجازى عليها الله سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة معا . اذ ترتبت عليها عدة نتائج تكون نظاما لمجتمع انسانى سليم : قام ليبقى ، ويزداد قوة فى تماسكه ، ترتب عليها :

—— ● ——

● ان نقلت المسلمين من قلة فى العدد الى كثرة فيه . اذ انضم الى مسلمى مكة وهم من يعرفون بالمهاجرين : نصراؤهم وحلفاؤهم من اهل يثرب وهم من اطلق عليهم اسم الأنصار . كما اضيف الى الفريقين معا : من دخل تباعا فى دين الله : من بعد الهجرة الى فتح مكة ، وهم كثيرون . ونقلتهم من ضعف الى قوة : كانوا آحادا متناثرين فى مكة وفى الحبشة وفى أماكن اخرى ، فأصبحوا فى يثرب مئات وآلافا مجتمعين ومترابطين على كلمة الله ، وليس على اعتداء على أحد ، ولا على ظلم او اضطهاد لانسان . ثم نقلتهم من افراد ليس لهم كيان المجتمع .. الى مجتمع له نظام حكم ، وسياسة ، ودولة لأفراده ، ومع غيره من المجتمعات المعادية او المقاتلة او المسالمة .

—— ● ——

● وان حملت المسلمين على مباشرة الدفاع عن النفس : فدخلوا الحرب ، وذهبوا الى ميدان القتال ، ومروا بتجربة الهزيمة والنصر . وتخلف منهم من تخلف عن القتال حبا فى الذات وطمعا فى سلامة النفس ، أو رغبة فى عون الاعداء ، وكان منهم المؤمنون صدقا ، والمنافقون فى ايمانهم .

يصور القرآن الكريم تجربة الهزيمة التى مروا بها فى (أحد) بقوله : « ولقد صدقكم الله وعده (بالنصر) اذ تحسونهم باذنه (اى تستأصلونهم عند الالتقاء بأمر الله) حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم (باستهدافكم الغنائم فى القتال دون الدفاع عن الايمان بالله وحده والحفاظ عليه) من بعد ما أراكم ما تحبون (من النصر على الاعداء فى أولى مرحلتى القتال مع المشركين) منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة (وهكذا فشلكم فى المحافظة على وحدة الهدف تسمكم الى طائفتين : واحدة تريد متع الحياة الدنيا ممثلة هذه المتع الآن فى الغنائم من الاعداء ، وأخرى تريد الايمان وتمكين رسالة الله فى الارض ، وبذلك تنتظر جزاءها فى الآخرة) ثم صرفكم عنهم ليبتليكم (وادى تفرقكم وانقسامكم من أجل الهدف فى قتال : (أحد) الى هزيمتكم . ولم يقصد بها انتهاء مجتمعكم ولا فناؤه ، وانما قصد منها التجربة والاختبار للوقوف على اسباب الهزيمة ، كى تتلافى مستقبلا فى الاشتباك مع الاعداء .. قصد منها الابتلاء) »(١) .. كما يصور دعاة الهزيمة المترددين فى ايمانهم فى هذا اللقاء فى (أحد) فيما يستطرد فى ذكره من موقعتها بقوله : وطائفة قد اهمتهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن

أصحابه : بعض الاعراب ليكونوا سندا لهم فى مواجهة قريش ، لو تعرض لهم المحاربون فيها . ولكنهم تخلفوا ونزل فى هؤلاء الاعراب قوله سبحانه : « سيقول لك المخلفون من الاعراب : شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل : فمن يملك من الله شيئا ، ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ؟ بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرســـول والمؤمنون الى أهليهم أبدا (أى قدرتم أن لن يعود ومعـــه المهاجرون الى موطنهم فى مكة طول بقية حياتهم) وظننتم ظن السوء (أى وقدرتم كذلك أنهم سيهزمون ويولون الأدبار ، ان بقيت فيهم بقية من حيـــاة عندما يواجههم كفار مكة) وكنتم قوما بورا (أى وكنتم قوما فاسدين هالكين بتصرفاتكم)(٥) .

وكان كثيرون من المكيين ــ عندما علموا بقدومه عليه الصلاة والسلام ومن معه من صحابته عليهم رضوان الله ــ يرغبون فى عدم مقاومة دخوله . غير أن فريق المحاربين منهم لم تزل له قوة ولم يزل على المعارضـــــة فى الدخول . وعندما وصل اليه عليه السلام نبأ هذه المعارضة استقر وصحبه فى الحديبية فى مكان ليس ببعيد عن مكة حيث ابتدأ يتفاوض مع المكيين . وحين لم تصل المفاوضة الى نتيجة أرسل عثمان بن عفان الى مكة فى حماية أسرته فيها له ، كممثل له . وعندما لم يعد وأشيع أنه قتل اجتمع عليه السلام مع صحابته تحت شجرة هناك سرا وبايعهم على نصرته لاتمام العمرة . وفى هذه المبايعة جاء قول القرآن الكريم : « ان الذين يبايعونك انما يبـــايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما »(٦) . ولكن وصل بعد ذلك عدد من المكيين يعرض الصلح عليه ويعاهده على :

١ ــ أن يرجع الرسول عليه السلام والمؤمنون معه هذا العام (السادس من الهجرة) من حيث أتوا ، وأن يعودوا للعمرة فى العام القادم .

٢ ــ وأن يدخلوا مكة غير حاملين سلاحا .

٣ ــ وأن لا يأخذوا أيا ممن تبعهم من اهل مكة ، ان اراد أن يرحل معهم .

٤ ــ وأن لا يمكثوا بمكة أكثر من ثلاثة أيام . .

٥ ــ وأن يتركوا من يتخلف من المســـلمين معهم بمكة ، ان أراد أن يبقى بها . .

٦ ــ وعلى أن توضع الحرب بين الطرفين عشر سنوات ، يأمن الناس فيها بعضهم بعضا . .

وعارض فى هذه الشروط كثير من الصحابة ، وفى مقدمتهم على بن أبي طالب . لأنها شروط تدل على عدم التكافؤ بين الطرفين ، وعلى أن جانب المسلمين هو الجانب الضعيف . ولكن رغم ذلك أمر الرسول عليه الســـلام بقبولها ، لأنها تتضمن الاعتراف به وبجماعته . وهو أمر كان المسلمون فى حاجة اليه . لأنه سيمهد الطريق الآن للكثير من القبائل العربية ، عدا قريش ، ولكثير من افرادها أيضا ، للدخول فى الاسلام : فى غير خوف ورعب ممن هم سدنة البيت الحرام حتى هذه اللحظة ، وهم قريش .

الجـــاهلية ، يقولون : هل لنا من الامر من شيء ؟ قل : ان الامر كله لله ، يخفون فى أنفســـهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنـــا من الامر شيء ما قتلنا ههنـــا ، قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتـــل الى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم واللـــه عليم بذات الصدور . ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعـــان انما اســـتذلهم الشيطان ببعض ما كسبوا »(٢) .

ويصور من جانب آخر تجربة النصر فى موقعة (بدر) فرغم قلة عدد المسلمين فى مواجهة المشركين المكيين ، ورغم ضـــعف موقعهم فى المعركة بالنسبة لموقع أعدائهم .. رغم هذا وذاك كان النصر للمؤمنين ، لأنهم وضعوا قيم الرسالة والدعوة اليها فى الاعتبار الأول ، قبل حياتهم أنفسهم . ولذا كان نصر الله لهم . يقول الله تعالى فى الحديث عن هذا النصر ، رغم ظروف عدم التـــكافؤ الواضح فى القوة العددية ، وفى المواقع الاســـتراتيجية : « واعلموا أنما غنتم من شيء فان لله خمسه ، وللرســـول ، ولذى القربى واليتامى ، والمساكين وابن السبيل ، ان كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان (أى ما خصصنا به رسول الله والمسلمين من النصر يوم [بدر]) يوم التقى الجمعان (جمع المؤمنين وجمع المشركين فيها) والله على كل شيء قدير . اذ أنتم بالعدوة الدنيا (أى عندما كان المؤمنون بشط الوادى القريب وقد كانت الارض فيه رخوة تسوخ فيها الارجل ، ويشق السير عليها . ومن شأن ذلك أن يضعف من تحركاتهم فى القتال ضد أعدائهم) وهم بالعدوة القصوى (أى والاعداء بالشط البعيد للوادى وهو أكثر صلاحية للحركة) والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد (أى أن لقـــاءكم مع أعدائكم فى [بدر] جاء طبقا لمشيئة الله وحده ، ولم يكن أثر ترتيب بينكم وبين أعدائكم . لأنكم لو عرفتم حقيقة أمرهم فى قوة العدد والعدة لتهيبتم منهم ، وربما يئستم من الظفر عليهم) ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة ، (وانما جاءت ارادة الله باللقاء بينكم وبين الاعداء فى [بدر] للفصل فصلا واضحا بين قوة الايمـــان وأثره ، وقوة الشرك والالحاد ونهايته ، ولبيان : أن الايمان لا بد أن يستمر أثره ويمتد بقاؤه فهو الرافد للحياة ، بينما يزول الكفر لا محالة وينتهى مصيره حتما ، فهو مصدر الموت والفناء) »(٣) .

—— ● ——

● وان حملت المسلمين — قبل أن يستكملوا قوتهم للرجوع الى البيت العتيق بمكة — على المرونة فى الأخذ والعطاء فى سياسة الاعداء ، حتى ولو كان على حساب أمر يهمهم أو ضرورة من ضرورات حياتهم . ففى نهـــاية السنة السادسة من الهجرة فى شـــــهر ذى القعدة (مارس ٦٢٨) طلب الرسول عليه السلام من أصحابه وهم بالمدينة أن يعدوا أنفسهم للعمرة معه فى مكة ، كما يعدونها للتضحية فى سبيل ذلك . فقد نزل عليه وحى الله فى قوله فى سورة الفتح : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا »(٤) .. ودعا مع المهاجرين والانصـــــار من

نعم ، لم تعترف معاهدة الصلح من جانب القرشيين المكيين بالرسول عليه السلام على أنه رسول ، ولكنها اعترفت بكيانهم الذاتى والسياسى . وذلك له مدلوله فى العلاقات بين الجماعات .

وفى العام القادم ، وهو العام السابع الهجرى (٦٢٩ م) أدى عليه السلام وصحابته العمرة . ودخل فى الاسلام أثناء اقامته بمكة كثيرون من القبائل ، كما دخل عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد . وهنا زادت قوة المسلمين نوعا وكما . واصبحوا على استعداد لأن يحموا انفسهم ، ودينهم ، وحلفاءهم فى شبه الجزيرة . ومع تزايد قوتهم بقوا على الوفاء بالعهد الذى وقعوه مع مشركى مكة ، وبالأخص على أن توضع الحرب بين الفريقين عشر سنوات . .

ولكن فريق المحاربين من المكيين وهم ائمة الكفر ساند قبيلة بكر ضد خزاعة التى تعتبر حليفة الرسول عليه السلام . وهنا اعتبر تصرف هذا الفريق نكثا للعهد فى صلح الحديبية . وبنكثهم اياهم اصبح المسلمون فى حل من عدم الوفاء به . وجاء تعبير القرآن الكريم عن ذلك فى قول الله تعالى :

« وان نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر (وهم هؤلاء المحاربون وسماهم ائمة الكفر لاصرارهم وعنتهم فى المعارضة طوال هذه المدة) انهم لا ايمان لهم ، لعلهم يهتدون . الا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم ، وهموا باخراج الرسول ، وهم بدءوكم أول مرة اتخشونهم ، فالله احق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين »(٧) .

وبنكث المشركين لعهد الصلح فى الحديبية ، أصبح الطريق مفتوحا أمام المسلمين ، لا قيود فيه . وبازدياد قوتهم المادية والمعنوية أصبحت لهم استطاعة على انهاء كل صيحة لعدو تواجههم . وترتيبا على ذلك تراس الرسول عليه السلام فى شهر رمضان من السنة الثامنة من الهجرة (ديسمبر ٦٢٩) جيش المسلمين المكون من المهاجرين والانصار ، والاعراب ، قاصدا به الى مكة . وقد اثار قدوم المسلمين ذعرا وقلقا بين المكيين الذين اصبحوا فى وضع تقل فيه رغبتهم فى الحرب يوما بعد يوم . وعندما اقترب جيش المسلمين من مكة التقى أبو سفيان فى وفد كان فيه بعض الخزاعيين بالرسول عليه السلام واعلن الطاعة له ، وحصل منه على وعد بالعفو عن جميع القرشيين الذين يلقون سلاحهم ويعلنون بذلك عدم معارضتهم . ثم كان الفتح المبين لمكة ، واستعادتها لا لأنها موطن المهاجرين من المسلمين فقط ، ولكن لأنها كانت الموطن الاول للدعوة الاسلامية قبل ذلك . . من أجل البيت العتيق : « ان أول بيت وضع للناس للذى بمكة مباركا »(٨) . . وبذلك تصحح رسالته عليه السلام رسالة ابراهيم التى شوهتها الوثنية المادية المكية فى عهودها المختلفة ، وتعود بها الى التوحيد ، وتعيد الحج كفريضة من فرائض الله تستهدف التكتل وقوة الترابط فيما بين المؤمنين على أساس من طاعة الله جل شانه : « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت : أن لا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين ، والقائمين ، والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق »(٩) .

وهكذا : تضمنت سنوات الهجرة أصلا ومبدأ فى سياسة الاعداء ، هو

اصل التدرج والاخذ بمبدأ تعدد المراحل فى تحقيق الهدف . اذ لم يكن من الحكمة فى السياسة أن يقدم المسلمون من المدينة للقاء الكفار بمكة وهم غير متفوقين عليهم عددا وعدة تفوقا ظاهرا ، وليس لهم اتباع فيها يضمنون على الأقل عدم معارضتهم ، ان لم يضمنوا مؤازرتهم . نعم ، لاقوهم ببدر وهم قلة وانتصروا عليهم . ولكن الفرق بين خروج المسلمين من المدينة الى بدر ، وقدومهم من المدينة الى مكة للقاء الكفار .. يستتبع فرقا آخر فى الاعداد المادى والاجتماعى والسياسي . واذن المرونة فى سياسة الاعداء قبل اتمام الاعداد للقضاء عليه ضرورة فى الحفاظ على كيان الأمة ، ولاتخاذ الفرصة المناسبة قبل الكلمة الاخيرة ..

—— ● ——

● وان دفعت بالمسلمين — بعد تفوقهم فى القوة — الى التزام الموقف المتعين الذى لا محيص عنه من وجهة النظر الى سلامة الأمة وبقائها عزيزة متماسكة . فالمسلمون الذين عارضوا صلح الحديبية .. عارضوه ، لأنهم كانوا يرون : أنه ترك للمشركين الماديين المكيين ، الكلمة يملونها عليهم . والاسلام لا يكون عزيز الجانب ، والدعوة الاسلامية لا يكون طريقها مفتوحا الا اذا كانت كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، اى الا اذا كان المؤمنون هم اصحاب الكلمة الاخيرة وليس أعداؤهم .

من اجل ذلك كان الأمر بفتح مكة . ومن اجل ذلك ايضا كان فتح مكة بعد أن تم هو الفيصل فى تاريخ الاسلام بين ذلة المسلمين وعزتهم ، وبين ضعفهم وقوتهم . وأصبح الشعار هو : كلمة الله هى العليا .

جاء الوحى تقريبا فى شهر شوال من السنة التاسعة من الهجرة — بعد فتح مكة فى رمضان من هذه السنة — باعلان انتهاء عهد الحديبية مع المشركين ، على أن يعطوا مهلة أربعة اشهر يكونون فيها أحرارا : يدبرون فيها أمرهم ويفكرون فى التوبة والرجوع الى الله وحده : « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين (اى أن الله ورسوله قد برئا — أيها المسلمون — مما عاهدتم عليه المشركين ، واذن أنتم فى حل الآن من اتخاذ موقف آخر نحوهم ، غير الأمان الذى أعطى لهم ، كما جاء فى معاهدة الصلح بالحديبية) . فسيحوا فى الارض أربعة أشهر (اى وأنتم أيها المشركون لكم الحرية فى الحركة وفى تدبير الامر مدة اربعة اشهر منذ الاعلان بانتهاء المعاهدة) واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وان الله مخزى الكافرين (على أن تعلموا : انكم — أيها المشركون — لو بقيتم على كفركم ولم تعودوا الى دائرة الايمان بالله وحده ، وآثرتم الاستمرار فى عداء الدعوة الى الله .. لا تستطيعون أن تنالوا من دين الله ، لأن الله جلت قدرته لا يغلب أبدا ، وقد وعد المؤمنين بالنصر ، كما وعد الكافرين بالخزى والعار »(١٠) .

وطلب الى رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يعلن انتهاء العهد فى موسم الحج اذاعة له على نطاق أوسع . فقرأه على رضى الله عنه على حجيج بيت الله الحرام فى شهر ذى الحجة من السنة التاسعة نفسها .

وجاء القرآن بذلك فى قول الله تعالى : « اذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر : ان الله برىء من المشركين ورسوله »(١١) .

وموقف المؤمنين الآن ازاء المشركين بعد الغاء المعاهدة : انهم اذا تابوا وعادوا الى الله وحده كانوا اخوانا لهم فى الايمان بالله ، وان تولوا وأعرضوا كان القتال والاعتقال ، والأسر ، جزاء من نقض العهد وظاهر عليهم أحدا من الاعداء . وجاء تعبير القرآن عن هذا الموقف فى قوله : « فان تبتم (أيها المشركون) فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم : الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصـــوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين . فاذا انسلخ الاشهر الحرم (وهى الاشهر الاربعة التالية لاعلان انتهاء المعاهدة والتى حددت لاعطاء الفرصة للتدبر فى الامر بين المشركين) فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم »(١٢) .

ويعتبر هذا الموقف الذى يطلبه القرآن الآن من المسلمين ازاء المشركين بعد فتح مكة ، واعلان الغاء معاهدة الحديبية كتصــــفية للوضع المكى بين المسلمين والمشركين . والموقف الذى يعتبر مبدأ عاما يحدد علاقة المشركين الماديين ، وكذلك علاقة أهل الكتاب من جانب ، بالمسلمين من جانب آخر هو الذى تقصه الآية الكريمة فى سورة التوبة نفسها بعد الآيات السابقة فى قول الله تعالى : « قاتلوا :

١ ـــ الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله (وهم الماديون الملحدون أو المشركون حتى يؤمنوا : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكن الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين ») .

٢ ـــ ولا يدينون دين الحق (أى وقاتلوا الذين لا يدينون دين الحق) من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »(١٣) .
.. فلا يقبل من المشركين أو الماديين الملحدين فى أى عهد سوى الرجوع الى الايمان بالله وحده ، بينما يقبل من أهل الكتاب الاستسلام . أى لا يخلص هؤلاء وأولئكم من قتال المسلمين اياهم سوى الايمان بالله من جانب الماديين ، وسوى الاستسلام من جانب أهل الكتاب . وقد طوت الآية الغاية من قتال الماديين المشركين ، اكتفاء بما جاء فى آيات أخرى ، كما لم تعد الامر بقتال أهل الكتاب اكتفاء بما صرحت به فى أولها : « قاتلوا » ..

—— ● ——

● ولأهمية أحداث الهجرة وأثر هذه الاحداث على المجتمع الاسلامى فى قيامه ، وقوته ، وعزته ، وعلى الدعوة الاسلامية فى سيادتها وخروجها من شبه الجزيرة الى كافة أرجاء العالم .. قرر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـــ فى السنة السابعة عشرة منها ـــ جعل الهجرة بداية لتاريخ جديد ،

هو تاريخ الأمة الاسلامية . وبذلك تستكمل عناصر الشخصية المستقلة لها ، كما أن أحداثها التى ارتبطت بأشهر معينة فى سنواتها ستكون مصدر ذكرى للمسلمين ، يستلهمون منها طريقهم فى السياسة ، وفى الوصول الى القوة والمنعة ، وقبل ذلك الى الترابط والتساند فيما بينهم .. يعرفون للايمان بالله أثره النافذ فى النجاح ، ويقفون على الوسيلة التى تضمن الحماية والنمو له ، ويتعلمون .. كيف ينتقلون من الضعف الى القوة ، وكيف يأخذون أنفسهم بالتدرج مع أعدائهم ان رأوهم أشد منهم قوة وبأسا ، وكيف يصرون على موقفهم الخاص بهم ان هم أصبحوا ذوى استطاعة مادية وذوى مستوى اجتماعى وسياسى يتيح للآخرين أن يفهموا أهدافهم فى غير لبس .

واستخدام المسلمين للتاريخ الهجرى ليس هو استخدام أيام وشهور وسنوات وانما هو احياء للعوامل التى حركت تاريخ المسلمين فجعلت منهم أمة ، ومجتمعا ، ودولة ، وجعلت من دعوة الاسلام دعوة عالمية انسانية كما هى فى موضوعها ومبادئها وليست عربية أو قبلية أو قومية ، حسبما كان موطن النداء الأول بها : فى مكة ، وبين قريش . واختيار شهر المحرم أول شهور السنة فيها ، لأنه شهر العمل الذى يأتى بعد أداء فريضة الحج الذى يتعاهد فيه المسلمون على عرفات .. على المساواة فى الاعتبار والطاعة لله وحده ، والاخلاص فى سلوك طريقه المستقيم . فالدفعة الجماعية الاولى لفريضة الحج فى سبيل الله تقع فى المحرم ، وتستمر الى ذى الحجة القادم ..

واغفال المسلمين لتاريخ الهجرة هو عامل من عوامل الضياع لاستقلال شخصيتهم وفى الوقت ذاته هو عامل من عوامل الحاق المسلمين بغيرهم فى التبعية ولا يقل استخدام المسلمين لتاريخ آخر : فى كتاباتهم ، ومعاملاتهم ، أثرا عليهم فى محو استقلالهم .. عن اتباع أيديولوجية أخرى غير الاسلام .

وقد بدأ اتباع (العلمانية) فى المجتمعات الاسلامية باستخدام تاريخ الميلاد للمسيح عيسى بن مريم بجانب استخدام التاريخ الهجرى ، كما ابتدأ نقل التشريع الاوروبى بجانب الشريعة الاسلامية ، والمدرسة المدنية بجانب المعهد الدينى الاسلامى ، والفكر الديى بجانب التعاليم القرآنية ، وآداب المجتمع الاوروبى فى الملبس والأكل والشرب والعادات بجانب تقاليد المجتمع الاسلامى ..

وبالتدريج نسى المسلمون استعمال مالهم ، وتعلقوا بما نقل عن غيرهم .. حتى أصبح الفكر الالحادى المادى أقرب الى نفوس بعضهم من تعاليم القرآن ، وأصبحت حمايتهم لذلك الفكر تكاد تكون على حساب ما للقرآن وما للمسلمين من تراث خاص بهم ، وأصبح فى بلاد المسلمين جامعة علمانية لها الحول ، بجانب جامعة اسلامية تحيط بها العزلة وتعيش فى فترة الاحتضار ، واستقلت بالامر المحاكم المدنية وطوت فى ملفاتها وضع المحاكم الشرعية .. الخ .

● ولم يشأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يؤرخ بتاريخ ميلاد الرسول محمد بن عبد الله عليه السلام — وهو حبيب الله وحبيب المؤمنين

جميعا — لأنه تاريخ شخصى مهما كان له من سمو المنزلة ، وليس تاريخ (موضوع) .. تاريخ الدعوة الى الحق الذى هو هداية الله للناس جميعا . والدعوة الى الحق هى دعوة الى مبادىء وليست الى اشخاص . والوثنية فى نشأتها هى تحول عن المبادىء الى أشخاص ، ارتبطت بهذه المبادىء ارتباطا وثيقا : اما لنشاط هؤلاء الاشخاص فى سبيلها ، أو لصدفة فى اتصالها بهم ..

فابقاء على دعوة الحق جلية واضحة ، وعلى وحدة الله فى الوهيته خالصة صافية .. جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه تاريخ الأمة الاسلامية من هجرة رسولها الأكرم عليه السلام من مكة الى المدينة لحماية دين الله وأمان الدعوة اليها ، وليس من ميلاده هو عليه الصلاة والسلام .

فهل يعرف المسلمون أثر العلمانية .. اليوم على حياتهم فى التوجيه ، وعلى استقلالهم فى المجتمعات :

هل يدركون أن الاسلام هو الذى كون مجتمعهم ، وأنه وحده العامل الآن فى سيادتهم على أنفسهم ، وأن تاريخ الهجرة هو عنوان الاستقلال والسيادة لهم .. ؟

والاحتفال اذن ببداية سنة هجرية جديدة بشهر المحرم هو اعادة لوعى المسلمين لماض يرتبط حاضرهم به ارتباطا وثيقا . فان وعوا هذا الماضى كانت لهم منه أسباب العزة . وان مروا عليه فى غفلة بقيت غفلتهم الى حين يتم تبعيتهم لغيرهم ويصبحون أذلاء لهم ..

■ ■ ■

---

(١) آل عمران : ١٥٢ .
(٢) آل عمران : ١٥٣ .
(٣) الانفال : ٤٢ .
(٤) سورة الفتح .
(٥) سورة الانفال : ١١ ، ١٢ .
(٦) نفس السورة : ١٠ .
(٧) سورة التوبة : ١٢ ، ١٣ .
(٨) آل عمران : ٩٦ .
(٩) الحج : ٢٦ ، ٢٧ .
(١٠) سورة براءة : ١ ، ٢ .
(١١) سورة براءة : ٣ .
(١٢) سورة براءة : ٣ ، ٥ .
(١٣) نفس السورة : ٢٩ ، ٣٠ .



الاستاذ مناع قطان

تمر الأيام والليالي عبر العصور ، وتدور عجلة الزمن تقطع مراحل التاريخ منذ فجر الحياة البشرية ، فمرحلة يعقبها مرحلة . وجيل يتلوه جيل ، ولا يبقى من الأزمان الغابرة للأجيال اللاحقة سوى ما فيها من ذكريات سطرتها الأحداث في سجل التاريخ ، ومع عمر الحياة الممتد في أغوار الماضي البعيد ، تظل بعض الأيام بأحداثها الجلّى جديدة كل الجدة ، تحيي في النفس البشرية العقيدة الصافية ، والأخلاق الفاضلة ، والمثل العليا ، وتبعث فيها آمال المستقبل الوضاء الذي ينير أمام الانسانية الحائرة سبيل حضارتها ومنهج رقيها وسعادتها وفي مقدمة تلك الأحداث العظيمة حدث الهجرة .

حدث من كيان الأمة

لكل أمة تاريخ ، وتاريخ كل أمة يحكي نشأتها وأطوار حياتها ، ووقائع سيرتها ، وعوامل نموها وصعودها ، أو ضعفها وهبوطها ، وغاية ما تحرص عليه أمة من تاريخها ، أن تحفظ سجلا لحياتها وأن ترويه لأبنائها حتى تتخذ منه العظة والعبرة ، ولذا يكون اهتمامها بسيرة زعمائها الأبطال الذين يغيرون مجرى حياة أمتهم ، ويؤثرون فيها تأثيرا بالغا ، الا أن سيرة أي زعيم من الزعماء — مهما علا شأنه وذاع صيته — تظل سيرة مجيدة لدى الذين يقدرون بطولته ، وقد تستمر هذه السيرة ردحا من الزمن ، ثم ينشأ زعيم آخر يتجه بأمته اتجاها مغايرا . فيعفو على آثار من سبقه من الزعماء ، حتى يكون وحيد عصره ، وفريد دهره ، لا ينافسه في الزعامة منافس ، وقد يهيل التراب على ماضي السابقين ، ويثير النقع فوق سجل حياتهم ، فيبدو تاريخهم صفحة مشبوهة مغبرة ، وتتراءى أعمالهم ملوثة حقيرة .

ومن خصائص الأمة الاسلامية انها تدين بزعامة واحدة ، لشخص واحد ،

هى زعامة النبوة فى شخص محمد صلى الله عليه وسلم . فهو رسولها وإمامها وقدوتها «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» فلا مجال للابتداع فى قيادة هذه الأمة وإنما يكون مجال المصلحين فى التجديد والاتباع . وسيرته عليه الصلاة والسلام ليست سيرة بطل فى أمة لحقبة من الزمن قد يعفو أثرها بسيرة بطل آخر ، ولكن سيرته سيرة رسول أرسله الله الى الانسانية كافة وختم به رسالات الأنبياء قبله « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » « كان كل رسول يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس كافة » « أنا العاقب فلا نبى بعدى » وهذه السيرة جزء من كيان الأمة ، لأنها جزء من عقيدتها ، فما كانت حياته صلى الله عليه وسلم فيما له مساس بالدين عن اجتهاد منه يخطىء فيه ويصيب وإنما كانت حياته القولية والسلوكية والعملية فى هذا الجانب وحيا يجب اتباعه . وما ذكر من حوادث اجتهاده — عند من يرى جواز اجتهاد النبى حيث لا نص — يئول أمره الى الوحى لأن الله تعالى إما أن يقره على اجتهاده اذا أصاب ، واما أن يبين له الصواب اذا أخطأ .

وقد قال سبحانه : « وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحى يوحى » وللشريعة الاسلامية مصدران أساسيان : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم : والسنة ما روى عن رسول الله من قول أو فعل أو تقرير أو صفة . وبهذا كان حادث الهجرة جزءا من كيان أمتنا .

التماس التربة الخصبة :

يبدو لأول وهلة .. أن حادث الهجرة كان فرارا من أذى المشركين بمكة ، وطلبا للنجاة بالدين والذى ينظر الى ما سبق الهجرة فى تاريخ الدعوة يدرك أنها كانت التماسا للتربة الخصبة التى تثمر فيها الدعوة وتؤتى أكلها وتستوى على سوقها حتى يقوى ساعدها ، ويشتد أزرها ويكون ذلك منطلقا لفتح عظيم يفتح الله به للاسلام قلوب الناس وديارهم .

لقد واجهت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته بصنوف الأذى وألوان العنت ، وضروب الشدة ، وصدت الناس عن سبيل الله فلم تلن له — صلى الله عليه وسلم قناة . ولم يقبل مساومة .

إن معادن الناس متفاوتة والمؤمن غيث حيثما حل أحيا موات القلوب بدعوته ولا يأس مع الايمان ، فعلى الداعية إذا ادلهم الأمر وأجدبت النفوس فى موطن من المواطن ، أو فترة من الزمن ، أن يتطلع الى مستقبل مشرق فى موطن آخر ، بفترة أخرى . وهكذا كانت سيرته صلى الله عليه وسلم فى دعوته إذا عرض نفسه على القبائل .

قال ابن اسحاق : ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، — أى بعد سعيه الى ثقيف بطلب النصرة — وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، الا قليلا مستضعفين ، ممن آمن به فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه فى المواسم ، اذا كانت ، على قبائل العرب يدعوهم الى الله ، ويخبرهم أنه نبى مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه ، حتى يبين لهم الله ما بعثه به ..

قال ابن اسحاق : وحدثنى حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس : قال سمعت ربيعة بن عباد يحدثه أبى ، قال :

انى لغلام شاب مع أبى بمنى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يا بنى فلان : انى رسول الله إليكم جميعا ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من

هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى ، وتصدقوا بى ، وتمنعونى ، حتى أبين عن الله ما بعثنى به قال : وخلفه رجل أحول وضىء له غديرتان ، عليه حلة عدنية ، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا اليه ، قال ذلك الرجل : يا بنى فلان ان هذا إنما يدعوكم الى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيش ، الى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه ، قال : فقلت لأبى : يا أبت ، من هذا الذى يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟

قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب ، أبو لهب . .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره ، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل الى الله والى الاسلام ، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب ، له اسم وشرف الا تصدى له فدعاه الى الله وعرض عليه ما عنده .

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، واعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ، وانجاز موعده له خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا .

قال ابن اسحاق : فحدثنى عاصم بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وكان مما صنع الله بهم فى الاسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : ان نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم الى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلَّموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم اليه ، فأجابوه فيما دعاهم اليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام وقالوا : انا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزمنك ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا . . »

ثم كانت بيعة العقبة الأولى ، حيث وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة ، وبايعوه على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب ، فلم يبايعوه على القتال ، وبيعة النساء ، هى المذكورة فى القرآن بقوله تعالى : « يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » وكانت مبايعته صلى الله عليه وسلم للنساء ، أنه يأخذ عليهن العهد والميثاق فإذا أقررن بألسنتهن قال : قد بايعتكن .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم بعد أن أخذ عليهم البيعة مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ، ويفقههم فى الدين ، فكان يسمى المقرىء بالمدينة .

ثم كانت بيعة العقبة الثانية بعد ذلك حين خرج من خرج من الأنصار من المسلمين الى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة . فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط ايام التشريق ، فاجتمعوا فى الشعب حتى جاءهم رسول الله ومعه عمه العباس ، وهو يومئذ على دين قومه ، الا انه أحب أن يحضر أمر ابن اخيه ويتوثق له ، وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلا ، ومعهم امراتان : نسيبة بنت كعب ، أم عمارة إحدى نساء بنى مازن بن النجار ، واسماء بنت عمرو بن عدى ، احدى نساء بنى سلمة ، وهى أم منيع ، فتكلم العباس وبين لهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم فى عز ومنعة من قومه ولكنه أبى إلا الانحياز إليهم ، ثم تكلم رسول الله ، فتلا القرآن ، ودعا الله ، ورغب فى الاسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه ازرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله ابناء الحروب ، واهل الحلقة ، ورثناها كابرا عن كابر ، فاعترض القول أبو الهيام بن التيهان ، فقال : يا رسول الله . إن بيننا وبين الرجال حبالا ، وانا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى احارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم . وطلب منهم رسول الله ان يخرجوا اثنى عشر نقيبا — ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، وكانت هذه البيعة بيعة الحرب ، حين اذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال : عن عبادة بين الصامت — وكان أحد النقباء — قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب ، على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » .

وذلك حين عتت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم وعذبوا ونفوا من عبده ووحده واعتصم بدينه . فكانت أول آية نزلت فى القتال « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

واذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمسلمى مكة بالهجرة الى دار يأمنون فيها ، ويجدون تربة خصبة لدعوتهم وأعوانا لدين الله ، فكانت الهجرة اعزازا للاسلام ، واذلالا للشرك وأهله .

آيات النصر :

تعتمد الحياة فى مقاييسها العادية فى النصر والهزيمة على موازين القوى المادية فى السلاح والعدة ، والشجاعة والكثرة ولا يكاد الانسان يقرأ تحليلا عسكريا لموقعة حربية من المواقع التاريخية الا وجد هذا التحليل قائما على الأسباب العادية فى اختلال توازن القوى ، وذلك إن صح فى تحليل الاحداث التاريخية السياسية بحياة الامم ، فانه لا يكون قاعدة منضبطة فى تحليل تاريخ العقيدة ، فالعقيدة الدينية لها موازين أخرى فى القوة الروحية التى تنبثق من

الايمان العميق بالله ، والثقة فى وعده ونصره ، واستمداد العون من السماء .

وتاريخ الامة الاسلامية فى الصدر الاول يمثل تاريخ عقيدتها أروع تمثيل، ولو كان للاعتبارات المادية أثر لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لدى صحابته من بعده ما كانت هذه الانتفاضة الاسلامية الكبرى التى دقت معاقل الشرك ، وحصون الوثنية وتهاوت أمامها قوى البغى بجيشها اللجب وجحافلها المتكاثرة مدحورة خاسئة مهزومة ، يجللها عار الدمار ، وخزى الانحدار . فلم تمض سوى سنوات معدودة فى عمر الزمن حتى رفرفت راية الاسلام على ثلاثة أرباع الدنيا واندكت قصور الاكاسرة والقياصرة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

ان الاسلام اذ يأخذ بعين الاعتبار الاعداد المادى امتثالا لقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » يعطى الاعتبار الأكبر للقوة الروحية ، قوة الايمان بعقيدته ، والثبات عليها ، والصبر على الأذى فيها ، وبذل النفس والمال فى سبيلها وفاء بالبيعة « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » ولم يكد يبلغ عدد المؤمنين مئات حتى نزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ، يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين » وقد تجلت هذه المعانى فى حادث الهجرة .

انه لما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة من غيرهم فى المدينة ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم عرفوا أنهم قد نزلوا دارا . وأصابوا منهم منعة . فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم . وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم : فاجتمع الملأ منهم فى دار الندوة — وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرا الا فيها — يتشاورون فى أمر رسول الله حين خافوه ، وحضر معهم ابليس ، وتمثل لهم فى صورة شيخ نجدى . لأنهم قالوا : لا يدخلن معكم فى المشاورة أحد من أهل تهامة ، لأن هواهم مع محمد . فقال قائل منهم احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله . زهيرا والنابغة ، ومن مضى منهم ، من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم ، فقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه الى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم ، فينزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به — حتى يغلبوكم على أمركم . ما هذا لكم برأى — فانظروا فى غيره ، فتشاوروا . ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فاذا أخرج عنا ، فوالله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا ، وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت ، فقال الشيخ النجدى : لا والله ، ما هذا لكم برأى ألم تروا ، حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم اليكم حتى يطؤكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأيا غير هذا . فقال أبو جهل بن هشام :

والله إن لى فيه لرأيا ، ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ، فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم، فقال الشيخ النجـدى : القول ما قال الرجل ، هذا الرأى الذى لا رأى غيره ، فتفرق القوم على ذلك ، وهم مجمعون له .

وفى هذا يقول الله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » وقوله عز وجل « أم يقـولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين » .

فلما كانت عتمة من الليل اجتمع الفتية على بابه صلى الله عليـه وسلم ، يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه ، وأخبر جبريل رسول الله أن لا يبيت هذه الليلة على فراشه . فأمر على بن أبى طالب أن ينام على فراشه ، وأن يتسجى ببرده ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ حفنـة من التراب ، ورمى به على رءوس القوم وهو يتلو صدر سورة « يس » فأغشاهم الله ، وخرج دون أن يروه ، ولم يدركوا ذلك حتى الصباح ، وتلك آية من آيات نصر الله .

قال ابن اسحاق : وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ حفنةمن التراب فى يده . . . وأخذ الله تعالى على أبصارهم فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو هـذه الآيات من يس « يس ، والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم ، تنزيل العزيز الرحيم » الى قوله « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات ، ولم يبق منهم رجل الا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف الى حيث أراد أن يذهب ،فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقـال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا : محمدا قال : خيبكم الله قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكـم رجلا الا وقد وضع على رأسه ترابا ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهميدهعلى رأسه ، فاذا عليه تراب . ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائما عليه برده ، فلما يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام على رضى الله عنه عن الفراش ، فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا ، فهذه آية من آيات نصر الله . ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرا الى المدينة وخرج أبو بكر معه ، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم . تطلعت نفس سراقة بن مالك بن جعشم الى هذا الجعل ، فامتطى جواده وامتشق سلاحه . وقد علم من بعض الناس أين قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع بعض صحابته ، وظل يغذ السير حتى كان على مقربة منه ، فعثر به فرسه ، وساخت يداه فىالارض . وهو ينظر فى تلك الآونة الى ضالته ، ويرى فيها مغنما كبيرا ، يرى فيها مائة ناقة ، وأمامه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صاحبه ، فنزل عن فرسه ، وانتزع يديه من الارض ، وظن أن رسول الله وأبا بكر فى قبضته فانه منهما قاب قوسين أو أدنى ، فاذا به يرى ريحا شديدة تثير غبارا كثيفـا فى وجهه لا يرى منه شيئا أمامه ، عندئذ علم أن الله مانع منه رسوله ، وأنه تعالى غالب على أمره ، وأسقط فى يده وطلب الامـان لنفسه ، ثم كان اسلامه يوم الفتح ، قال سراقة يحكى هذه القصة : فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى . فذهبت يداه فى الارض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع

يديه من الارض وتبعهما دخان كالاعصار ، قال : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى ، وأنه ظاهر ، قال : فناديت القوم فقلت : أنا سراقة بن جعشم ، انظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر . قل له : وما تبتغى منا ؟ قال : فقال ذلك أبو بكر . قال قلت : تكتب لى كتابا يكون آية بينى وبينك ، قال : اكتب له يا أبا بكر . » فهذه آية ثانية من آيات النصر .

وأقام رسول الله صلى اللهعليه وسلم فى الغار ثلاثا ومعه أبو بكر ، وقد استلحقه من خف لطلبه طمعا فى جعل قريش مقتفيا الاثر ، ووصل بعضهم الى الغار ووقف على بابه ، وتردد فى اقتحامه أيكون فى داخل هذا الغار حيث انقطع الاثر ؟ ولكن ، فما باله يبدو كالطلل البالى ؟ نسج العنكبوت عليه بيته ، وكأنه كسى حلة من خيوطه ، أخفت معالمه فكيف يتأتى أن يكون بداخله انسان ؟ ويرتجف قلب أبى بكر الصاحب الصديق خوفا على دعوة الله ، فى شخص رسول الله صلى عليه وسلم ، ويتمزق فؤاده حزنا ، إن القوم على باب الغار مدججون بأسلحتهم ، فأين المفر ؟ ويقول أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لو نظر أحدهم الى موطىء قدميه لرآنا ، ولكن القلب الكبير الذى يتنزل عليه الوحى ، تغمره الثقة فى عون الله ونصرته ، وتحفه الطمأنينة الكاملة ، فيقول صلى الله عليه وسلم لصاحبه : يا أبا بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ لا تحزن إن الله معنا ، وفى هذا نزل قوله تعالى : « ألا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

إن هذه « المعية » فى قلوب المؤمنين هى القوة التى يتسلح بها أهل الايمان ، فتشد أزرهم أمام الشدائد وتقوى عزائمهم فى أهوال المحن ، وتمدهم بالسكينة التى لا ترهب بطش الجبارين وعسف المستبدين وتلك آية من آيات النصر كذلك .

نواة الدولة :

إن الاسلام عقيدة وعبادة ، وخلق وتشريع ، فهو نظام متكامل للحياة ، وليس الاسلام فلسفة نظرية تعيش فى أحلام المفكرين ، وآمال المصلحين ، ولكنه منهج حياة ، لا يؤتى ثماره الا فى واقع مجتمع يدين به ، ويعمل بما فيه ، ويقوم على تطبيق شرائعه ، ولا يسوغ فى دين هذا شأنه أن يظل دعوة باللسان ، أو سطورا فى كتاب حتى تكون سطوره فى كتاب الواقع الذى يعيشه المؤمنون به .

إن خبير علوم التربة والنبات يستطيع أن يتحدث عن أنواع التربة وخصائص كل تربة منها ، وعن أنواع النبات وميزات كل نوع كذلك ، وقد يضع تخطيطا كاملا لحائط من الفاكهة يشمل اختبار التربة الصالحة ، وتهيئتها للزرع ، وطرق الغرس السليمة ، ووسائل تعهدها بالرى والسماد ، وصيانتها من الآفات حتى تزهر ثم تينع وتثمر ، ولكن هذا الحائط يظل تخطيطا يقرأ حتى يتم تنفيذه ، وتكمل مراحله وعندئذ ينتفع الناس به ، فيستمتعون بثماره .

كذلك الاسلام لا يؤتى أكله لخير الانسانية حتى يكون له واقع حى فى مجتمع مسلم . يحتكم الى شريعة الله فى شئون حياته كلها ، وهذا هو ما نعنيه عندما نقول : الاسلام دين ودولة .

وقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام طوال العصر المكى ثلاثة عشر عاما ، فآمن به قليل ، وعاش هذه الفترة مع أهل الجاهلية

يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتى هى أحسن ، وهم يواجهونه بالتكذيب والاتهام والاضطهاد فينزل الوحى عليه بالصبر على أذاهم حيث لا يستطيع أن يجابه قوتهم بمثلها ، ولكن هذه المهادنة للجاهلية الاولى كانت الى حين ، فان المجتمع الجاهلى بتصوراته وأوضاع حياته لا يتعايش معه الاسلام ، ولئن هادنه الاسلام فى فترات ضعفه فان أمد ذلك أن تتهيأ بيئة صالحة لقيام مجتمع مسلم يمارس فيه المسلمون واجبات دينهم الفردية والجماعية فى شئون حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بحرية كاملة ، وتكون السيطرة فيه للاسلام وحده عقيدة وعبادة وسلوكا وتشريعا ، وقضاء وحكما ، ومن هذا المجتمع ينطلق العمل الاسلامى لنشر الدعوة بالجهاد فى سبيلها والذود عن حياضها فتكون المفاصلة بين الاسلام والكفر مفاصلة حاسمة ، وهذا هو المفهوم الصحيح للدولة .

وحين وجدت تلك البيئة فى المدينة ، وبايع الأنصار بيعة الحرب على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره . أذن الله للمسلمين بالهجرة وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت نواة المجتمع الاسلامى ، أو بعبارة أخرى كانت نواة الدولة المسلمة ، وأصبح الولاء فى هذا المجتمع لله وحده ، فلا مهادنة للكفر ، وبدأت قاعدة هذه الدولة بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، هذه المؤاخاة التى بلغت درجة الايثار « والذين تبؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وكانت لها حقوقها فى الأرث والموالاة والنصرة « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير » ثم نسخ الأرث بقوله تعالى « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » وما نزل فى المواريث ، وبقيت الموالاة والنصرة .

ان هذه المفاصلة التى تمت بالهجرة قطعت وشائج قرابة الجنس والدم وأحلت محلها قربة النفس والروح بالعقيدة « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

وبهذا كان التمايز بين دار الاسلام ودار الكفر أو الحرب ، فالاسلام لا يؤتى ثماره الا فى مجتمع مسلم يؤمن بالاسلام عقيدة ومنهج حياة ، ويرسى دعائم شئونه كلها على هدى شريعته ، ومن هذا المجتمع — على ضيق رقعته — يكون منطلق العمل الاسلامى الشامل حتى يكون الدين كله لله ، ومن نواة الدولة فى المجتمع المدنى عند الهجرة كانت شجرة الاسلام الباسقة فى أوج الحضارة الاسلامية ، وذروة عظمتها ، وعلى العاملين للاسلام أن يعوا هذه الحقيقة فى طبيعة الدعوة ، وأن يميزوا بين عهدين ، أحدهما يكون توطئة للآخر ، حتى يحقق الله لهم النصر الذى وعده المؤمنين .

وبعد :

فتلك دروس من الهجرة لها معانيها ، عسى أن نهتدى بها ، ونقتفى أثرها « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .



— ٣ —

للدكتور : محمد سلام مدكور

انتهينا فى المقال السابق الى ذكر العقائد الاساسية التى يجب الايمان بها ، وأن أسلوب مخاطبة العقل وحده هو مسلك المسلمين فى توجيه الناس الى الايمان بالله سبحانه وعرضنا صورا من ذلك ، وبينا منهج القرآن فى ربط النظر فى الكون وفى أنفسنا بتصحيح الايمان واصلاح العقيدة . وقد عدنا بالكلام هنا عن الايمان بالبعث والحساب والرسل .

تعاقبت الرسالات السماوية على الانسان أمة بعد أمة وكلها توجه الى طريق الكمال وتبصر الناس بما فيه خيرهم يقول سبحانه : « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** » ويوجه الاسلام الى الايمان بجميع الرسل وبما أنزل عليهم من رسالاته يقول الله تعالى : « **قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم** » ..

وكما طلب الاسلام الايمان بجميع الرسل طلب الايمان بأن محمـــــدا صلوات الله عليه خاتم النبيين والرسل وأن رسالة الاسلام هى خاتمـــــة الشرائع التى بهـــا تستقيم حياة الانسانية وأنها موجهة للناس جميعا فى كل عصر وفى كل مكان يقول الله سبحانه : « **ما كان محمدا أبا أحـــد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** » ويقول جل شأنه : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » **ويقول :**

« **وما أرسلناك الا كافـــة للناس** » ويقول سبحانه لنبيه محمد صلوات الله عليه « **قل يا أيها الناس انـــى رسول الله اليكم جميعا** » .

فالاسلام دين الانسانية كلهـــــا ورسول الاسلام جاء للبشرية عامـــة بشيرا ونذيرا وموجها الى الخيـــر وحقا ان تعاليم الاسلام جاءت بعمومها وشمولها ومرونة مصادرها صالحـــة للتطبيق فى كل مكان وعصر مـــع اختلاف الاعراف والمصالح مما يدل عن طريق العقل أنه آخر الشرائع السماوية التى ينبغى أن يلتزمهـــــا الناس ويحتكموا اليها .

ومحمد صلوات الله عليـــه خاتم النبيين حقا فالواقع يؤيد ذلك وقد مضى على دعوته أكثر من أربعة عشر قرنا دون ظهور دين سماوى آخر ولا رسول من بعده ولذا فانه يجب الايمان بجميع الرسل السابقين وقد تحدث عنهم القرآن والايمان بأن محمدا خاتم النبيين والرسل وأنه لا رسول مـــن بعده ولا رسالة بعد رسالة الاسلام فهو الدين الواجب الاتباع الذى يلزم الناس لقاء الله عليه .

وأما الايمان بالبعث والحساب : فهذا أقوى ما يدفع الانسان الـــى الكمال فى عمل الخير والرقى فـــى حياته ، والاديان السماوية جميعهـــا تتفق على الايمان بالبعث بعد المـــوت والحساب على ما قدم الانسان فى حياته من أعمال ان خيرا فخير وان شرا فشر . وهذا حق لا شك فيه .

فالفرد يقضى فترة فى الدنيا يعمـــل فيها ما توجهه اليه مواهبه ورغباته ثم يمضى من الحياة تاركا وراءه أعمالا وأمالا وأهلا وخلطاء فيهم المحب وفيهم المبغض ، ويزول الانسان من الوجود وتبقى ذكراه وأعماله ومنها ما هـــو ظاهر معروف ومنها ما هو سر دفين، ومنها ما هو خير ومنها ما هو شر . والناس فى كل هذا متفاوتون .

فهل ينتهى كل شىء بوفاة الانسان وينمحى أثره فلا حساب ولا عقاب ويستوى المفسد والمصلح ، والعامل على احياء الرذيلة وبذر الشر مـــع الخير المتمسك بأهداب الفضيلة . ؟ وهل يستوى القاتل بغير حق القاطع على الناس هدوء أمنهم والمعتدى على أموالهم وأعراضهم المثيـــر للفتن والقلاقل بينهم الكذاب الأشر المناع للخير المنغمس فى شهواته وملاذه . هل يستوى هذا مع المصلحين أعمالا المتفانين فى خدمة المجتمع الحريصين على اداء الواجب على أكمل وجـــه وأحسنـــه الذين تتفجـــر جـــوانبهم بالانسانية الكاملة والتعاون الصادق الذين لا يقولون الا حقا ولا يفعلون الا خيرا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ويجودون بالروح والدم فى سبيل العقيدة والحق ؟ وهل بانتهاء حياة الفرد انتهى كل شىء وزال حق المظلوم وفاز الظالم بما اقترفت يداه ؟

وكيف يقبل العقل البشرى أن يكون مصير جنسه الذى عمـــر الارض واكتشف بعض ما فى الكون من أسرار زائلا الى الابد دون رجعة أو جزاء ؟! هل يقبل العقل هذا أم يرى أنه لا بد من عالم آخر توفى فيه كل نفس ما كسبت « يوم تجد كل نفس ما عملت

من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » ؟

لا شك أن الانسان لو خلى وعقله لانتهى بادراكه وتفكيره الى أن الموت نهاية مرحلة أولى وبداية مرحلة أخرى وأنه يخفى من ورائه شيئا آخر ، وأن الروح انما تنتقل من وجود الى وجود، وأن بعد الحياة حياة أخرى نجهل كنهها ووصفها لكن العقل يؤمن بها ويوجه اليها ، هذه الحياة الاخرى يحاسب فيها الانسان على ما قدمت يداه فى حياته الاولى ويلقى حسابه ان خيرا فخير وان شرا فشر . وعمل الانسان فى دنياه يكون أمامه واضحا كتابا مسطورا وكأنه يقرأه ليعرف ما له وما عليه وصدق الله سبحانه القائل « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » ويقول جل شأنه « أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » ؟!

وما أجمل التعبير القرآنى الكريم بأسلوبه العالى الرفيع لاقناع الانسان من أقرب الطرق بأن هناك بعثا وحسابا فيقول « فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب . انه على رجعه لقادر » فمن نظر فى كيفية خلقه من هذا الماء المهين وجعله فى ذلك القرار المكين ، وكان صائب النظر مستقيم الادراك فانه منته لا محالة الى التصديق بأن وعد الله واقع وأن قدرته على ذلك الخلق البديع العجيب لا يعجزه أن يحقق ما وعد به من الحياة الآخرة واليوم الموعود الذى تجد فيه كل نفس ما عملت ماثلا أمامها ولله در القائل « من عرف نفسه فقد عرف ربه » « ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » .

هذا هو مسلك القرآن فى توجيه الناس الى الايمان بالبعث والحساب والجنة والنار . فهو يوجههم الى ذلك بالحجة الواضحة والبرهان القاطع . فهم الحجة وهم البرهان وصدق الله **« ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس . وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون »** .

ففيم يختلف الناس من أمر هذا الخالق ، وكيف يتنكرون للقائه بعد ذلك أليغالطوا عن الحقائق أنفسهم فيعيشو الى الدنيا كما تعيش الانعام ، ويرخوا لانفسهم حبل الامل فى حياتهم الدنيا لتلعب وترتع ؟ وقد نبههم الله وتندر منهم فى قوله جل شأنه **« ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون »** موجها بذلك كله القلوب الناسية والنفوس الجامحة الى الاذعان بالبعث والحساب وأن هناك يوما يرجعون فيه الى الله . حتى يستقيم سلوكهم ولا يتظالموا فيما بينهم ويؤدى كل منهم لأخيه حقه اتقاء لذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة من شدة هوله عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها نتيجة لما أصابها من خوف واضطراب وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد . فلا وربك ان ما توعدون لصادق وان الدين لواقع . وكل نفس بما كسبت رهينة .

ومن صور تندر الله سبحانه بمنكرى البعث والمترددين فى الايمان به وأخذ

العدة له قوله سبحانه « ويقـــول الانسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا » وذلك اذ يرد على هـــذا التساءل بأسلوب كله اقناع من أقرب الطرق من غير تتبع أو تلفت ، وانما فى محيط الانسان نفسه وخلقه فيقول : « أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » وكذلك فان من هذا القبيل قوله سبحانه « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قـــال من يحيى العظـــام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

والبعث وان كان حقيقة جاء بهـــا الدين ووجه الناس الـــى الاقتناع والايمان به فانه أيضا حقيقة يدركها العقل السليم اذ العقل يتجه تلقائيا الى أن الفاضل يجب أن يلقى خيـــرا جزاء عمله وأن الآثم يلقى شرا جزاء عمله ، وقد لا يحدث ذلك فى الحياة على وجه الارض . فما أكثر الفضلاء التاعسين فى حياتهم وما أكثر الاشرار الذين ينعمون بخيرات الدنيا واذا فأين يكون الجزاء الذى أدركه العقل لا بد من يوم آخر يلقى فيه المثيب جزاءه والمجرم عقابه انه اليوم الموعود . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . ان العقل البشرى ليهتدى من نفسه الى الحياة الاخرة ، وقد اهتدى الـــى ذلك قدماء المصريين منذ قرابة خمسة الاف سنة حينما انتشرت عبـــادة « أوزوريس » فقد كان أساسهـــا أن كل انسان مسئول بعد المـــوت عن أعماله فى الدنيا أمام محكمة الهية فاذا حكمت بأن حسنات الميت ترجح سيئاته كوفىء بالنعيم الخالد ، وان حكمت بأن سيئاته أكثر ألقى فـــى النار أو ضرب عليه نوع آخر مـــن العذاب .

وكذلك فقد آمن الفرس والاغريق والرومان بالبعث والحساب حتـــى الهندوكيين والبوذيين فانهـــم يؤمنون بأن الروح تنتهى أخيرا الى وجـــود آخر . بل نجد بعض الفرق الاسلامية وهم المعتزلة والماترودية من أهـــل السنة يرون أن أمور العقائد ومنها معرفة الله والايمان بالبعث والحساب من الامور التى تدرك بالعقـــل ولا تتوقف معرفتها على النقل ولا أرسال الرسل فالايمان وكل ما يتعلق بالعقائد يتطابق فيه حكم الشرع مع العقل ، وينبنى على هذا أن أهـــل الفترة محاسبون على ضلالهم فى العقائـــد وقد نقل عن أبى حنيفة أنه قال : لا عذر لاحد فى الجهل بخالقه لما يرى من خلق السموات والارض ويقول : « لو لم يبعث الله رسولا لوجب على الخلق معرفته بعقولهم »

وهكذا نرى أن البعث والانتقال من هذه الحياة الدنيا الى حياة الخلد أمر يتفق فيه العقل مع الدين وذلك لان الانسان لم يخلق فى هذه الحياة عبثا بل خلقه الله لغاية جليلة فى عمارة الكون فلا مناص اذا من أن يبعث بعد موته ليلقى بعد الحساب ما يستحق من ثواب أو عقاب .

أنظر معى أيهـــا القارىء الـــكريم — وفقك الله الى الحق وزادك ايمانا — أنظر قول الله تعالى : **« ألم نجعل الارض مهادا والجبـــال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكـــم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعـــا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجـــا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا . ان يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجـــا .. »** فان ما يعدده لنا من بديع خلقه ودلائل قدرته وكمال وصفه ليوصلنـــا دون

جدال الى الايمان الكامل به وبالبعث والحساب . فمن الذى أوجد هــذا الكون وأوجدنا نحن فيه وخلق لنــا العقل والتفكر ، ومن الذى سخــر لنا الارض طيعة فيما نريد منها وجعلها

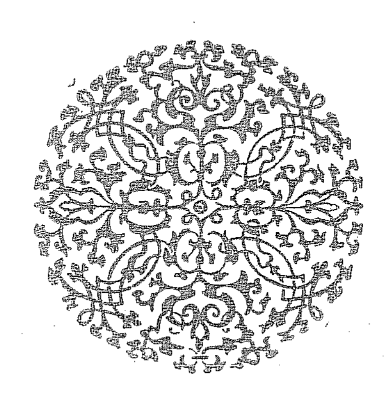
تخرج عجائب النبات والزرع صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحــد ويتغذى بغذاء واحد ويعيش فى جو واحد لكن النبات والزرع مع هــذا

مختلف أكله ولونه وتكوينه . وما دمنا قد آمنا بأن هناك خالقا فهل يتصور العقل أنه خلقنا وكلفنا بفعل الخيــر والابتعاد عن الشر ولا أثر يترتب على طاعته أو عصيانه .

انه سبحانه بهذا يخاطب عقولنا لتتفتح الى الايمان به واتباع أوامــره وارشاداته واجتناب نواهيه ، والعمل فى الحياة بما يجعلها نافعة مفيــدة للجميع . ثم ينتهى بنتيجة يذكرنا بها دائما لخفائها عن الانظار فيقول : « ان يوم الفصل كان ميقاتا » .

والانسان متى آمن بهذا كله : آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث والحساب كان حريا أن ينأى عــن الشرور والآثام وأن يقبل على الخير ويبادر الى الطاعات ويستفيد من دنياه لأخراه كما قال الرسول صلوات الله عليه فى موعظة له « أغنم خمسا قبل خمس . شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقــرك ، وفراغك قبل شغلك وحياتك قبــل موتك » .

والى لقاء فى مقال آخر نختتم به الكلام فى هذه الحلقة ونبين فيه أثر الايمان فى النفوس . اللهم اهدنــا الى رشاد واملأ قلوبنا بالايمان .





رأى فى القيادة :

قال لى أحدهم فى معرض الحديث عن الرجال الممتازين ، القائد هـو الرجل الذى يتميز من سواه بالحركة . والناس يسيرون وراء القائد ويطيعونه لانه يملك قدرة فائقة على تغيير مواقعه فى خدمة أفكاره . والواقع ان القيادة الناجحة هى تلك التى لا تؤمن بالسكون . أنها خيال حافل بالنشاط وحركة متصلة فى غير راحة وعداوة طبيعية لكل ما هو ساكن هادىء . الغليان فى الفكر كالغليان فى العاطفة وكالاضطراب المادى فى الارض ، أنها كلها آيـة على الحياة القوية الممتازة .

من هنا تصبح الحركة عند المفكر المبدع والبطل الطموح والعابد الصابر والمغامر الجرىء صفة لازمة لكل منهم . فهم لا يستطيعون الانفصال عنها لأنها المبرر الوحيد لوجودهم .

ومن هنا أيضا كان الرجال المهاجرون ــ بحثا عن مواطن الرزق وحفاظا على سلامة عقيدتهم ــ هم الرجال الذين يمنحون المسيرة البشرية محتواهـا الحضارى .

واذا كانت هناك حضارات متعاقبة فى تاريخ البشرية فلأن الحضارة اللاحقة حضارة فتية تجتاح الحضارة السابقة الهرمة التى فقدت القدرة على الاستجابة للتحديات الخارجية .

في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

للاستاذ رمضان لاوند

الحضارة والفتوة :

فى ضوء هذه الحقيقة التى نقررها نستطيع أن نقول : إن الحضارة هى فتوة الفكر والجسد والعاطفة والارادة .

فيوم يفقد المجتمع قدرته على التحرك والتغلب على ما يصادفه فى عالم الطبيعة والانسان من العراقيل والمتاعب فقد كتب على نفسه الموت .

ولذلك فاننا نعتقد بأن الانتفاضات التى يتحرك بها الجسد العربى المسلم اليوم والتناقضات العنيفة التى يعانيها هى الآية والعلامة على أن احتياطيا كبيرا من النشاط بدأ يتفجر بطاقاته فى طريق التاريخ . واذا كان ما يزال متعثرا فى خطواته ، مبهورا أمام ما يواجهه من التجارب عاجزا عن استيعاب الأبعاد الحقيقية لمعضلته فلأنه ما يزال فى حاجة الى مزيد من الوقت والنضج والممارسة . .

إنه لم يعرف فى تاريخ أمة أو حضارة أن هذه أو تلك قد خرجت الى الدنيا برؤية فكرية واضحة يرفدها نشاط فائق الا بعد أن يكون أبناؤها قد دفعوا من أعصابهم ودمائهم وأرواحهم الثمن الكبير الذى تفرضه عليهم .

المتواكلون ساقطون فى الطريق لأنهم يخافون الحركة . والمقلدون طريدو الحياة لأنهم يهابون الابداع . والملحدون الخربون فاشلون فى تحمل مسؤوليات البناء لأنهم عاجزون عن تكوين رؤية اعتقادية بناءة .

الاسلام والحركة :

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم قد ناقش ظاهرة الحركة واعتبرها عنوانا على القوة الفائقة ومخرجا من مخارج الخلاص حين حدثنا على لسان الملائكة والضعفاء ونقل الينا الحوار التالى بين هؤلاء وأولئك . قال عز وجل فى الآيات ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ من سورة النساء :

« أن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا » ..

الصورة واضحة جدا . ان تبرير الخضوع بادعاء الضعف موقف مرفوض لانه عنوان على التواكل وآية على السكون الذى هو بعض معنى الموت . وتقرر هذه الآيات الكريمة أن الخروج من الضعف لا يكون بمواجهة القوة وحسب بل يكون أيضا بالمهاجرة والخروج فى أرض الله الواسعة . والقرآن لا يجد عذرا مشروعا للناس المزعومين مستضعفين ما لم يكونوا من الولدان والنساء والرجال العاجزين حقا عن الحركة والتنقل . ويسترسل الوحى من بعد فى ابراز ثمرة المهاجرة ونتائجها فيقول : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما (١) كثيرا وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما » .

واذا فالتعليم الاسلامى واضح فى هذا المعنى . إنه يرفض أى اعتذار .

الهجرات فى التاريخ :

ولماذا نذهب بعيدا فى البحث التجريدى عن معنى الحركة والتنقل ؟! يكفى ان نتذكر بأن الهجرات البشرية التى ترافقها رسالات فكر وعقيدة هى وحدها التى تصنع الحضارات وتبنى المجتمعات المزدهرة وتصلح الارض وتشيع الحياة والخضرة فى ارجائها .

أو ليس أن تاريخ الاسلام فى فجر نهضته هو سلسلة من الهجرات التى يحمل أصحابها رؤية فكر وعقيدة ؟ أوليس أن حضارات الشرق الاوسط فى سوريا والعراق ومصر كانت كلها ثمرة هجرات بشرية متعاقبة من الصحراء ؟

وأخيرا أليس أن نهضة القارة الاوروبية فالاميركية من بعد كانت حصيلة الافواج من الرجال والنساء الذين خرجوا من ديارهم يبحثون عن الرزق ويسعون الى الاستيطان فى الاراضى البور التى لم يحسن أصحابها القيام عليها ؟ !

واذا كانت هناك فوارق بين حضارة وأخرى فهى فوارق ناجمة عن نوعية الفكر الذى تحمله أفواج المهاجرين وعن قيمة العقيدة التى بها يعتقدون .

المهم هو أن الهجرات التى ترافقها رسالة معينة ذات عقيدة خاصة هى وحدها القادرة على صنع الحياة وجعل أصحابها جزءا من التاريخ البشرى الاصيل ..

هجرة النبى عليه الصلاة والسلام :

فى ضوء هذه البينة نواجه ظاهرة أخرى فى تاريخ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . لقد حاول عليه السلام أن يواجه جماعة قريش بكل ما كان

يملك من قوة الخلق وقدرة على الصبر ووضوح فى الرؤية وأصالة فى العقيدة . ولكن مكابرة هذه الجماعة المشركة وضعته أمام أحد موقفين لا خيار له معهما فاما أن يستسلم للشرك فى جموحه وعناده وأما أن يهاجر بحثا عن أرض أخرى وشعب آخر يجد عندهما من الوعى ومن الاستعداد للفهم ما لم يجده عند جماعة قريش ومن الطبيعى أن يختار الموقف الثانى فيصدع بأمر اللـــه ويقرر الهجرة اليه فى أرض جديدة وجماعة جديدة . والجدير بالذكر ان الهجرة النبوية الكبرى قد سبقت بهجرتين جانبيتين أريد بهما أن تكونا مخرجين من المآزق التى كان المسلمون يجدون فيها أنفسهم بسبب من تعنت قريش ومغالاتها فى أضطهاد الفئات المؤمنة . والواقع أن هاتين الهجرتين قد كانتا بمثابـــة تجربتين تمهيديتين يتحسس بهما المسلمون موطنا ظنوا انه يصلح لهم . أو أنهما كانتا محاولتين أراد بهما النبى صلى الله عليه وسلم أن يتعرف الـــى النتائج العملية المترتبة على الخروج من الديار .

وقد أراد الله سبحانه وتعالى فى سابق علمه أن تكون الهجرة الكبـــرى التى تغيرت بها أقدار المسلمين ووضعت بها أحجار الأساس لدولة الاسلام الفتية فى أرض عربية والى شعب عربى . وهى ارادة متفقة مع سنن الله فى خلقه . ان احتمالات الوحدة فى العمل والتعاون بين الفئات المهاجرة وبين الشعب الجديد تكون أكثر توفرا حين تشد الفريقين اللغة المشتركة والعقلية المتقاربة والجغرافية الواحدة . هكذا صدر الامر الالهى ونزل بهالوحى الى النبى صلى الله عليه وسلم ان اخرج من بلدك مكة الى حيث تجد حظا أوفر من النجاح وقوما أكثر استعدادا لتقبل رسالة الاسلام .

سياق آية الهجرة :

ومما يلفت النظر أن الوحى السماوى قد وضع الحديث عن الهجرة فى صميم آيات قرآنية تناقش القاعدين عن القتال والمتواكلين المترددين فـــى الحركة وتكشف عن أخطار التثاقل والتباطؤ فى ميدان الكفاح من أجل العقيدة والعمل فى سبيل رسالة الله . والحديـــث عن الهجرة فى هـــذا الســياق يطرح قضيتين هامتين :

القضية الاولى هى قضية الحركة الناشطة التى ترمز الى الفتـــوة والحيوية عند صاحبها . والقضية الثانية ، هى قضية العقيدة والثقة المطلقة بنصر الله كآية على أهمية الرؤية الاعتقادية المرافقة لحركة الهجرة الى الارض الجديدة والشعب الجديد .

لنقرأ فيما يلى كلام الله فى هذا المعنى . انه يقول « يأيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحيـــاة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير . الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم . انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » ..
هكذا يبدو لنا أن سخط الله عز وجل موجه الى المتثاقلين فى الارض

المتوانين فى الحركة والمترددين أمام المسؤوليات التى يفرضها الجهاد فى سبيل العقيدة .

انه عز وجل يهدد هذه الفئة من الناس بالعذاب واستبدال قوم غيرهم ويؤكد لهم أن نصر الله للنبى لا يتوقف عليهم فاذا ترددوا فى الهجرة الى ميدان القتال وجبنوا أمام العدو فعليهم أن يتذكروا يوما لم يكونوا فيه الى جانب محمد عليه الصلاة والسلام ولم تكن لهم يد فى نصره . يوما أخرجه فيه كفار قريش يرافقه صاحبه وصفيه أبو بكر رضى الله عنه . فاذا آنس النبى فى صاحبه خوفا أو شبه خوف بادر الى طمأنته فيقول له : لا تحزن ان الله معنا . فى هذا اليوم تم النصر له وأخرجته العناية الالهية من المأزق الشديد الذى وجد نفسه فيه وصاحبه وجعلت كلمة الذين كفروا السفلى وبقيت كلمة الله هى العليا . ثم يمضى الوحى السماوى فيحرض المتواكلين المتثاقلين المؤثرين لمتاع الدنيا وزينتها على النفرة والنهوض للقتال خفافا وثقالا . يجاهدون بالأموال والأنفس فى سبيل الله لا يردهم خوف ولا تزلزلهم تهديدات العدو .

ولو شئنا ان نمضى مع الآيات القرآنية التالية لوجدنا صورة حقيقية لنفسية الفئة المتواكلة المتثاقلة على ان هذه الصورة ليست مما نقصد الى تحقيقه فى هذا الموضوع .

الهجرة وحضارة الاسلام :

واذا فنحن حين نتحدث عن الهجرة النبوية انما نتحدث فى الواقع عن قمة الانتصار على الضعف وحين نستشهد بوقائعها نحاول ان نقرر الحقيقة البسيطة التالية — وهى ان الحضارة ثمرة الفكر المهاجر الباحث فى أرض الله الواسعة عن الخلاص والازدهار .

فاذا قلنا ان هجرة النبى صلى الله عليه وسلم هى التى وضعت حجر الأساس لمجتمع الحضارة الاسلامية فنحن لا نجاوز الواقع . انها البرهان الدامغ على ان العقيدة الحية الناشطة والمتحركة هى وحدها التى تصنع تاريخ الامم العظيمة .

ولو أردنا أن نستعمل اللغة العصرية فى تصوير معنى الهجرة النبوية لقلنا ان هذه الهجرة هى قمة المعاناة التى تتفجر بها ينابيع القوة والالم وتتلاقى بها أشعة الايمان وظلمات الكفر ويتقابل فيها يقين الارادة واضطراب الضعف البشرى ثم تنتهى هذه المعاناة الى موقف النصر بفضل الخلق القوى والايمان الواعى واليقين المطمئن .

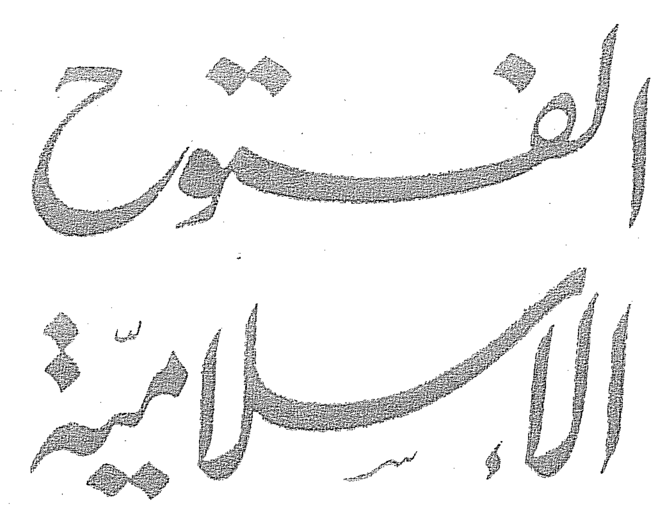
ولئن لم يكن لذكرى الهجرة من دور تقوم به غير أنها تذكير لنا بقيمة العقيدة المتحركة النشيطة لكان حقا علينا أن نحتفل بها للعظة والعبرة .

« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد » .

---

(١) المراغم : هو المهرب والمخلص والحصن مشتق من الرغام وهو التراب .

في مسيرة
التاريخ الإسلامي



للدكتــور أحمد ابراهيم الشريف

إن توحيد العرب فى شبه الجزيرة العربية تحت راية الإســلام على يد النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم تثبيت هذه الوحدة على يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه بعد القضاء على حركة التمرد التى قامت بها القبائل العربية والتى عرفت باسم ((الردة)) ، كان حدثاً كبيراً فى تاريخ العــرب ، فلم يعرف العرب هذه الوحدة الشاملة تحت راية دولة ودين إلا بمجىء الإسلام . وقد ترتب على هذا الحدث الكبير حدث أكبر منه بالنسبة لتاريخ البشرية جميعاً ، فقد خرج العرب الى المجــال الخارجى فى حركـــة فتوح عظيمة امتدت فى المشرق الى أواسط آســيا ، ووصلت فى المغرب الى شــواطىء المحيط الأطلسى وغرب أوروبا ، ونتج عن ذلك نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الإنسانيـــة من جميــع النواحى السياسية : السياسية والدينية والحضارية على السواء :

فأما من الناحية السياسية ، فقد تغيرت خريطة العالم السياسية ، إذ سقطت امبراطوريات كبيرة كانت تمد سلطانها على جزء كبير من العالم المعروف وتتحكم فى تقرير مصيره ، وقامت دولة جديدة امتدت على رقعة فسيحة من الأرض شملت العالم المتحضر كله فى ذلك الوقت ، ولم يشهد العالم امبراطورية امتدت على رقعة متصلة من الأرض هذا الامتداد ، وكان لهذه الامبراطــورية الجديدة خصائص تخالف الامبراطوريات القديمة والحديثة فى التفكير السياسى والحضارى والاجتماعى .

وأما من الناحية الدينية ، فقد قامت ديانة جديدة اعتنقها معظم الشعوب المتحضرة فى العالم يومئذ ، وغلبت فيها على ديانات كبرى . وبقيامها تم القضاء على الوثنية قضاء حاسما . وعرف العالم لأول مرة معنى الحرية الدينية ، فان الإسلام اعترف بالديانات السماوية ، ولم يحترم حــرية العقيدة فحســب ، وإنما كفلها ورعاها .

وبقيام الامبراطورية الإسلامية قامت حضارة إسلامية ، نستطيع أن نقول مطمئنين إنها أول حضارة عالمية قامت على هذه الأرض ، فقد اتسع أفق المسلمين الفكرى لهضم الحضارات السابقة ، واتسع صدرهم للاعتراف بها ، وهذا الاتساع فى الأفق الفكرى يرجع إلى خصائص الإسلام الذى كما نادى بوحدة الخالق نادى بوحدة الخلق ، وجعل العقل أساس المعرفة ، ولهذا نقب المسلمون عن حضارة اليونان ، فاستخرجوا كنوزها المدفونة فى طيات التاريخ، كما فتشوا عن حضارة بابل وآشور وفينيقيا ومصر وبحثوا عن حضارة الفرس وحكمة الهند ، ونقلوا هذا الترا ثالى اللغة العربية ، ثم درسوه وشرحوه ، وأضافوا اليه وأصلحوه ، وطبخوه جميعا فى وعاء واحد ، فأخرجوه للناس بعد ذلك مزاجاً جديداً ، اتخذ اللغة العربية أداته والمثل الإسلامية العليا قواعده وسياجه .

ولم ينفرد رجال العرب بالقيام على هذه الحضارة وتنميتها ، بل أتاحوا لكل العقول على اختلاف أجناسها ودياناتها أن تشارك فيها وتسهم بقدر ما تتيح لها مواهبها وكفاياتها ، فبرز كثير من رجال الفرس والترك والسريان والشوام والمصريين والمغاربة والاسبان وكل الشعوب التى دخلت فى الإسلام أو خضعت لدولته ، فى كافة ميادين الحضارة . وكما برزت كفايات الرجال كأفراد ، برزت كذلك كفايات الشعوب كمجموعات ، فقد أتاح الإسلام لكل الشعوب أن تدخل فيه وأن تسهم فى نشاطه السياسى ، وأن تتقدم بحسب كفايتها وقدرتها فتصل الى مركز الصدارة فى حكم العالم الإسلامى وقيادته ، فلم يمض كبير وقت حتى تصدر الفرس العالم الإسلامى ، ثم تلاهم الديالمة ، ثم الترك السلاجقة ، ثم الترك العثمانيون ، وفى كل ذلك لم يجد المسلمون غضاضة فى أن تتصدر هذه الشعوب وأن تحكم تحت راية الإسلام ، فقد ألغى الإسلام فوارق الجنس واللون ، وهذه الظاهرة لم يعرف العالم لها نظيراً فى تاريخه القديم والحديث على السواء ، فلم يعرف التاريخ شعباً من الشعوب التى ضمتها الامبراطورية قديمها وحديثها ، تصدّر الامبراطورية أو ساد فيها أو حتى وصل الى المساواة مع أصحابها . وحتى العالم المتحضر الغربى لم يستطع التخلص من نزعة التفرقة الى الآن ، فهى ظاهرة لم تتحقق إلا فى دولة الإسلام . كما أتاح الإسلام للشعوب فى ظل الامبراطورية الاسلامية أن تنمى شخصيتها الإقليمية ، وأن تقوم فى حواضرها مراكز للحضارة تسهم فيها وتنافس غيرها فى مضمارها ، فتعددت مراكز الحضارة فى العالم الإسلامى ، فسمرقند وبخارى ومرو والرى والبصرة والكوفة والقيروان وفاس وغرناطة وغيرها من مدن العالم الاسلامى كانت مراكز للحضارة ، وكانت تنافس المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وهى العواصم التى قامت فيها الخلافة . وإنها لظاهرة فريدة كذلك أن لا يسعى شعب من الشعوب التى ضمها العالم الإسلامى حين أتيحت له فرصة التقدم والتفوق أن ينفصل عن هذا العالم برغم تعدد القوميات . وحتى فى أوقات التمزق السياسى لم تصطنع الحدود ولم تفرض الحواجز ، ولم يكن هناك حجر على العلماء والأفراد أن ينتقلوا عبر الدول والممالك والامارات التى قامت فى نطاق العالم الاسلامى أو أن يتعارفوا ويتعاونوا . ومن ثم ظلت الوحدة الحضارية والفكرية قائمة ، وظل الاعتراف بالوحدة المعنوية للعالم الإسلامى موجودا ، وظل المسلمون كالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

ولأول مرة فى تاريخ البشرية تختلط الدماء بين الشعوب وتنصهر الجماعة

فى شعب إسلامى واحد ، فيحصل التصاهر والتزاوج وتنشأ أجيال لا نستطيع أن نرد دمها صريحا الى جنس بعينه من الأجناس المتلاحمة فى هذا العـــالم الإسلامى الواسع .

وعلى كل من يريد أن يقدر قيمة الفتوح الإسلامية ، وأن يقيم مقارنة بينها وبين الفتوح التى سبقتها أو التى أتت بعدها ، أن ينظر اليها من نواح ثلاث :

١ — من ناحية الفكرة التى دعت اليها .
٢ — من خلال الطريقـــة التى تمت بها .
٣ — من حيث النتائج التى ترتبت عليها .

(١)

حين بُعث محمد صلى الله عليه وسلم فى مكة رســـولا يدعو الى دين جديد ، كان الهدف الدينى والاجتماعى واضحاً ، فهو يدعو الى عبادة إله واحد هو الله رب الوجود ومبدعه ، ونبـــذ ما عدا ذلك من أصنام وأوثان وكل مـــا يلقى ظلا من المشاركة مع الله « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولــم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » وقد استطاع النبى بعـــد كفاح دام أكثر مـــن عشرين سنة أن يقضى على الوثنيـــة فى بلاد العرب قضاء حاسماً ، وأن يقر الوحدانية اقرارا نهائيا واضحا . ولم تكن الوثنيـــة قد قضى عليها فى العالـــم على الرغم من وجـــود الديانات الســـماوية الكبرى وعلى الرغـــم من سعة انتشارها ، فقد ظلت الوثنيـــة تقوم الى جانب هـــذه الديانات وتعايشـها ، وأكبر شاهد على بقاء الوثنيـــة بكل قوتها وجودها فى الجزيرة العربية وهى بلد متوسط تحيط به مراكز النصرانية واليهودية على السواء ، هـــذا الى أن آثار الوثنيـــة خالطت هذه الديانات مخالطة شديدة وأثرت فى طبيعتها ، فكان ظهور الإسلام وتقريره للوحدانية تقريراً واضحاً أمرا ضرورياً ، وكان قضاؤه على الوثنيـــة فى هذه البقعة قضاء حاسماً ، وتتبعه لها فى باقى معاقلها ومحو آثارها أمراً لازماً .

ثم إن الهدف الإنسانى كان واضحاً منذ أول الأمر ، فقد جاء الإســـلام بفكرة المساواة الاجتماعية بين الناس ، وإلغاء ما قام بينهم وما كان متحكمـــاً ومعترفاً به بين الشعوب والدول حتى ذلك الوقت من التفرقة الجنسية والتفرقة الاجتماعية . فقد قرر تقريراً حاسماً أن الناس كلهم إخوة ، وهم لذلك يجب أن يكونوا متساوين فى الحقوق والواجبات ، وليس أكبر دليل على ذلك مما تعطيه الآية القرآنيـــة الكريمة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . فقد حوت كل أصـــول المساواة بين الناس ، كما أوضحت أصول التعامل بينهم ، فالخطاب فيها موجه للناس جميعاً دون تمييز بين جنس وجنس ، ثم هى تذكر أنهم جميعا متساوون فى مبدأ الخلق ، فالله رب الوجود خلقهم جميعاً ، ولذلك فلا تمايز بينهم ولا تفاضل بالأرباب . والله حين خلقهم لم يخلقهم من آباء متعددين أو أمهات متعددات ومن ثم فلا تمايز بالآباء أو تفاضل بالأمهات ، ثم تكاثروا فكانوا شعوبا وقبائل ليسهل التعارف بين جماعاتهم ويتم التعاون ويسهل التعامل . ثم أن الآية الكريمة تقرر نوع الفضل وميزة التقدم ، فتجعلها عمل الخير والسعى لتحقيق المصلحة العامة التى تحقق النفع للجميع فى ظل الإخاء العام والمساواة الشـــاملة ،

فهم من حيث المبدأ العام متساوون جميعاً ، وهم فى ظل المساواة متعاطفون متراحمون ، يقوم على قيادتهم أكثرهم عملا للخير وأعظمهم براً بهم وتحقيقاً لمصالحهم ، وأبعدهم عن غاية الطمع والاستبداد . ومن هذا المفهوم نبع المثل العربى « سيد القوم خادمهم » .

وكان العالم قبل الإسلام يعيش على غير هذه السنن ، فالأفراد فى الشعب الواحد ينقسمون إلى طبقات يعلو بعضها على بعض ، دون ما سند من الكفاية والعدل ، فهناك طبقة أشراف ، وطبقة عامة ، وطبقة عبيد ، ولكل طبقة حدود ، وأعطيت امتيازات ، وحرمت من حقوق ، وقد وصل الحرمان فى ذروته الى حد الحرمان من حق الحياة نفسها . وفى كل ذلك لم تكن المواهب والكفايات والعمل هى الحكم والفيصل ، وإنما كان المولد والثروة والطغيان . وكما تمايزت الطبقات فى الشعب الواحد ، تمايزت الشعوب فى المجتمع الإنسانى العام ، فشعب له السيادة وله كل الحقوق ، وشعب حمل العبودية والخضوع وحرم من الحقوق . وكان الغلب الحربى هو أداة السيادة وعامل العبودية فى كلتا الحالتين . ومن ثم امتلأت الحياة بالتناقضات العجيبة ، وفاضت النفوس بالحقد والعداوة ، وتعطلت كثير من مواهب الأفراد والشعوب ، وسارت الحياة بخطى ثقيلة بطيئة نحو غاية الكمال التى هى هدف رسالة الإنسان على الأرض ، ولقد تمر القرون ووسائل الحياة كما هى لم يدخل عليها تحسن ملحوظ ، ونكاد نحس أن القريحة الإنسانية عقمت فلم تعد تتفتق عن حيلة جديدة أو تنتج عملا جديدا ، وكان يبلغ بالعقم الانسانى فى أن يحارب العقول وأن تجازى المواهب بالقتل ، ويعاقب أصحاب الملكات الخلاقة بالتعذيب والإعدام .

وحتى الدين الذى كان المفروض أن يكون رحمة للناس ، فيوقظ الضمير ويرد عن الهوى ويحد من الطغيان ، حوله رجال الدين الى قيد تغل به رقاب الناس ، وقد تحالف رجال الدين مع الحكام أو نازعوهم السلطان ، وقد أصبح الناس يلف رقابهم غل مزدوج ثقيل ، أو يغلون بقيدين أحدهما يحكم الجسد ومفتاحه فى يد الحكام والآخر يسيطر على الروح ومفتاحه فى يد الكهان ، فلا حرية للجسد ولا حرية للروح .

والاسلام حين جاء فك عن العقول عقالها ، وأطلق للبصيرة الانسانية قيودها وحللها من جمودها ، ولم يرض منها بغير الانطلاق ، فانطلقت تبدع فى كل مجال . كما حرر الروح والضمير من كل سلطان ، فلا وساطة بين الإنسان وربه فهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وكل نفس بما كسبت رهينة . وحتى مجال الإيمان نفسه لم يقبله الإسلام تقليداً ، ولم يرض من الإنسان أن ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداءً « ومثلُ الذين كفروا كمثل الذى يَنْعِق بما لا يَسْمعُ إلا دعاء ونداء ، صُمٌ بكم عمى فهم لا يعقلون » فالتقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين . والمرء لا يكون مؤمنا الا اذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به ، فمن رُبى على التسليم بغير عقل ، والعمل ولو صالحاً بغير فقه ، فهو غير مؤمن . فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم ، فيعمل الخير لأنه يفقه أن الامر النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته .

ثم إن الإسلام دعا الى أدب النفس وتهذيبها روحياً واجتماعياً أساسه

الإيمان بالله ، ورياضة العقل والقلب على هذا الاساس ، دون نظر الى منفعة مادية يجنيها الانسان من وراء هذا الأدب .

ولكى تتحقق هذه المبادىء التى جاء بها الاسلام ، كان لزاما أن يضمن لها التطبيق العملى ، وإلا تحولت الى مجرد دعوة نظرية ، لا يلبث أن يخفت صوتها مع مرور الزمن وبين ضجة الحياة . لذلك حرص النبى صلى الله عليه وسلم على أن يقيم لدعوته أمة وينشىء لها دولة تكون مجالا لتطبيقها عملياً ، فما كاد يصل الى مدينة « يثرب » بعد هجرته من مكة حتى أنشأ هذه الدولة . وهو حين أنشأها حـــرص على وضع دستور مكتوب لها عـــرف عند المؤرخين باســـم « الصحيفة » . وفى هذا الدستور قرر المبادىء الرئيســـية التى سار عليها المسلمون من بعــــد ، والتى كانت أول تطبيق عملى للمبـــادىء التى جاء بها الإســـلام .

وأول بنود هذا الدستور هو « المؤمنون والمسلمون من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أمة واحدة من دون الناس » وبهذا التقرير أعطى النبى صلى الله عليه وسلم صفة للأمة الإسلامية ، فكلمة الأمة هنـــا ليست اسماً لجماعة تربطها رابطة النسب أو الجنس ، وإنما هى تدل على الجماعة بالمعنى المطلق . وبهذا ألغى النبى الحدود الجنســـية فلم يجعل لها وجوداً بالنسبة للدولة ، وبهذا أصبح الإسلام ملكاً لمن دخل فيه . وبناء على هذه القاعدة دخل فى الاسلام وشارك فى حياة أمة الاســـلام شعوب كثيرة ، دون أن يضع الاسلام أمامها عقبـــات تحول بينها وبين الاشتراك اشتراكاً فعلياً فى حياة العالم الاسلامى . وهذا المبدأ هو الذى كفل للإســـلام حيوية متجددة دائما ، فلم يربط الامة بشعب واحد تخمد حيويتها كلما خمدت حيويته وقلت كفايته ، وانما جعلها مجالا عاما تبرز فيه كفايات الشعوب ، فتتجـــدد حياة الامة بظهور المواهب والكفايات الجديدة فى العالم الواحد المترابط .

وهذا المبدأ كان جديداً كل الجدة على العوالم القديمة من يونانية ورومانية وفارسية وغيرها من الأمم والشعوب ، وهو لا يزال يحمل طابع الجدة حتى فى عصرنا الحديث . فالامة فى دستور الاسلام هى جماعة الله التى تتســـع لكل البشر ، وهى التى ترعى مبادىء السلام ومبادىء حماية الحق ومنع الظلم ، والله هو الشهيد الذى يشرف عليها ، فالإيمان هو رباط الاتحاد والمؤمنون هم ممثلو معناه ، وهم لذلك أول من يجب عليهم الوفاء له ، وهم فى الوقت نفسه أول من يتمتع بالحقوق التى يكفلها لهم .

وإلى جانب هذا المبدأ العام الذى يكفل للناس جميعا أن يعيشوا فى ظـــل أمة واحدة بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم ، وضع النبى صلى الله عليـــه وسلم بنـــداً يكفل الحرية الدينية لاصحاب الديانات السماوية . ولذلك فـــان هذه الدولة الاسلامية كانت فذة فى تاريخ البشرية ، لانها ــ بالرغم من قيامها فى الاصل على أسس دينية ــ أقرت مبدأين لم تعرفهما الدول الدينيـــة أو غير الدينية من قبل . وأول هذين المبدأين هو حرية الاديان ، وهى حرية لم تقرها الدولة الاسلامية فحسب ، بل إنها تتعهد بحمايتها . وثانيهما هو مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة فى أوسع معانيهما تسامحاً وإنسانية ، وهو مبدأ يكفل المساواة فى الحقوق والواجبات الوطنية بين جميع أفراد الامة على اختـــلاف أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم .

تحت ظل هذه المبادىء قامت دولة النبى صلى الله عليه وسلم فى يثرب،

واستطاعت فى مدى عشر سنوات أن توحد الجزيرة العربية كلها تحت لوائها ، وأن تطبق على أهلها هذه المبادىء تطبيقا عمليا .

ولم يكن محمد عليه السلام رسولا للعرب وحدهم ، وانما كانت رسالته للناس أجمعين ، بين ذلك القرآن الكريم ، وأيده الرسول بإيفاد رسله الى ملوك العالم المعروف حوله يدعوهم بدعوة الاسلام ، ولقى رسول الله ربه ولم تنتشر دعوته فى أمم العالم ، ولكنه ترك أمة قال الله فيها : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » . ولقد أشربت نفوس العرب مبادىء الاسلام ، وهم إذ توحدوا على هذه المبادىء كان عليهم أن يتمموا دعوة النبى صلى الله عليه وسلم فيبلغوها للعالم من حولهم وكان عليهم أن يسعوا الى تطبيق مبادئهاالعليا بين شعوب هذا العالم، ليكونوا بذلك شهداء على الناس كما كان الرسول عليهم شهيدا . وبهذه الافكار اندفع العرب الى المجال الخارجى فاصطدموا بقوى الدول الكبرى القائمة من حولهم .

(٢)

هذا من ناحية التفكير الدينى الإنسانى . أما من ناحيــة التفكير السياسى والعسكرى ، فان الدولة الجديدة التى قامت فى جزيرة العرب بظهور الإسلام، كانت تحيط بها دول كبرى تتحكم فى مصير العالم وتتنازع السيطرة السـياسية والاقتصادية فيه ، فقد كانت الامبراطورية الفارسية تقوم على الجانب الشمالى والشرقى للجزيرة العربية ، ودولة الروم (الامبراطورية البيزنطية) تقوم على جانبها الشـمالى والغربى ، وبين الدولتين صراع شديد امتد زمناً طـويلا تخللته حروب دموية رهيبــة . وقد وقعت أطراف الجزيرة العربية فى مجــال هذا العراك الدولى ، بل كانت هذه الاطراف مسرحا للصدام المسلح بينهما ، ولم ينج داخل شبه الجزيرة من محاولات الامبراطوريتين لإخضاعه ، ولم يحمه من الخضوع المباشر إلا طبيعة أرضه الصحراوية التى كان يصعب على جيوش الدولتين اجتيازها ، فضلا عن قلة خيراتها . وقد خضع لنفوذ الدولتين من كان يجاورهما من قبائل العرب فى بادية العراق وبادية الشام ، كما خضعت اليمن التى كانت المفتاح الجنوبى لطريق التجارة العالميــة الواردة من المشرق ، وقد استخدم الفرس والروم هؤلاء العرب فى حــروبهم ، وسخروهم لتحقيــق مصالحهم ، ولكنهم حين رأوا منهم قدرة على النهوض وميلا للاستغلال ضربوا ممالكهم ، فحول الفرس مملكة الحيرة إلى ولاية فارسية بعــد أن قتلوا ملكها النعمان بن المنذر ، كما حول الروم مملكة غسان الى ولاية رومية ، وســقطت اليمن تحت حكم الاحباش حلفاء الروم ، ثم استغل الفرس الثورة الوطنية التى قام بها سيف بن ذى يزن فحولوا اليمن الى ولاية فارسية بعد موت سيف .

وحين أرسل النبى صلى الله عليه وسلم رسله الى الملوك بدأت الدولتان تنظران بعين الحذر الى قيــام الدولة الاسلامية فى الحجاز ، وتراقبان تقدمها وتسعيان الى الحد من سلطانها . فأما كسرى فارس فقد أرسل الى نائبــه على اليمن (باذان) يأمره بأن يأتيه بذلك الرجل الذى ظهر فى الحجاز ، ولم يمنع كسرى من إرسال حمــلة لضرب الدولة فى الحجــاز إلا أن الاضطراب الداخلى الذى كانت تعانيه دولته ، والذى كان من نتائجه قتل كسرى نفسه فى ثورة قام بها عليــه ابنه ، ثم اسلام باذان لادراكــه اضطراب أحوال الفرس وشعوره بقدرة الدولة العربيــة الناشئة على النمو . وأما قيصر الروم فــان

عماله قد بدأوا يتحرشون بحدود الدولة الاسلامية فى شمال الحجاز ، وأخذوا يستعدون لضربها ، الامر الذى جعل النبى عليه السلام يوالى توجيه الحملات الحربية للمحافظة على حدوده الشمالية ، فأرسل حملة الى مؤتة على حدود بادية الشام قاتلت جيوش هؤلاء العمال ، ثم قام بنفسه على رأس حملة كبيرة الى تبوك حين بلغته أخبار حشود رومية لغزوه ، ولكنه لم يتجاوز حدوده وعاد حين لم يتقدم العدو لقتاله ، وقد ظل أمر هذا الحد الشمالى يشغل باله حتى أعدّ حملة أخرى لتأمين هذا الحد بقيادة أسامة بن زيد ، ولكنها لم تنفذ إلا بعد وفاته .

لم يتعد هدف النبى السياسى حدود الجزيرة العربية نفسها طوال حياته . وظل هذا الهدف هو هدف الدولة الاسلامية بعد وفاته ، حتى تطورت الظروف الى توسيع هذا الهدف ، فان الخليفة الأول أبا بكر الصديق رضى الله عنه حين أرسل جيوشه لحرب المرتدين ، ولتطبيق « بيان براءة » وهو استبراء العرب من الوثنية استبراء تاما ، كان الهدف واضحا وهو ضم العرب فى أطراف الجزيرة الى الدولة ، حتى تتم الوحدة العربية وحتى تستقر الدولة فى حدودها الطبيعية . ولكن الدولتين الكبيرتين لم تسمحا للدولة الناشئة باستكمال هذا الهدف الطبيعى بل أخذتا فى مناوأتها مما أضطر الجيوش الاسلامية الى الاشتباك معهما . ومع هذا الاشتباك فان الهدف السياسى للمسلمين ظل هدفا اقليميا ، لم يتخطوه الا مضطرين . وحين تقدمت جيوشهم لتزيل التهديد الفارسى الرومى عن الحدود ، لم تفكر فى اجتياز الحدود العربية الطبيعية .

فإنها حين تقدمت نحو الشام إنما تقدمت فى المنطقة العربية الغسانية ، ولم تتجه الى ما وراءها ، فلم تتجه الى فلسطين أو الى سورية ، وانما اتجهت الى « بُصْرى » عاصمة الغساسنة . لكن الروم تصدوا لها فاضطرت الى الاشتباك معهم فى معركتين صغيرتين هما معركة « داثن » ومعركة « العربة » فلم يكن انحراف الجيوش الاسلامية الى هاتين الجهتين انحرافاً مقصوداً ، وإنما كان انحرافاً اضطرارياً لمواجهة التجمعات الرومية . ثم حشدت الامبراطورية الرومية حشودها لقتال العرب ، فاضطر هؤلاء لمواجهة هذه الحشود فى أجنادين سنة ١٣ هـ . وحين علم أبو بكر بخبر هذا الاستعداد الرومى قال : « يا هادى السبيل ، انه الفجر أو البجر » وهذه الكلمة توضح سياسة العرب توضيحاً تاماً وتبرز موقفهم ، فان الهدف كان إقليميا مشروعا ، لضم العنصر العربى من ناحية ولتأمين الحدود من ناحية أخرى . ولكن الامر تطور بحيث أصبحت الدولة فى موقف جديد لم تستعد له ولم ترسم له خطة واضحة ، ولذلك يقول أبو بكر : « يا هادى السبيل !! » ثم هو يقدر خطورة الموقف فيقول انه سوف يتفتحعنفجر جديد بالنسبة للدولة الجديدة ، أو أنه سيؤدى الى الدمار لو تراجعت ، فان العدو سيتعقبها ليقضى عليها ، وبهذا الإدراك دخلت جيوش المسلمين هذه المعركة ، فلما انتصروا على الروم فى أجنادين كان لزاما عليهم أن يكملوا الموقف أو يعودوا لمواجهة هذا التهديد الخطير .

وفى جبهة العراق كان الموقف كذلك ، فان الجيوش العربية كانت تتجه لهدف إقليمى ، وكانت دوافع هذا الهدف قديمة ترجع الى أيام إسقاط مملكة الحيرة وصدام العرب مع الفرس فى معركة ذى قار سنة ٦١٠م . وقد ظل عرب منطقة الخليج وبادية العراق فى صراع مع الفرس منذ ذلك الحين ، وكان

يتولى الاشتباك مع الفرس ، بعد قيام الدولة الاسلامية وتثبيت دعائمهما بعد القضاء على تمرد المرتدين ، رجال من عرب هذه المنطقة وعلى رأسهم المثنى بن حارثة الشيبانى وهو من زعماء بكر بن وائل الذين اصطدموا بالفرس فى ذى قار . والمثنى بن حارثة ومن معه من زعماء القبائل العربية هم الذين طلبوا من الدولة العربية الاسلامية فى أول عهد أبى بكر ، وكان لزاما على الدولة أن تقف الى جانب حركة التحرر العربى فى منطقة الخليج والعراق لضمهم الى دولة العرب من ناحية ، ولتأمين الحدود من غارات الفرس من ناحية أخرى . وكان عمال الفرس يتحفزون لقتال العرب وسحق حركة النهضة فيهم . فلما انتصر العرب على الفرس اكتفوا بضم العراق العربى ، ومنع الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه جيوشه من دخول إقليم فارس ، بل وقف بها عند الحدود العربية الطبيعية ، واعتبر الجبال الفاصلة بين العراق وايران حدا طبيعياً تكتفى الدولة بالوقوف عنده . وقد عبر الخليفة عمر عن هذه السياسة بقوله : « وددت أن هذا الجبل من نار ، فلا يجوزنه إلينا ولا نجوزه إليهم » . ولكن الفرس أخذوا يجمعون جموعهم لإزالة العرب . ولو قدر لهم أن ينتصروا عليهم ، لما وقفت جيوشهم دون القضاء التام على دولتهم . وأمام هذا التهديد الفارسي تقدمت الجيوش العربية ففتحت فارس كلها ، كما فعلت فى الجبهة الرومية أمام التهديد الرومى فتحت الجزيرة وفتحت مصر .

(٣)

من كل ما سبق نرى أن الفتوح الإسلامية كانت حركة سياسية وحربية اضطرارية دفع إليها العرب بحق حماية النفس المشروع من ناحية ، وهى حين انتصرت فى الحرب لم تستبد بالشعوب وإنما أنهضتها ، وأسلمتها فى آخر الأمر زمام القيادة فى العالم الجديد كله . فلم تكن الحركة الاسلامية حركة بربرية اكتساحية كحركة المغول أو حركات الجرمان تدمر المدن والحضارة وتفتك بالشعوب ، وكذلك لم تكن حركة استعمارية كما عرف العالم من حركات الاستعمار تستغل ثروات الشعوب وتعمل على تمزيق وحدتها .

ولكنها كانت حركة حضارية إنسانية حملت فى طياتها مبادىء إنسانية سامية ، أقرتها بين الشعوب التى خضعت لها ، وقدمت للشعوب فيها نوعاً من التحرر الإنسانى للأفراد وللشعوب على حد سواء ، فأزالت عنها ما كان يسودها من نظم ظالمة قاسية وممن كانوا يحكمونها على شريعة التأله والعسف والطغيان .

والامبراطورية الإسلامية لم تكن كالامبراطوريات التى عرفها التاريخ ، تخضع الناس لشعب واحد وملك واحد يحكمها بقوته ويسيطر عليها بجبروته ، وإنما كانت عصبة أمم إسلامية ، تسعى لغرض انسانى بالغ غاية السمو ، غايتها أن يعيش الناس أحرارا تربط بينهم روابط المحبة والرحمة والعدل . وفى ظل هذه العصبة الاسلامية نهضت الشعوب وبرزت مواهبها ، وحتى الشعوب المتبربرة استطاع العالم الاسلامى أن يدخلها فى نور الحضارة وأن يبرز قدراتها ، واستطاعت فى خلاله أن تصل الى مراكز الصدارة فى الحكم والسياسة . وكان مقر الخلافة فى هذا المجتمع الاسلامى هو مقر العصبة ، ولم تستأثر الخلافة بالسلطة الروحية ، كما لم تستأثر عاصمتها بالعلم ونوره ، فقد كان المسلمون لا يعرفون سلطة روحية غير أمر الله تعالى ، وكانت العواصم الاسلامية كلها عواصم للعلم والفن والنشاط المادى للحضارة .

هذا تقديم لحركة الفتوح الإسلامية ، نأمل أن نعود لتفصيلها فى مقالات لاحقة إن شاء الله .



للشيخ : على الخفيف

الزواج كما وصفه الله سبحانه وتعالى فى كتابه الحكيم ميثاق غليظ بين الزوجين ، أخذه كل منهما من صاحبه ، فكانت له به حقوق قبله ، كما وجبت عليه واجبات له ، دون مجافاة لما هو خير ومعروف ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى كتابه « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم » ، وتلك درجة القوامة التى حملوها ، حتى لا يثقل على النساء عبؤها ، ولا ينؤن بأوزارها ، وكان فى هذه الحقوق وتلك الواجبات ، قيام حياة الزوجين ، واستقامة أمورهما ، وسداد عوزهما ، وقوة رابطتهما ، وكمال تراحمهما وتعاونهما ، وتمكين المودة بينهما ، وسكن كل منهما الى الآخر ، كما كان لكل ذلك آثاره الكريمة ، وثمراته الطيبة فيما للزوجين من أولاد وحفدة ، وأسر وأقارب ، اذ تمتد اليهم روافده وتزدهر فيهم ثمراته ، فيورثهم ذلك الفا ومودة وتعاونا ورحمة ، وقوة ووحدة ، ولذلك أثره فى بناء مجتمع سليم ، واقامة حياة انسانية كريمة .

والزواج كحافز ووسيلة ، يرتبط أشد الارتباط بثراء الأمة واقتصادها ، وقدرتها على العمل ، واستمتاعها بالوجود المثالى الكريم ، القائم على التعاون والتماسك ، البعيد عن الانحلال البرىء من الوهن والتنافر ، ذلك لان سلامة البناء وبقاءه وقوته واحتماله ، رهن بسلامة لبناته وقوتها ، واستقرارها وشدة ترابطها ، وليس لبناء المجتمع لبنات سوى أسره .

ذلك ما للزواج من مكانة ، وما له من أثر فى الحياة الانسانية ، ومآثر فى الاولاد والاسر والاقارب والمجتمع ، ولهذا امتن الله به على عباده ، وجعله آية من آياته ، فقال تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » وقال : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » كما أمر به فى كتابه وجعله سنة هداية لرسله حتى يكون للناس بهم فيه قدوة فقال تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » .

وقال تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » ثم لم يعن جل وعلا فى كتابه بأمر بعد عقيدة التوحيد عنايته بأمر الزواج وما يتصل به ، فبين نظامه ، وفصل أحكامه ، وذكر حقوقه وواجباته بما يحفظ له ما أراده له الحكيم العليم ، من الدوام والصيانة من تقلبات الأهواء ومنازعها ، ونزعات النفوس السيئة الجامحة وهواجسها ، وما يجنبه أسباب الشقاق والبغضاء ، ومثار الخلاف والنزاع ، مما يعوقه عن أن يحقق ما لأجله شرع وطلب ، وما يرجى منه من خير وصلاح ، فكانت هذه هى حدود الله فيه التى حض على التمسك بها ، والتزام متطلباتها : « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » ، « ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

تلك هى شرعة الله فى الزواج ، فاذا انتهى الامر فيها لسبب من الاسباب الى انهيارها ، فتعرت عن خصائصها ، وفقدت أغراضها ، وانحرفت عن أهدافها ، وحيل دون اقامة حدود الله فيها ، انتكس وضعها ، وساء حالها ، وأدت الى عكس ما يطلب منها ، وأصبحت جحيما يصلى بناره الزوجان ، ويشقى به أولادهما وذوى قرابتهما . وصدعا كبيرا فى بناء الأمة ، ومرضا أليما فى جسمها ، موهنا لقوتها ، ومفسدا لسلامتها ، ولم يكن من الجائز بقاؤها ، ووجب عندئذ انهاؤها قطعا لشرورها ، ودرءا لمفاسدها ان لم يمكن علاجها واصلاحها .

وفى هذا ولأجله شرع الله الطلاق ، فكان شرعه جلبا لمصالح أريدت منه ، ودرءا لمفاسد كان فيه الخلاص منها ، ولم يكن شرعة عقوبة وانتقاما ، ولا تسلطا واستذلالا .

انه ليس بالرأى السليم ، ولا بالأمر المشروع الذى حددت حدوده ، وفصلت أسبابه أن يترك أمر الزواج فى بقائه واستمراره ، وقيامه لتحقيق اعراضه الى أهواء جامحه ، ونـزوات عارمه ، وغضب طائش ، او اضطراب نفسى ، أو انفعال وقتى لاسباب طارئة وظروف مفاجئه ، ليس لها بقاء ، ولا تقوم على أسباب معقولة ، ولا ترتد الى دواع مقبوله ، ليكون فى مهب رياح عاصفة تعصف به ، فتودى بوجوده ، وتذهب بمصدر المودة ، وتقطع سبب الرحمه ، وتقضى على مبعث التعاون وملاذ السكن ، وهو ما امتن الله به ، وجعله للناس آية ورحمة ، دون أن يكون له من ذلك وقاية ولا عاصم ، وذلك ما لا يتسق مع شرع الزواج ، وما قصد منه ، وما يختلف عنه فيما يمكن أن يكون غرضا له وهدفا ، وتلك آية خطره وانتفاء شرعه ، فانه لا اختلاف ولا تعارض ولا تناقض فيما يشرعه الحكيم العليم .

ليس الزواج الا عقدا بين الزوجين ، لا ينشأ ولا يتم الا باتفاقهما وارادتهما ، وشأنه فى ذلك شأن أى عقد لا يقوم الا بارادة طرفيه ، واجتماع رأيهما عليه ، واذا كان المبدأ العام المقبول عند ذوى العقود السليمة أن العقد وقد ترتب عليه لكل طرف من طرفيه قبل صاحبه حقوق وواجبات أقرها الشارع الحكيم ، وأوجب تنفيذها ، وألزم القيام بها الا ينفرد أحدهما بفسخه ، وبخروجه عن التزامه وابطال حقوق صاحبه ، اذ لا سلطان له عليه ، وفى حد اقدامه على ذلك اعتداء بين ، فذلك ما كان يجب فى الزواج ، وبخاصة اذا لوحظ أنه ليس كغيره من العقود من ناحية ما يترتب عليه كذلك من حقوق وواجبات لغير طرفيه ، يجب احترامها والمحافظة عليها ، غير أنه وقد تعرض له من العوارض النفسية والخارجية ما

يجعله وبالا وجحيما لطرفيه ، ويفقده أغراضه ومزاياه ، ويجعل بقاءه مصدر افساد ، ومبعث اضطراب ونزاع قد يؤدى بسلامة الأسرة ، ويهز من كيان الأمة ، فان الشارع قد رأى علاجا لهذه الحال — وقد لا يكون من الميسور اتفاق طرفيه على فسخه — ان يستثنيه من هذا المبدأ ، وأن يجعل فسخه بارادة أحد طرفيه ، وقضت ارادة الحكيم العليم أن يناط بارادة الزوج ، لما له من تفوق فى الروية ، وقلة انصياع للعواطف والأهواء ، وقلة متابعته للأغراض الوقتية ، ولبصره بالعواقب ، والتزامه بما يترتب عليه من حقوق وواجبات ، ولما للرجال من القوامة على النساء ، حتى لا يلجأ اليه الا حيث يتعين أن يكون هو الملجأ الذى يوجب الشرع الالتجاء اليه ، وايقاعه بارادة الزوج وحده ، ولم يجعل الشارع هذه الارادة مطلقة ، بل قيدها بقيود شرعها حين تدعو داعية المصلحة الى استعمالها ، وهى قيود عديدة أشار اليها فى كتابه الحكيم ، وسماها حدودا له فقال : « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » وقد بينها وفصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله وقضائه ، وأهمها ما أوجبه الله سبحانه وتعالى عند خوف الشقاق والنزاع من بعث الحكمين اذ يقول : « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » وهو أمر منه تعالى موجه الى الأمة وأولى الأمر فيها ، لمجيئه عاما مسندا الى جميع المخاطبين ، اذ يقول : فابعثوا .

ولما كان تقدير الأحوال والظروف الموجبة للطلاق ، أو المسوغة له شرعا ، الى نظر الزوج وحكمه بسبب ان الطلاق اليه وحده ، وقد يخطىء فى تقديره فلا يتانى فى ايقاع الطلاق ، حذره الشارع من ذلك ، ورغبه فى الصبر والمعاشرة بالمعروف ، فقال . « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .

كما حذر الزوجة من ان تميل الى الطلاق فتطلبه ، او تاتى من الامر ما يدعو اليه ، فقال : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير » وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ان الطلاق حين يكون حلالا فى نظر الزوج وتقديره فهو أبغض الحلال الى الله تعالى ، فكيف اذا كان محظورا لا تدعو اليه حاجة حقيقية .

اذا كان الطلاق بارادة الزوج مقيدا غير مطلق ، كما بينا فاقدام الزوج عليه فى حال لا تبرره ولا تسوغه شرعا ، ولا تتوافر فيها شروطه التى أشار اليها الله تعالى فى كتابه ، اعتداء بين وعصيان ، ومخالفة لأمر الشارع الحكيم ، وهو عند ذلك معصية لم يقدر لها الشارع عقوبة ، وكل معصية هذا شأنها يجوز التعزير عليها شرعا .

إن جعل الطلاق بارادة الزوج وحده ، واعتباره حقا له لا يعنى أنه مختار فيه ، ولا يتعارض مع تقييده بما أشرنا اليه ، فهو الى الزوج وارادته ، حيث تتوافر شروطه ومبرراته ، وليس له حيث لا تتوافر هذه الشروط ، ولا يعنى الا أن ايقاعه ومباشرته يكون اليه ، لا الى غيره حيث تدعو الداعية اليه .

لقد شرع الشارع الطلاق علاجا اجتماعيا ، ونظاما طبيعيا ، لتلافى أمراض اجتماعية خطيرة ، وقاية من شرورها المستطيرة ، وضررها الأليم ، وشرها الماحق الممزق لأوصال

الأمة ، المفرق لجماعتها ، ولكن تركه بارادة الزوج وحده دون قيد كما هو واقع فى أكثر البلاد الاسلامية ، يسر لمن لا ثقافة له من الجهلاء والحمقى ، وأرباب الهوى الغارقين فى الشهوات ، أن يقدموا على الطلاق بلا روية ولا نظر ، ولا تدبر فى العواقب ، فانقلب داء — وقد شرع دواء — وذلك للاقدام عليه فى غير وقته ، واستعماله فى غير موضعه ، حتى أصبحت مشكلة الطلاق من أكبر المشكلات الاجتماعية ، وأعظم المعضلات العصرية ، ومحل بحث بين الاجتماعيين ، ونزاع وخلاف بين المتشرعين ، فى سبيل الوصول الى علاج حين غاب عنهم سبيله المستقيم ، وغفلوا عن كتابهم المبين ، وما تضمنه من حدود ، وما قدر من قواعد وأصله من أصول .

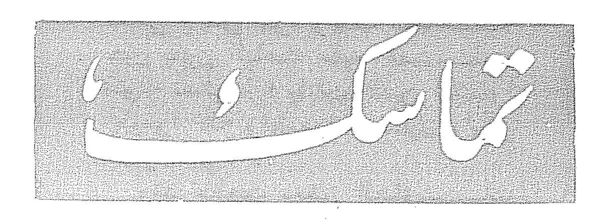
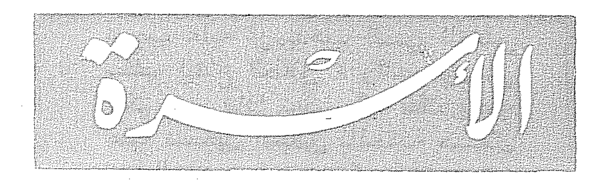
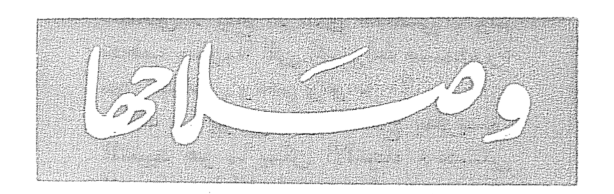
لقد كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعهد أبى بكر ، وسنتين من خلافة عمر رضى الله عنه طلاق الثلاث واحدة — كما روى ابن عباس رضى الله عنه — غير أن الناس قد تتابعوا فى الطلاق ، وتعجلوا فتجاوزوا حدود اللهفيه ، وطلق بعضهم مرتين أو ثلاثا فى عدة واحدة ، أو بلفظ واحد ، وكثر ذلك منهم ، ظنا منهم — فيما أرى — أن الطلاق تصرف وكل اليهم ، ونيط بارادتهم ، فكان لهم أن يستعملوه كما أرادوا ، فيكون طلاقا معتبرا فى وقوعه وفى عدده ، فلما رأى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عده خروجا عن حدود الله ، وعصيانا لما شرع الله ، فاستشار الصحابة وقال : ان الناس قد استعجلوا فى أمر قد كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم ، فلما وافقوا امضاه عليهم ، وقال : أيها الناس قد كان لكم أناة فى الطلاق ، وانه من تعجل اناة الله فى الطلاق ألزمناه اياه — فالزمهم اياه ، ولكن بحكم السياسة الشرعية ، والنظر الاجتماعى ، ومراعاة للمصلحة العامة ، وذلك ما جعله الله لأولى الأمر من المسلمين ، وقد أراد عمر أن يمنع الناس بذلك من الاسترسال فى الطلاق ، ومن التعجل الى بت الفراق ، فمنع المطلق ثلاثا من مراجعة مطلقته بارادته فى العدة ، بل ومن أن يتزوجها الا بعد أن تتزوج غيره ، بزواج جديد ، وكان ذلك — فيما أرى — الزاما من ولى الأمر بطريق السياسة الشرعية ، لا حكما بوقوع الطلاق ثلاثا كما أراد المطلق ، انه لا يملك عمر ولا الأمة جميعا ، تغيير حكم شرعه الله فى كتابه .

واذا كان هذا فعل عمر ، وما رآه علاجا فى طلاق تعدى فيه المطلق حدود الله ، أفلا يكون من حق ولى الأمر بطريق أولى أن يضع قيودا يحول بها دون ما فشا وانتشر من إقدام الناس على التطليق لغير موجب ، وفى غفلة من الزوجة ، ولغير سبب يتصل بها ، أو حدث على علم به منها ، وهو ظلم وعصيان ، وايذاء وطغيان ، وجناية على الزوجات والأولاد ، وعلى الأمة جمعاء .

لقد ظهر مما ذكرنا أن الطلاق لغير سبب يوجبه شرعا ، أمر محظور ، أو أنه اعتداء وخروج على حدود الله ، وعصيان لأمره ، أفلا يكون من حق ولى الأمر بل من الواجب عليه وقد أمر بتغيير المنكر ، ومنع الجريمة ، ودفع الضرر أن يشرع ما يحول بين الأزواج واقدامهم على هذه المعصية ، وأن يضع من القيود ما يمنع من وقوع هذه المعصية ، بما لا يمس ما للزوج من حق مباشرته الطلاق عند توفر الأسباب الشرعية التى تسوغ له الاقدام عليه .

ليس فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسوله ما يمنع من هذا الاصلاح ، بل هو أمر مطلوب شرعا من ولى الأمر ، فالدين يدعو الى منع المعصية ما أمكن المنع ، بل قد يرى بحق أنها معصية تستوجب تعزير من يقدم عليها — غير أن ذلك قد يكون من الناحية العملية مؤديا الى ضرر من المصلحة تجنبه ، وهو اشاعة أسرار الأسر ، وخفايا البيوت ، وما قد يتصل بذلك من اختلاق الأسباب ، وافتراء الكذب باشاعة الفحشاء والعيوب ، وغير ذلك مما ينبنى عليه طلب الطلاق ، وذلك ما يدعو الى تفاقم النزاع واشتداد البغضاء ، ولهذا يكون من المصلحة تجنب ما يثير ذلك ، ويكفى فى الوصول الى الغاية المرجوة أن يكون العلاج بوضع تشريع يوجب على الزوجين اذا ما أريد الطلاق الرجوع الى القاضى ، ليقوم بينهما بما أمر الله به فى كتابه من محاولة الصلح بينهما ، وازالة أسباب الخلاف بالحكمة والموعظة الحسنة ، حرصا على بقاء الأسرة ، ومحافظة على ما ترتبط به من المودة ، وما يصدر عنها من رحمته ، وما ينجم عنها من صلة ، وليقوم اذا لم تفد عظته ، ولم ينجح ارشاده بانفاذ ما أمر الله به من بعث الحكمين ، حتى اذا كان من نتيجة ذلك اعادة الوفاق والمودة ، وتمام صلاح النفوس ، وسلامتها فذلك من توفيق الله وهداه ، والا أذنه بالتطليق بحسب ما تقضى اليه الأمور بينهما من تبين مصدر الاعتداء ، ومبعث النزاع والخلاف ، وأيهما كان ظالما لصاحبه وما يترتب على ذلك من أحكام — فاذا أقدم الزوج على التطليق قبل أن يتمكن القاضى من ذلك فطلق عوقب لمخالفته أمر ولى الأمر فيما أصدره من قانون ملزم لجميع الأفراد — وليس فى عقاب من خالف أمر ولى الأمر مخالفة لشرع الله تعالى ، فان أمره واجب الطاعة حين يكون الباعث عليه المصلحة لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

وقد عالجت بعض الحكومات الاسلامية هذه المشكلة فذهبت حكومة الى فرض قيود على من أراد التطليق ، توجب عليه أن يذهب الى القاضى يطلب إيقاع الطلاق ، والحصول على حكم به ، فاذا تعذر عليه ذلك وجب عليه تسجيل الطلاق بالمحكمة خلال مدة العدة ، وذهبت حكومة أخرى فى معالجته الى سن قانون يقضى بأن الطلاق لا يقع الا لدى القاضى ، ولم تذهب حكومة الى اشتراط صدوره من القاضى وعدم وقوعه الا منه ، وذلك ما يوحى بأن العلاج بطريق التقييد هو ما يمكن الالتجاء ، حتى لا يمس ما للشارع من أصول ومبادىء فى صدده ، وذلك ما لم يلتفت اليه من يطالب الآن من الزوجات بأن يكون الطلاق بيد القاضى وحده ، غير آبه بما عليه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها منذ ظهر الاسلام الى الآن ، من أن الطلاق بارادة الزوج وحده ، وأن ذلك هو ما شرعه الاسلام وسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو طلب يقوم على شطط فى الرأى ، وتنكر لما يجىء به الدين — ذلك ما أردنا بيانه فيما تعالج به مشكلة الطلاق فى البلاد الاسلامية الآن ، وأن المعالجة بالالتجاء الى وضع القيود بما لا يعارض كتابا ولا سنة هو العلاج الصالح المقبول ، الذى لا تأباه قواعد الشريعة وأصولها ، وبه يتقى ما قد يجره التطليق عن رعونة أو طيش ، أو سوء ظن وتقدير ، أو شهوة دنيئة من شرور واضرار تلحق بالناس ، والله الموفق لما فيه السداد والصلاح .

تماسك الأسرة وصلاحها رهن بسياستها

تنظر الشريعة الاسلامية الى الاسرة ، على انهاروح المجتمع وعموده الفقرى ، فكل ما يتمتع به المجتمع من مظاهر الصلاح والخير والتماسك ، أو يعانيه من بلاء الفساد والشر والتفكك ، انما هو انعكاس مباشر لحال الاسرة ونظامها .

ولا نستطيع أن نعتبر هـذه النظرة ، مزية اختصت الشريعة الاسلامية بها ، بل هى نظرة علماء الاجتماع والتربية والقانون . ما منهم الا من أيقن أن ينبوع الصلاح والفساد فى المجتمع انما يبدأ من الاسرة .

ولكن هـذا لا يعنى أن المجتمع لا سلطان له على الاسرة بأى تأثير أو تسيير . بل ان المجتمع ـ رغم ما ذكرنا ـ يعتبر هو المسؤول عن كثير من المناهج والاوضاع التى تنصاع لها الاسرة دون ارادة او اختيار منها . ولا تملك الاسرة فى هذه الحال الا ان تنتقم من المجتمع الذى أكرهها على تلك الاوضاع بأن ترد اليه ثمارها ونتائجها ، متكاثرة ومستفيضة فى كل جوانبه وجهاته .

فبين الاسرة والمجتمع تفاعل متبادل ، كما يقول غوستاف لوبون ، فى كتابه روح الاجتماع . ولكن ما من ريب أن أثر الاسرة فى المجتمع أقوى وأشد ، من حيث الاسبقية فى الزمن ومن حيث مقومات التأثير .

المالية كما رسمتها الشريعة الإسلامية

للأستاذ محمد سعيد رمضان البوطي

ولقد حرصت الشريعة الاسلامية على أن يكون التفاعل بينهما جاريا فى سبيل مصلحة كل منهما . وأقام ضمانة ذلك بتسيير كل منهما وفق مبادىء واحدة وضمن سياسة لا تختلف .

فنظام القوامة فى الشريعة الاسلامية واحد فى كل من المجتمع والاسرة .

ونظام الانفاق ومسؤولياته واحد أيضا فى كل منهما .

والاسس والاهداف التربوية التى يؤخذ بها المجتمع هى عين الاسس والاهداف التى تؤخذ بها الاسرة .

ثم نظر الى ما للاسرة من أهمية ذاتية فى تكوين المجتمع ونسج خلاياه المتفرقة ، فحشد لها طائفة كبيرة من القوانين والنظم الواسعة التى تحيط بالضبط والتنظيم كل شؤونها وهى قوانين لا تجد ما يشبهها فى الاتساع والشمول عند أرباب أى حضارة أخرى غير حضارة الاسلام .

فنظام الزواج والطلاق والحضانة والوصية والميراث والانفاق والتربية وآداب البيوت ــ كل ذلك بشموله وتفصيله المعروفين فى مصادر الفقه الاسلامى ، شىء لم تعرفه أى النظم والقوانين الوضعية الاخرى .

غير أن النظام المالى بخصوصه ــ ونقصد به ما يشمل الانفاق

والميراث — يعتبر أهم ضمانة فى اقامـــة صرح الاسرة على نحو يكفــل تكوين مجتمع صالح متسم بالقيم وأسباب التماسك والقوة .

ذلك لان هذا النظام ينبع من مراعاة أسس بالغة الاهمية والخطورة فى حياة الاسرة والمجتمع ، وينتهى الى انتاج قيم ومبادىء بالغة الاهمية والخطورة فى كل منهما ، وتنشأ عن معاكسته واهماله أوضاع بالغة الضرر فى كل منهما أيضا .

وربما كان أهم مظاهر الفـــرق بين الاسرة الاسلامية الصالحـــة المتماسكة والاسرة الغربية الفاسدة المتفككة ، وليد مراعاة هـــذا النظام أو اهماله .

ويتمركز النظام المالـــى فى الاسرة فى محور ذى أهمية كبرى ، هو التمييز الخطير الذى وضعه الشارع بين الذكر والانثى فى مجال الكســـب والانفاق . فقد قضى بأن يكون الاول منهما هو المسؤول عن الانفـــاق وسياسته ، مهما كان اسمه فى تكوين الاسرة ، ومهما كان اسمهـــا . فالرجل ، زوجا كان أو أبا أو أخا كبيرا أو عما ، هو المسؤول عن الانفاق ، ضمن حدود وترتيب وضوابط معينة . والانثى ، زوجا كانت أو بنتا أو أختا أو حفيدة لا تعتبر مسؤولة عن اعالـــة أحد من أفراد الاسرة ، اللهم الا فى حالات شاذة نص عليها الفقهـــاء ، فان الضرورة تقضى عندئذ بأن تقوم هى بهذا العبء ، ريثما تنتظم الاوضاع فى مجراها الطبيعى . وليس من مظاهر هذه الضرورة — على كل حال — حال الزوجة الغنية ، فانها لا تكلف بالانفاق على زوجها مهما كانت من الغنى ومهما كان هو من الحاجة والفقر .

ويتبع هـــذا التنظيم الاساسى تلك التنظيمات الفرعية الاخرى التى تعتبر تابعة له دائرة حول محوره . فتوزيع الميراث على أساس من جعل نصيب الذكر مثل حظ الانثيين ، وجعل المهر من مسؤوليات الزوج وحده ، واناطة القوامـــة والاشراف على الاسرة بالزوج أو الاب من دون بقية الاعضاء الاخرى ، والنظرة الشرعية العامـــة الى انطلاق المـــرأة فى ميادين العمل الى جانب الرجل — كل ذلك تابع ضرورى للمحور الاساسى المذكور .

ومن هنا نعلم أن النقاش اذا كان لا بد أن يجرى فى شىء من هـــذه المبادىء والاحكام ، فينبغى أن يتمركز فى مناقشة هذا النظام الاساسى ، لا فى مستلزماته من تلك الفروع الجزئية الاخرى .

فلنتساءل اذا : لماذا ميزت الشريعة الاسلامية بين كل من الرجل والمرأة هـــذا التمييز ، ولماذا لم يكن حق الكسب وواجب الانفاق أمرا مشاعا بينهما ؟

والجواب ان مرجع ذلك الى مبدأ جوهرى لا تتكون حقيقة الاسرة الا به ، ولا تستمر حياتها الا بحراسته ورعايته . هذا المبدأ هو تنظيم المسؤولية حيال توالد الحياة واستمرارها المتمثلين فى حلقات النسل المتتابعة ، خلال مسيرة الحياة التى أقامها الله عز وجل .

لا بد من قانون تنتظم بموجبه رعاية هؤلاء الوافدين ، ومن دونـــه

تنمحق الرعاية ، ويضيع أبسط وأخطر مقومات الحياة الطبيعية فوق هذه الارض .

وأول شرط لوجود هذا القانون وفعاليته ، هو تنظيم اللقاء الجنسى ، الذى جعله الله تعالى الشرط الوحيد لاستمرار الحياة . فكل رجل وامرأة ، يعهد اليهما بمسؤولية الرعاية لتلك اللبنات التى أسهما فى تقديمها لاقامة صرح الحياة . وبدءا من هذه المسؤولية الكبرى تتوالد حلقات المسؤوليات الفرعية الاخرى المترتبة عليها .

فالزنا جريمة فى حق الحياة والنسب امتياز قانونى واجتماعى ، والولد للفراش الذى ولد عليه وليس للعاهر المستولد أى حق فى الامتلاك أو الالحاق . والحياة الاجتماعية ينبغى أن تكون عونا لتطبيق هذه الشرعة لا حربا عليها أو عقبة فى سبيلها . فالاختلاط بين الرجل والمرأة لا ينبغى أن يكون الا فى ظروف معينة وضمن حدود مرسومة ، والستر والاحتشام فريضة لا مناص منها للمرأة ، والرجل منهى عن أن يطلق نظره فى وجوه الاجنبيات عنه من النساء .

ولكن ما علاقة هذا المبدأ التنظيمى لبناء الاسرة ، بمسألة النظام المالى فيها والفرق بين الرجل والمرأة فى كل من مبدأى الكسب والانفاق ؟ .. وما المانع من أن تكون حقوق الكسب والانفاق مشاعا بينهما ، ثم يلتزمان مع ذلك هذه المبادىء التنظيمية التى تحدثنا عنها ؟! ..

والجواب أن بينهما تعارضا يمنعهما من التلاقى والانسجام ، ولكنه تعارض خفى كثيرا ما لا يتنبه له حتى الباحثون والمشرعون والكتاب الاجتماعيون ، رغم وضوح نتائجه وبروزها فى الصعيد الاجتماعى .

وبيان ذلك أن تنظيم اللقاء الجنسى الذى أشرنا اليه ، لا يمكن أن يتم الا بفرض أسس تجعل أحد الطرفين من الرجل والمرأة طالبا والآخر مطلوبا ! .. ذلك لان هذا اللقاء ، بالاضافة الى كونه وظيفة اجتماعية كبرى يترتب عليها بقاء النوع ، متعة انسانية هائجة مركوزة فى أعمق النوازع الفطرية لدى كل من الرجل والمرأة . فاذا ترك الطريق مفتوحا أمام كل منهما الى الآخر ، هاج الجنسان الى بعضهما وحطما كلما قد يوضع حولهما من قيود وحدود وتنظيمات .

اذا لا بد من ايجاد وضع يجعل من أحد الجنسين غاية مطلوبة مستقرة ثابتة ، ويجعل الجنس الآخر طالبا لتلك الغاية فهو يسعى بكل ما يملك للبحث عنها والوصول اليها . ومن خلال هذا الوضع يمكن تخطيط السبيل اللائق المشروع واقامته جسرا وحيدا لا سبيل غيره للوصول الى الغاية المنشودة . وعندئذ تحشد تلك المبادىء التنظيمية على هذا الجسر ، فلا يستطيع أن يمر الباحث الا من خلالها ، ولا يستطيع أن ينال متعته الا عن طريق الخضوع لها .

أجل .. اذا لا بد من فرض وضع يجعل من أحد الجنسين مطلوبا ، والجنس الآخر طالبا ، فأيهما ينبغى أن يكون المطلوب ، الرجل أم المرأة ؟ ..

ان الوضع السليم الذى يضمن تنفيذ أصل الغاية ألا وهو تنظيم اللقاء الجنسى ، محصور فى جعل المرأة هى المطلوبة دائما والرجل هو الطالب دائما .

ذلك أن المرأة اذا كانت فى وضع يجعلها هى الساعية للبحث عن زوج لها ، فقدت بذلك أخص سماتها الفطرية التى تتعلق بالجنس ، فقد أقام الله تعالى تكوينها النفسي والجسمى على نحو يجعلها متعة للرجل أكثر من أن يكون الرجل متعة لها ، ويجعل سعادتها فى شعورها بأنها كذلك وبأن الرجل منساق للخضوع لهذه الخصيصة التى فيها . ولذلك كان الشأن فى عبارات التودد والحب والاستعطاف أن تأتى من جانب الرجل ، وأن يكون من المرأة تجاه ذلك دلال لا يحد ، وتأثر لا يترامى أو يتهالك .

ومعنى هذه الحقيقة ، ان المتعة التى يجب أن تقابل بثمن عليها (كما ينص عليه القانون الاقتصادى) تتجسد فى جانب المرأة أكثر من الرجل . فأيهما يسعى الى الآخر : المتعة التى لا تبذل الا بثمن أم المستمتع الذى يطالب بالثمن ؟

هذا شيء .

والشيء الثانى أن ضوابط التنظيم المذكور تفقد سلطانها ، بل وجودها ، اذا وجد الرجل أن المرأة تسعى اليه وتتعرض له هنا وهناك .. فأى أمر يدعوه الى أن يلتزم تجاهها بالشروط والقيود المشروعة التى ألمحنا اليها ، وهى تسعى اليه بالعرض والرجاء ؟.. ومتى كان قانون العرض والطلب متفقا مع هذا المنطق المقلوب ؟!..

فى أمريكا وكثير من أنحاء أوروبا نشأت أوضاع فرضت على المرأة أن تكون هى الطالبة للزوج والباحثة عنه فى أغلب الاحيان . فما الذى ترتب على ذلك ؟

من السهولة بمكان أنتعرف الامر الذى ترتب على ذلك ، عندما تعلم كم تسقط المرأة هناك من سقطة ويلهو بها من رجل ، ريثما تعثر على الزوج الذى هو الزوج حقيقة .

الذى ترتب على ذلك ، أنالرجال نظروا ، فوجدوا أن فرص المتعة الخلفية المباحة قد كثرت أمامهم ، بفضل بحث النساء عن أزواج لهن فى المجتمع . وأعجبهم الوضع .. فازدادوا تثاقلا وزهدا فى الزواج ، لتزداد النساء بحثا عنهم وطلبا لهم وسعيا وراءهم .

وهكذا كان سعى المرأة فى البحث عن الزوج أهم سبب من أسباب فقدها له !..

وانتشرت موجة الاباحية لعدة عوامل ، ولكن هذا العامل أهم واحد فيها . وتفسخت الاسرة وتهاوت أركانها لعدة عوامل . ولكن ما من شك أن هذا العامل أخطر واحد فيها . وفقدت المرأة هناك سعادتها اذ فقدت أجمل وأغلى أحلامها وهو الانضواء فى عش زواج هانيء سعيد ، لعدة أسباب ، ولكن هذا السبب فى مقدمتها .

اذا ما من ريب أن ضبط اللقاء الجنسى بين الرجل والمرأة ، لا يتم الا فى أوضاع تفرض على الرجل أن يكون هو الطالب للزوجة وتفرض على المرأة أن تكون هى المطلوبة .

فما هى الاوضاع التى تضمن تطبيق هذا المبدأ ؟

ليس ثمة أى ضمانة لذلك الا فى تطبيق نظام النفقة كما سنته الشريعة الاسلامية .

فالرجل هو المسؤول عن نفقة المرأة سواء كان والدها أو زوجها أو أى قريب آخر لها . والمرأة تأخذ مهرها كاملا من الزوج ، نحلة كما قال الله عز وجل ، وليس على الزوج أن يفرض عليها أى تعاون أو شركة فيه ، فضلا عن أن يحملها — بطريقةما — على أن تتقدم هى بالمهر له . ونتيجة لذلك كان نصيب الرجل من الميراث ضعف نصيب المرأة منه ، لان نصف نصيب الرجل من ذلك ، أو أكثر ، يقتطع منه ، تحت سلطان هذا النظام الالهى ، ليضاف الى نصيب المرأة .

وأثر هذا التنظيم فى حراسة المبدأ المذكور واضح جدا :

فان الشأن — فى المسلمات الاقتصادية — أن الطالب للشىء هو الذى يبذل الثمن ، أى أن الذى يطالب الآخر بشىء يقر بحاجته اليه . وهذا الاقرار يعتبر حجة للآخر فى مطالبته بالاجر أو القيمة . فاذا علم كل من المرأة والرجل ، أن الثانى هو المطالب بنفقات الزواج من مهر وانفاق على الزوجة والاولاد ، لم يكن للمرأة من سبيل عندئذ للتقدم والطلب ، لان طلبها يعنى — حينئذ — اعلان حاجتها الى الزوج ومهره معا ، وهو وضع معكوس فى ميزان تبادل المنافع ، وقانون العرض والطلب . وبذلك ينحصر السعى المادى لاقامة ركن الزوجية فى الرجل فقط ، وعندئذ يسهل حصره فى سبيل الضوابط الفرعية الاخرى التى عددنا طرفا منها .

أما اذا اصطلح المجتمع على أن تكون نفقات الزواج من مهر وغيره شركة بين الزوجين ، أو حقا على الزوجة كما هو الحال فى بعض جهات أوروبا ، فان الامر عندئذ ينعكس بالتدريج : يتثاقل الرجل عن المبادرة الى الزواج ، ويخفى رغبته فى ذلك ، طمعا فى عروض أفضل !.. وتزداد المنافسة بالمقابل من الطرف الآخر ، اذا كان سبيل الفوز بالزوج هو الغنى الاوفر والعروض الافضل ، وتتوالد بعد ذلك النتائج السيئة الاخرى .

ولا تحسبن أنا بهذا نقرر التحذير من أى تعاون مادى يقوم بين الزوجين فى سبيل حياة رغيدة لهما ، بل نقول : ان هذا التعاون مكرمة تدعو اليها الشريعة الاسلامية وتحبذها ، ولكنها تدعو اليها فى النطاق الاخلاقى وفى حدود الرغبة الشخصية التى تتم بعد توفر المحبة والالفة بين الزوجين ، لا على الصعيد القانونى الملزم ، وفيما بين شخصين ليس بينهما من الصلة الا فكرة الاستفادة والانتفاع .

وهنا ينبغى أن نتساءل : ما الذى يدفع الى اشراك المرأة فى نفقات الاسرة ، وكيف السبيل الى جعلها فى مأمن من ذلك ؟

والجواب : ان ثمة أسبابا ، اذا وجدت ، دفعت المجتمع بدون قصد أو شعور الى هذا الوضع الخطير ، وأهم هذه الاسباب اشتراك المرأة مع الرجل فى الكدح من أجل الرزق . فهى عندما تشترك معه ، بل تنافسه ، فى تربية المال وجمعه ، تضيق من سبيل ذلك على الرجل بلا شك . فتضطرب بذلك الصلة بين التزاماته المادية ومجالاته الكسبية ، بسبب ضيق هذا الثانى وبقاء الاول على ما هو عليه . وتتولد من ذلك مشكلة ، بل معضلة ، سرعان ما يبدو لارباب النظر السطحى أن لا حل لها سوى جعل المرأة شريكة مع الرجل فى غرم النفقات كما أصبحت شريكة له فى غنيمة الكسب .

فهذا هو أهم الدوافع الى اشتراك المرأة مع الرجل فى نفقات

الاسرة ، وبالتالى فهو أهم الدوافع الى أن يتحول الامر عن سبيله الطبيعى ، فتصبح المرأة — بالتدريج — هى الباحثة عن الزوج والمبادرة الى طلبه !..

وبناء على ذلك ، فان الضمانة الكبرى لبقاء الامور على نهجها السوى ، هى أن لا تنزل المرأة الى ميدان العمل من أجل الرزق الا فى أضيق الظروف والحدود الضرورية .

ولست أعجب لشىء كعجبى ممن يرفض هذه الضمانة ، ويفضل عليها أن تتقوض الاسرة بكل كياناتها ، محتجا بأن عمل المرأة الى جانب الرجل ، يزيد من الدخل القومى وينشط حركة العمل الاقتصادى ويرفع من انتاج المعامل والمصانع !...

مثل هذا الكلام يقال فى أمة تشكو مصانعها العامرة الوفيرة الفراغ من الايدى التى تديرها ، أو تشكو من أنها لا تجد شابا واحدا يتسكع على ناصية شارع أو يجتر البطالة فى زاوية احدى المقاهى . ومعلوم أن مثل هذه الامة لم توجد بعد حتى فى دول الدرجة الاولى بهذا الاعتبار .

يظن هؤلاء الناس أن المرأة فى أمريكا وأوروبا انما تشترك مع الرجل فى الكسب ، من أجل أن يتعاونا للحاق بالآلة التى لا تتوقف . فيحلو لهم — بناء على هذا الظن — أن يستعيضوا عن واقع ما يعانونه من التخلف والعجز ، بمجرد المحاكاة والتقليد ، حتى فيما هم واهمون فى تصوره وتحليله .

وهذا الظن خطأ من أساسه !..

ان اشتراك المرأة مع الرجل فى مجالات الكسب ، فى أوروبا ، يرجع الى دافعين :

أولهما : تفاقم سلطان الاباحية والمتعة الجنسية ، حتى لم يعد يصبر الرجل عن المرأة ، والعكس ، فى أى طور من أطوار العمل والحياة . فالرجل حريص على أن تكون المرأة الى جانبه فى الوظيفة التى يقوم بها ، والمعمل الذى يشتغل فيه ، والمتجر الذى يتردد عليه ، والمطعم الذى يأكل فيه ، والطريق الذى يسير فيه . وهو بطبيعته وضع شاذ يتسبب فى شقاء الجنسين أكثر مما يتسبب فى اسعاده .

ثانيهما : دافع الشح والتكالب المادى . والرجل الغربى يعانى اليوم من هذا الشح الشىء المذهل العجيب . فرب الاسرة ، لا يرى ما يدعوه للانفاق على ابنته ، طالما يعتقد أنها قادرة على أن تذهب فتشتغل فى أى وظيفة أو معمل أو مطعم أو فندق !.. وكذلك الزوج ، لا يرى أى مسوغ للانفاق على الزوجة التى بوسعها أن تنطلق فتأتى بالمال من أى مكان !..

وهكذا ، فان البذخ الشديد من جانب يستلزم الشح والبخل الشديدين من جانب آخر !..

ان انصهار الغرب فى أتون المادة ، حول الذات الانسانية بكل خصائصها وأشواقها ونوازعها الخلقية الى ما يشبه كتلا ممسوخة من المادة !.. فهى تتحرك وتذهب وتجىء فى فلك المادة وسلطانها . فلا جرم ان كان ما يسمى بالاسرة هناك قد انصهر فى ذلك الاتون ايما انصهار . فأى قيمة أو معنى لذات الاسرة وتماسكها عندهم اذا كان انتثارها يعنى تحول كل جزء من أجزائها الى عمل آلى يكون رقما ماديا معينا ؟!..

وهكذا فالاسرة فى أوروبا عنوان لا مسمى له على الصعيد الغالب

اليوم ، وقد انعكست آثار ذلك على مجتمعاتها العامة ، وباتت تنذرهـــا بدمار مذهل رهيب .

وسبحان من قضى أن يعيدالتاريخ نفسه دائما !..

فلقد كان هلاك الرومان بسبب تفاقم الاباحية وأمر الجنس ، واستتبع ذلك نفس النتيجة التى تعانى أوروبا منها اليوم : الشح الشديد من جانب والبذخ الشديد من جانب آخر . وأطلق فيلسوفها الحكيم (كاتون) صيحة النذير دون أى جدوى ، وذلك حين قال :

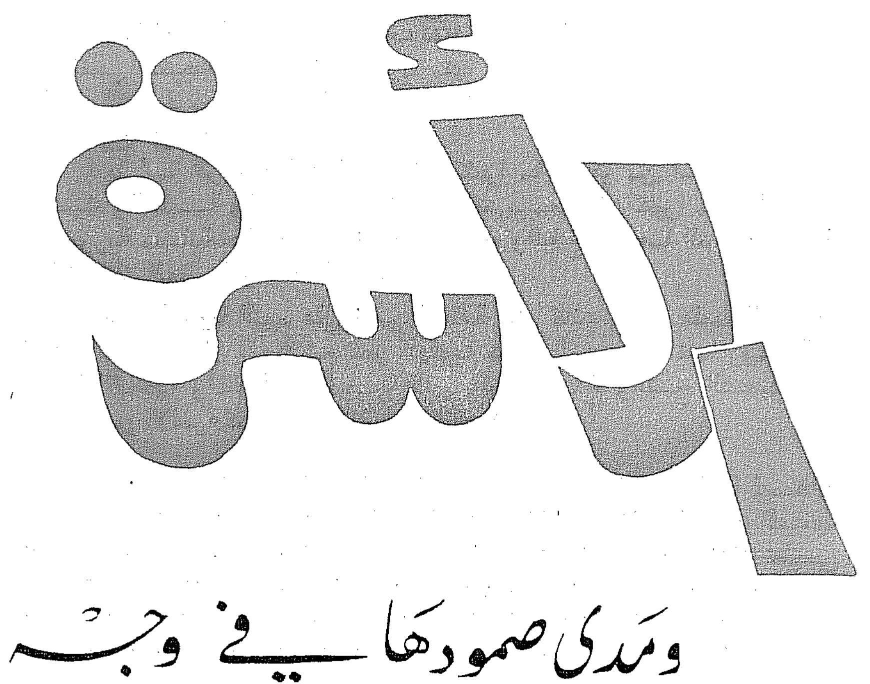
(يا أيها الرومان لقدسمعتمونى كثيرا ما اشكو من اسراف الرجال والنساء والعامـــة والمشترعين أيضا ، ولقد سمعتمونى كثيرا ما أقول : ان الجمهورية مصابة بداءين متناقضين : الشح والبذخ ، وهما الداءان اللذان قلبا الممالك العظيمة رأسا على عقب) (١) .

وتسير أوروبا اليوم على نفس الحافة التى كانت تسير عليها الرومان ذات يوم من الايام . وتترنح نحو الهاوية ذاتها التى هوت فيها رومانية : هاوية الاباحية والمادية الجانحـــة التى علمتها البذخ والشح الشديدين ، وجعلت من الاسرة كبش فداء لهذين البلاءين .

وبعد ، فقد آن لك أن تعلم لماذا لا يقر الاسلام خروج المرأة لميـــدان الكسب ، الا فى نطاق الضرورة والظروف الخاصة المناسبة ، ان السبب انه لا يريد منها أن تنفرد أو تشترك مع الرجل فى شىء من الانفاق علـــى الاسرة ، حتى لا ينشأمن حولها وضع جديد يفـــرض عليها أن تكون هـــى الساعية الى البحث عن الزوج بدلا من الرجل ، فانها اذا وصلت الى هذه النهـــاية انتثرت الاسرة حطاما وأشلاء ، وعادت مصدر شر وبيل للمجتمع كلـــه .

واذا تدبرت هذا جيدا ، آن لك أن تعلم أن هـــذه الشريعة الاسلامية العجيبة فى دقتها ، العميقة فى أبعادها ، الكاملة فى تقديرها وضماناتها ، لا يمكن أن تكون من وضع بشر أيا كان مستواه ونوعه . انها شريعـــة رب البشر وخالقهم . وحرام علينا نحن — عباد هذا الرب العظيم — أن نعرض عن حكمه وشريعته التى ارتضاها لنا ، الى تلك الشرائع الزائفة الاخرى التى لا قيمة لها أكثر من أنها تتحـــدى حكم الله وسلطانه .

(١) دائرة المعارف لفريد وجدى : ٦١٨/٨ .



ومدى صمودها في وجه تحديات الانحلال والمادية

د / عثمان خليل عثمان

١ ــ الأسرة الواحدة فى خضم الخلايا الاجتماعية :

لقد أعيى الباحثين فى علمى الاجتماع والأجناس ما بذلوا من جهد للتعرف على أولى الخلايا الاجتماعية التى عرفتها البشرية ، ولمحاولة حصر أنواع تلك الخلايا ، وتبين العوامل التى أسهمت فى ظهورها وفى تطورها على مر العصور . ومرد هذه الصعوبة بصفة أساسية كون التجمع البشرى قد يكون وليد البيئة الجغرافية ، أو العوامل المناخية ، أو الأحداث الطبيعية التى لا يدركها الحصر . وقد يكون وليد اعتبارات تاريخية وتقاليد متباينة يلعب فيها الزمن دورا كبيرا ومتفاوتا كذلك . ولئن كان هذا النوع من التجمع وذاك لا تبدو فيهما ارادة الانسان الا فى المقام الثانى ، فان أهم الخلايا الاجتماعية ما جاء وليد ارادة الانسان وثمرة تفكيره ووعيه .

وفى هذا المجال أيضا يتعدد المردود من الخلايا الاجتماعية ويتنوع تبعا لتعدد مناحى الفكر الانسانى ، وتنوع مستويات الوعى فى كل زمـــان ومكان .

لذلك لم تكن « الأسرة » ـــ بالغة ما بلغت أهميتها ـــ الا واحدة فى هذا الخضم من الخلايا الاجتماعية بحيث يعرض حتما ومنطقيا ذلك السؤال : لماذا اذا انحازت الأسرة من بينها بتلك المكانـــة الخاصة واقعيا وتاريخيا ودينيا وسياسيا ؟

٢ ـــ انفراد الأسرة بمقومات متعددة كفلت لها البقاء والصمود :

لقد رجح المحدثون من الباحثين ـــ ان لم نقل قد قطعـــوا بأن الاسرة (**كوالدين ، أو أحدهما وأولاد** تحت سقف ، أو فى عش واحد) لم تكن ثمـــرة للغريزة وحدها،بحيث لم تكن أسرة قط بغير هذا الدافع،وبحيث أدى هذاالدافع يقينا وفى جميع الاحوال الى تكوين أسرة ، ولكن هذا القطع أو ذاك الترجيح لا ينفيان القطع بأن الغريزة كانت ولا تزال وستظل أحد العوامل الأساسية فى تجمع البشر فى شكل أسرة ، ولا يحتاج تقرير ذلك للربط الجامع المانع بيـــن الغريزة والأسرة ، بل لعله من حسن طالـــع الأسرة كخلية اجتماعية ، أن يكون هذا هو غاية أرتباطها بالغرائز ، وأن يكون هذا الارتباط واحدا فقط من مقوماتها المتعددة فان تخلف أحدها ولو كان الغريزة أغنى عنه غيره من المقومات ، ولعله لهذا بالذات بقيت الأسرة على مر العصور ، وصمدت فـــى وجه مختلف التطورات ، وتحديات الزمن ، وأخطرهـــا تحديات الانحـــلال الاسرى والنزعة المادية فى العصر الحديث .

وعليه فللأسرة نصيب كبير من الفطرة آيته ذلك المزيج الدافع اليها من غرائز الجنس ، وحب البقاء ، وعواطف الأمومة ، والابوة والبنوة والاخاء والرحم ، مع ما يفتعل من خلال هذه الوشائج المتعـــددة من مودة وحب ورحمة فاذا الأسرة سكن بين الزوجين ورحم بين الآل والأقربين ، ثم يضاعف هـــذه المشاعر والوشائج التضامن المتولد عن تشابه هؤلاء عادة فى النوع والظروف والمصالح ، وتضامن كذلك ينتج عن تقاسمهم العمل كضرورة أولية من ضرورات الحياة ، فاذا بثمرة كل ذلك جمع متكاثر باطراد من ذوى القربى ، ويزداد تكاثره بمن يرتبطون به كذلك ، لأسباب متباينة كالنسب والرضاع . . . هكذا تكونت الأسرة وتجمعت الاسرات ، وهكذا تضافرت مقوماتها وتكاثر عديدها فكتب لها البقـــاء . .

وما أروع التصوير القرآنى لهذه الحقائق الاجتماعية والتاريخية ، حيث يقول تعالى فى سورة الروم « ومن آياته أن خلق لـــكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلـــك لآيات لقوم يتفكرون » (الآية ٢٥) وقوله سبحانه فى سورة النساء : « يا أيها الناس اتقوا ربـــكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا » . (الآية الاولى) . .

جـ) وفى شأن الأقربين عامة :

يقول تعالى فى سورة الاسراء : « وآت ذا القربى حقه » (الآية ٢٦) وفى سورة الشورى : « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » الآية ٢٣) وفى سورة البقرة : « الوصية للوالدين والاقربين » (الآية ١٨٠) .

وفى سورة النساء : «واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام» (الآية ١) ١) وعن النبى صلى الله عليه وسلم قوله « الأقربون أولى بالمعروف » وقوله : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلـك » وفى حديث آخر « اذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة » كما قال صلى الله عليه وسلم « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه » وقال « الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة » ، بل ان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول « ان من أبر البر صلـة الرجل أهـل ود أبيه بعد أن يولى .. » ..

د) جعل أساس الاسرة الزواج الشرعى المرتبط بالدين حلا وتحريما .

وهذه صفة بارزة فى الأسرة الاسلامية ، حيث فصل الاسلام أحكـام الزواج شاملة الجانب الشخصى ، والجانب المالى ، من بدء الخطبة الى عقد الزواج ، الى واجبات الزوجين والابناء والأقربين ، الى النفقـات والطـلاق والميراث والوصية وما الى ذلك ..

وكل ذلك بأحكام دينية ترتبط بالعقيدة ، وبالحلال والحرام ، ولذلك عض المسلمون بالنواجذ على هذا الطابع الدينى ، لاحوالهم الشخصية برغم ما حاوله المستعمر فى بعض البلاد العربية ، لكى يحول هذه العلاقات الى علاقات مدنية بل واخضاعها للقانون الفرنسى ، وهنا صمدت الأسرة الاسلامية بفضل هذا الطابع الدينى العقائدى للاحوال الشخصية فى وجه التيار الحديث المتزايـد فى أروبا نحو اعتبار الزواج مجرد رابطة عقدية مدنية كسائر العقود المدنية ، وبالتالى لا يكون لها من السند الدينى والعقائدى ما يجنبها عواصف الزمن ، ومخاطر الانحلال ..

ومن أجل ذلك اعترض المسلمون عندما أخذ مشرع احـدى الدول العربية بأحكام للتبنى تخالف الاسلام ، وذلك باعطاء الولد المتبنى كل حقوق الابن الحقيقى فى الميراث والنفقة وغيرهما ، وكذلك عندما جاوز تنظيم تعدد الزوجات بالتقييد الى التحريم القاضى على ذات المبدأ الاسلامى فى جواز التعدد .

ونلاحظ فى هذا المقام بصدد التبنى ذلك الاعجاز فى استمرار نسبـة الولد المتبنى الى أبيه الحقيقى ، لقوله تعالى فى سورة الأحزاب : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » (**الآية ٥**) وقد نزل ذلـك فى حق زيد بن حارثة

٣ ـ الأسرة فى الاسلام :

من وراء هذا التصوير القرآنى العام للاسرة (بادئة بالتزاوج سكنا ومودة ورحمة ، ومنتهية بذلك التكاثر وصلات الارحام) نذكر بعضا من آيات القرآن الكريم الكثيرة ، والسنة النبوية المتواترة ، لبيان بعض خصائص النظـــرة الاسلامية الى هذه الخلية الاجتماعية الاساسية .

أ) فيما بين الزوجين يقول تعالى : « هن لباس لـــكم وأنتم لباس لهن » (الآية ١٨٧ من سورة البقرة) ويقول فى سورة النساء « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل اللـــه فيه خيرا كثيرا » (الآية ١٩) وفى سورة البقرة : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » (الآية ٢٢٨) والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « خيركم خيركم لأهلــه وأنا خيركـــم لأهلى » وفى رواية أخرى « خياركم خياركم لنسائهم » ، كما قرر أن فى بضع أحدكم صدقة وأن اللقمة يضعها الرجل فى فم زوجه له صدقة ، ونهى أن يفرك مؤمن مؤمنة (أى يبغضها) فان كره منها خلقا رضى منها آخر وقوله صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع « ألا واستوصوا بالنساء خيرا » ..

ب) وبالنسبة الى الوالدين ..

يقول تعالى فى سورة الأحقاف « ووصينا الانسان بوالديه احسانا » (الآية ١٥) وفى سورة لقمان : « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير . وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيـــا معروفا واتبع سبيل من أناب الى) . (الآيتان ١٤ ، ١٥) ..

ويلفت النظر بشدة فى هاتين الآيتين الشريفتين ، ذلك الاكرام الذى خص به الله الوالدين ، برغم مجاهدتهما الابن ، لكى يرتكب أكبر جرم وهو الشرك « ذلك الذنب الذى لا يغتفر » ومع ذلـــك جاء لفظ القـــرآن فلا تطعهما ، ولم يقل فخالفهما ، أو فاعصهما ، ثم يتبع جل شأنه ذلك بأمر ملـــزم جازم بقولـــه « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » ..

كذلك نذكر قوله تعالى فى سورة الاسراء : « وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » (الآيتان ٢٣ ، ٢٤) ..

وحسبنا من الاحاديث الشريفة ذكر قوله صلى الله عليه وسلم « الجنة تحت أقدام الامهات » والتنويه بالعديد مما جاء فى شأن بر الوالدين ، والتحذير من عقوقهما حتى ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل بر الوالدين تاليا فى الفضل للصلاة على وقتها ، وسابقا على الجهاد فى سبيل الله ، وقال لمن جاءه يطلب الجهاد وله والدان « ففيهما فجاهـــد » ..

أما الابناء فحسبهم أن نذكر فى شأنهم قوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (الآية ٤٦ من سورة الكهف) ..

الذى تبناه الرسول صلى اللهعليهوسلم وكان الناس يسمونه زيدا بن محمد ، حتى نزل النهى عن ذلك ، وبقدر ما فى هذا الحظر من اعجاز بالغ من يلم بأخطر مشاكل التبنى فى أوروبا اليوم ، حيث يحمل المتبنى اسم الأسرة الجديدة ، فيجرى فى المجتمع مجرى الابن أو البنت أو الاخ أو الأخت ، والحقيقة غير ذلك ، وعلى خلاف ما فى الاوراق والبطاقات ، فأدى ذلك الى أكبر المشاكل ، حيث يتبنى رجال فتيات ، وتتبنى نساء فتيانا ، ويستغل ظاهر الأسماء أسوأ استغلال ، وتقف الهيئات الرسمية والخيرية عاجزة عن العلاج الشافى لهذا الانحراف ، فبالنص القرآنى السابق ذكره احتاط الاسلام للأمر ، وجاءت السنة مؤكدة لهذا الاحتياط ، حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم من انتسب الى غير أبيه أو انتمى الى غير مواليه فعليه لعنة الله » ..

هـ) الحفاظ على الاسرة عبر الأجيال بفضل نظام الميراث :

وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لأن تترك أولادك أغنياء خير من أن تتركهم فقراء يتكففون الناس » فالمرء بفطرته معنى بسعادة أبنائه وأحفاده من بعده ، وبهذا يتضاعف الحافز على العمل ، والادخار ويكون التواصل برغم تعاقب العصور ، ويستمر الارتباط باسم جد معين مثلا أو اعتزازا بمكان خاص بالأسرة جيلا بعد جيل أو بمهنة عرفت بها ، أو بثروة تتوارثها وتضم شتات الفروع على الزمن ، وبغير هذا الميراث لا يتعلق الخلف بالسلف الا بقدر أقل ، ولحين أقصر ، كما أن نظام الميراث اذا كان على مثل ما فى الاسلام من الزام يحفظ المودة بين الأجيال ، ويمنع المظالم والنزوات ، وكان على شاكلته من رحابة لا تقصر الارث على الابن الأكبر ، بل تمتد الى العصبات وأصحاب الفروض ، وذوى الأرحام ، اذا كان الميراث على هذا النحو حقق كذلك وبصورة آلية توزيع الثروات ومنعها من أن تكون دولة بين القليلين ، وشحا أو منعا على الاكثيرن . كل ذلك دون حرمان المورث من حق الوصية الحرة فى حدود ثلث التركة ، ولغير وارث على التفصيل المعروف ، ولقد كانت هذه الاحكام المتعلقة بجوانب الأسرة الاسلامية ، مصدر اعجاب المنصفين من المستشرقين ، وسببا من أسباب ذلك التقدير والانصاف المتزايدين لشريعتنا الغراء .

٤ ــ الأسرة فى الدساتير وفى مواجهة تحديات العصر :

تباينت نظرة الدول ، وخاصة فى العصر الحديث ــ الى الأسرة ــ فمنها ما آمن بالمعانى والقيم السابق ذكرها ، فحرص على جعل الأسرة بمقوماتها السالفة الذكر أساسا من الأسس الجوهرية للمجتمع ، ومن ذلك دستور الكويت الصادر فى ٦٢/١١/١١ حيث أورد النصوص التالية بهذا الخصوص .

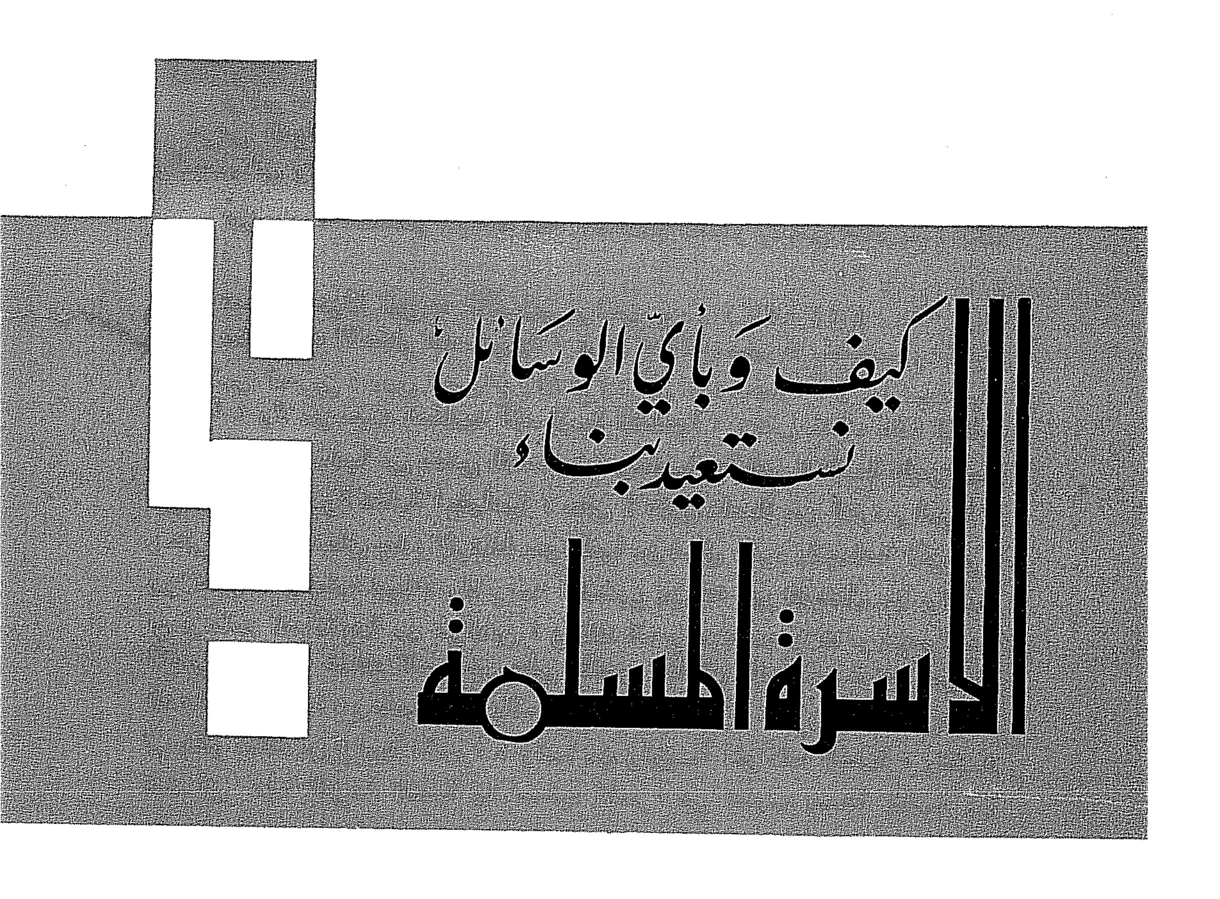
الأسرة أساس المجتمع ، قوامها الدين ، والأخلاص وحب الوطن ، يحفظ القانون كيانها ، ويقوى أواصرها ، ويحمى فى ظلها الأمومة والطفولة (المادة ٩) . .

والميراث حقه تحكمه الشريعة الاسلامية (الفقرة الثانية من المادة ١٨)
ترعى الدولة النشء ، وتحميه من الاستغلال ، وتقيه الاهمال الادبى والجسمانى والروحى (المادة ١٠) ..

دين الدولة الاسلام ، والشريعة الاسلامية مصدر رئيسى للتشريع (المادة ٢) ..

تصون الدولة التراث الاسلامى والعربى .. (المادة ١٢) ..
بمثل هذه الاحكام الدستورية ، تربط الدولة مصيرها بنظام الاسرة الاسلامى العربى ، دون السماح بالانحراف عن هذه الجادة ، لا من حيث مبدأ الاسرة ، ولا من حيث أحكامها الاسلامية القطعية ، وعلى خلاف هذه النظرة تذهب النزعة المادية فى بعض الدساتير ، وخاصة دساتير الكتلة الشرقية الى تجاهل الأسرة كخلية اجتماعية ، حتى لا تكون فاصلا بين الفرد والدولة ، وحتى لا ينال التعلق بها والارتباط بعواطفها من تعلق الفرد بالجماعة الكبرى ، وولائه لها ، وتفانيه فيها ، ولما زعمه أفلاطون من أنه خير للأطفال منذ ولادتهم أن ترعاهم الدولة بدلا من الوالدين ، ولذلك كله وجدت محاولات لم تنجح لالغاء الاسرة ، كذلك عملت النصوص على تقليص سلطان الدين مع توكيد حرية الدعاية اللادينية ، وعندما عنى بالنص على حقوق المرأة ، أو رعاية النشء مثلا لم ينظر لذلك من زاوية الاسرة ، وانما من زاوية المواطنة العامة ، ولقد شد أزر هذه النزعة المادية ما أصاب الاسرة فى الغرب بصفة خاصة من تقويض لبعض أركانها ، نتيجة لجهل نسب كبيرة من الناس لانسابهم ، ولأسرهم بسبب الحروب ، وما يصاحبها من قتل وفساد وتشريد ، ولكثرة المواليد غير الشرعيين ، وذيوع الحياة خارج عش الزوجية الشرعية ، حتى عمدت دول عديدة الى الاعتراف بالبنوة غير الشرعية على مستوى البنوة الشرعية كليا ، أو جزئيا ، كذلك تضاف موجة خروج المراهقين تزايد مستمر على القيم والتقاليد والضوابط ، ونزوعهم الى الاستغلال المبكر عن أسرهم ، والهجرة والتنقل والتخلص من رقابة الوالدين مع ما يصاحب ذلك كله من انحلال خلقى ، وصحى وثقافى وحضارى ، يجرف فيما يجرف القيم المرتبطة بالأسرة ، كخلية اجتماعية ، وبالزواج كمقوم أساسى لتلك الخلية .

هذه هى المحنة التى تمر بها الأسرة خاصة فى الغرب ، والتى تهدد كيانها تهديدا خطيرا ، وذلك على خلاف تلك الحصانة التى لا تزال تنعم بها الاسرة فى بلادنا ، بحكم الاسلام والتقاليد العربية والشرقية ، وما من شك فى أن الاسرة الشرقية التى نحياها ستبقى صامدة فى وجه تحديات ذلك الانحلال ، وتلك المادية ما استمسكنا بديننا ، وحرصنا على تقاليدنا ، وحافظنا على أجيالنا الصاعدة التى نشأت فى ظل الرعاية الاسرية ، والضوابط الاسلامية ، من أن يجرفهم التقليد الاعمى ، الى محاكاة شباب من المغرب يقتله الضياع ، ويؤرقه ويقض مضاجعه فقدان النسب ، والعمل والآمال .



بقــلم : محمد المجذوب

١ ــ موضوع الاسرة هو موضوع الفرد والكل منفردين ومجتمعين ، لذلك كان اختيار (الوعى الاسلامى) لهذه الفكرة محرجا لكتابها بالنظــــر لسعته ولتشعب فروعه ، وشموله العــــديد من دروب البحث ، بحيث لا يستغنى معالجه عن أى الجوانب التى تؤلف عناصر المجتمع البشرى . ومن هنا تأتى خشية الكاتب أن يكون موضوعه ترددا لسواه أو تواردا مع زملائه ، وبخاصة عندما يكونون من ذوى الاتجاه الموحد أو المتقارب . وهذا التقدير هو الذى جعلنى أمحــو الكثير من الخطوط التى أعددتهــا للبحث لأكتفى ببعض الجوانب الاساسية من الموضوع تجنبا للتوارد والتكرار .

٢ ــ لكى نعطى التقويم السليم لقضية الاسرة ، والاسرة الاســلامية بوجه خاص ، لا بد من النظر الى أصلها أولا ، ثم تعيين القيمة النوعية لهذا الأصــل على الموازين المعتمدة فى مقاييس الحضارات .

والأصل الاول للاسرة هو الانسان وقد اتفق أهل الاديان قاطبة على أن الذكر هو السابق ، ومنه انبثقت أنثاه ، ولا اعتراض على هذا المفهوم فى أى مذهب فكرى ، اذ لا أهمية فى موازينها لتقدم أى النوعين على الآخر .

وتكاد النظرة الدينية تتفق على تكرمة الانسان — ممثلا فى أصله الاول — اذ تخبرنا بأنه المخلوق الممتاز الذى فضله خالقه وهيأه لخلافة الارض وسياستها ، فأودعه أسس المعرفة ، وزوده بالخصائص التى تؤهله للسيادة على كل موجودات الارض . من أحياء وجوامد ونبات .. !

ومن هذا الاصل اشتق الخالق سبحانه قرينه فكان من جنسه ، مزودا بمنحة التكرمة نفسها ، وبالقدرة الانشائية المتممة لمهمته فى رحاب هذه المملكة المذللة لجنسهما ، المسخرة لخدمته .

ثم من هذا الاصل المزدوج نشأت الاسرة الاولى للجنس البشرى ، تحمل خصائصه المتميزة كلها ، والمؤهلة لبناء الكيان الامثل لسائر أفراد الجنس .

فالأبوان بادراكهما لمؤهلاتهما العليا ، الناشئة عن النفخة الربانية ، التى ميزتهما على سائر المخلوقات ، قد أدركا عظم المهمة التى اختيرا لتحقيقها على الارض ، عن طريق اعداد النسل الصالح لخلافة الله ، المدرب على مقاومة العدو الاول ، الذى أعلن خصومتهما وحسدهما على ذلك الامتياز منذ اللحظة الاولى .

وطبيعى أن مثل هذا التصور اليقينى لموضوع تكرمة الانسان يعين بوضوح تام منزلة الاسرة البشرية فى القمة من منازل الخلق .. لانها منبثقة عن المميزات التى خص بها هذا الجنس من بين سائر المخلوقات الاخرى .. فهى أسرة ممتازة ، ذات وظيفة كونية ، تتجلى فى استخدام قوانين الطبيعة لتشييد الحضارة الربانية ، على الاسس المنسجمة أتم الانسجام مع خصائص الفطرة السليمة ، التى من شأنها تحقيق الصورة الفضلى للحياة السعيدة ، القائمة على التعاون فى طاعة الخالق ، وفق المخطط الالهى الذى تعهد بتزويد الانسان به على مر الازمان .

٣ — ذلك هو الافق الذى منه ينطلق تصور المؤمن لكيان الاسرة الذى كان على الانسان ان يتعهده بالاستمرار فى هذا الطريق الامثل ، مهما تتقلب الايام ، وتتطور الاحداث ، على ان الواقع قد حاف على هذه الحقيقة اذ تعرضت للمشوهات الكثيرة خلال التاريخ . وكان مرد ذلك كله الى فساد التصور البشرى لموضوع التوحيد ، وقبول الانحرافات الكبيرة فى مفهوم الانسان لصفات ربه العلى ، فكل انحدار فى هذا المفهوم عن مستواه الصحيح استتبع مثله فى مفهوم القيمة الانسانية .. وقد بدا ذلك جليا فى موازين الامم المختلفة ، نخص منها بالذكر وثنية اليونان ، التى انحدرت بتصور الالوهية الى أحط الدركات ، فجعلت لكل ظاهرة من القوة إلاهة أو إلها خاصا ، ثم اخترعت لهذه الآلهة أحداثا أفسدت الخلق اليونانى ، اذ أوقعت فى ضميره أن الفجور والخداع وارتكاب أحط الموبقات هى من أقدس الصفات .. ! وتلاقت الوثنية الهندية معها فى ذلك المنحدر ، الذى جعل تصوير العملية الجنسية شيئا رائعا يستحق أن يحفر على جدران المعابد (١) وتسربت هذه المنكرات الى الكتب اليهودية المقدسة . اذ نسبت مثل هذه الأرجاس الى أنبياء الله أنفسهم ! .. ثم تسللت الى المسيحية فى بعض الاقطار كأنجلترة ، حيث أعطت المحاكم الكنسية — فى القرن الحادى عشر — الزوج الحق فى أن يبيع زوجته أو يعيرها لآخر الى أجل — كما يؤكد ذلك هربرت سبنسر — ولم ينج العرب فى جاهليتهم من هذا الزيغ فكان — الى جانب البغاء العلنى — زواج الاستبضاع ، الذى يبيح للرجل دون معرة أن يأمر زوجته بمضاجعة الرجل الذى يتسم ببعض المواهب العالية رجاء

أن يرزق منه بغلام من نبعته (٢) .
فاذا انتهينا الى واقع المرأة فى الحضارة الغربية المعاصرة واجهنا الحقيقة الكبيرة التى تؤكد أن قيمة المرأة هى حصيلة تلك الانحرافات جميعا وبخاصة اليونانية منها ، بحيث لا تعدو أن تكون متعة وملهاة ، يرغب فيها ما دامت صالحة لتوفيرهما ، فاذا فقدتهما نبذت ، ولم تجد من يعيرها التفاتة أو اهتماما ! ..
وقد أحدثت هذه النظرة فى جسم الاسرة نفسها ندوبا بالغة توشك أن تدمره تدميرا ، بل لقد أنتجت مذاهب فكرية تدعو علانية الى نسف الاسرة كليا ، وذلك عن طريق الغاء الروابط الشرعية ، التى يتبعها عفويا انحلال العلاقات الوالدية بأسرها ، وتعطيل الاحكام المدنية الخاصة بحقوق الزوجية والبنوة ، وعلائق الارحام المتقاربة والمتباعدة ، حتى يستحيل المجتمع البشرى الى قطيع من الحيوانات بل من أدنى الحيوانات ! .. ولا ننسى محاولة الشيوعية تطبيق ذلك المذهب باقدامها على الغاء الكيان العائلى فى مطلع الدولة الماركسية بزعامة لينين .. وقبل ذلك فى الدولة الساسانية بفارس أيام انتشار المذهب المزدكى ، الذى اعتبر مجرد امتلاك المال واحتكار المرأة المصدر الاول لكل شقاء ! .. ثم ما تولد عنه فى العصر العباسى من نحل قرمطية وخرمية انطلقت من البؤرة نفسها لتقويض الوجود الاسلامى .
٤ ــ ومما لا سبيل الى تجاهله هو أن مثل هذه الاحكام الخاطئة لا تقتصر على المرأة بمفردها ، بل هى تتناول الرجل معها وبالتالى تشمل الجنس كله . ذلك أن أساس الخلل فى موازينها عائد الى القدر المشترك الذى يجمع بينها على اعتبار أن الانسان لا يخرج عن كونه حيوانا ، مهما يضيفوا اليه من صفات تميزه ، بأن يسموه حيوانا اجتماعيا ، أو مدنيا ، أو ناطقا ، أو حيوانا منتصب القامة ، أو أنه الحيوان الضاحك أو الحيوان ذو الراحة الملساء .. الى آخر ما ابتدعوه له من نعوت لا تستطيع انتزاعه من المستنقع الحيوانى ، الا بما يعترفون له من تطور لا يبعد ــ بنظرهم ــ أن يصيب غيره من تلك الأنسال على مر الزمان ! .. وهى نظرة تسللت مبادئها الاولى الى الفكر العربى عن طريق المترجمات اليونانية منذ عصر المأمون . فهى دخيلة عليه ، أجنبية عن تصوره العقدى الذى يرفع الانسان الى أسمى مراتب الخلق ، منذ اطلاله على الوجود متميزا بتلك النفخة المقدسة .
ولقد تضخمت هذه الفرضية المادية أخيرا بما استحدثته الحضارة الغربية من مذاهب تقيم بنيانها على هذا الاعتبار الحيوانى ، الذى يجرد الجنس البشرى من خصائصه العليا جميعا ، ثم يقنعه بانحطاطه ، فيألف الاستسلام الى أخس الغرائز ، حتى يقتل فى كيانه أخيرا كل شعور بالتميز أو السمو .. ! وهكذا ينتهى دور الانسان الذى كرمه الله ، ليبدأ دور الحيوان المتطور الذى أذلته التخرصات المادية ! ..
وبديهى أن لكل من الاتجاهين أثره العميق فى نوعية الاسرة وفى تحديد مضمونها واهدافها ، ومن ثم فى مسيرة الحضارة البشرية .
أما فى ظل النظرة المادية فالاسرة وضع عرضى غايته القصوى هى التلاقى العابر على متعة شخصية قلقة ، لا استقرار معها لانها لا قداسة لها .. حتى المواليد فى مفهوم هذه الاسرة لا أثر لهم فى تكوين أى ضرب من الروابط الروحية بين أعضائها ، لانهم غير مسموح لهم بالخروج الى

الدنيا ، ولا بالبقاء فيها الا ضمن حدود المصلحة المادية نفسها ، فاذا بلغــوا حدود القدرة الذاتية فصلوا عن جسم الاسرة بقسوة ليضربوا فى جوانب الارض على غير هدى .. ثم لا يبالى أحدهم أن يلقى الآخر ، أو يطمئن الى مصيره ، حتى اذا وافى أحد الوالدين شبح الموت ورغب فى مشاهدة ولد له اعلمه ذلك عن طريق الاذاعة الخاصة (٣) وقد يبلغ الانفصام فى الواحد مــن هؤلاء الاعضاء أن يوصى بثروته كلها لكلب أو قط ، دون أن يشعر بأية عاطفة نحو قريب له مهما تبلغ حاجة هذا الى عطفه ! ..

ومثل هــذه الاسرة أوهى علائــق من خيوط العنكبوت ، فهى أضعف من أن تقاوم التيارات التى تريد اقتلاعها ، وأعجز من أن تأمل بالبقاء طويلا ، لأنها مبتوتة الجذور ، كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار .

واذا كانت الاسرة هى المجتمع الاول الذى يؤلف مع أخواته عناصر المجتمع القومى ثم البشرى ، فالحصيلة الحضارية لهذا الضرب من الاسر هى تحول الحياة الى معترك صراع ، يجعل من الطاقــات البشرية وســائل جهنمية تتجه الى تدمير الجنس كله .. وهى النهاية التى تشهد طلائعها فى ما يسمونه بالثورات الثقافية ، التى تكتسح أوساط العالم الذى تخلى عن الفضائل الروحية ، كما نشهدها فى المذاهب الانحلالية المتمثلة فى الوجودية والخنفسة والهيبية ، التى أصبحت كمجمعات الاقذار ، هدمت سدودها ، فهى تكتسح الاخلاق وتجرف الفضائل ، لتقضى على البقية الباقيــة من مقــومات البقــاء ! ..

ولا جــرم أن أكثر الناس شــقاء فى مثل هذا الجــو المسموم الملغوم هى المرأة ، لأنها العضو الاشد حساسية ، فهى بســبب ذلك أوفر شــعورا بالحرمان من نعمة الامومة والاستقرار فى ظل الحياة الطبيعية ، التى أعدت لها بكل أجهزتها الفطرية . ولقد كثرت الوقائع التى تعلن هذه الحقيقة ، وامتلأ الفضاء بأصوات البقية من أولى الوعى رجالا ونساء ، الذين أحاطوا بهذه المخاطر ، تنذر البشرية بالويل والثبور وعظائم الامور ، اذا لم يتداركهــا المسؤولون عن قيادة الحضارة بالاصلاح العاجل السديد . وسأكتفى بمثـل مصغر لهذه الكارثة الانسانية نقله الى ابن لى عن مشاهداته فى عالم الغرب . ذلك أنه ذات يوم ضل الطريق الى العربة التى كان يأوى اليها من القطــار العامل بين لوبيانا وفيينا ، فلم يجد مناصا عند تحركه من اللياذ بأية عــربة فاذا هو بفتاة أوربية .. وخلال الحديث بينهما علم أنها تقصد البلد النمساوى لزيارة خطيبها الذى مضى على علاقته بها عدة سنوات ! .. فسألها ابنى عن السبب الذى يحول دون زواجهما فاجتماعهما فى بيت واحد ! .. فأخبرته أنها لم تستطع حتى الآن توفير المال الذى يحقق لها هذه الامنية ، وهنــا أطلعها الابن على الحقيقة التى لم تعرفها قط ، وهى أن الرجل المسلم هــو الذى يقوم بتقديم الصداق الى المرأة ، دون ان يكلفها شيئا سوى التعاون معه على توفير الجو الزوجى السعيد .. وما كان أبلغها مفاجأة اذ هبت عن مقعدها ترفع يديها وتقول « أين أجد مثل هذا الانسان ؟! .. أليس من مسلم يتزوجنى فينقذنى ! .. »

ولعمرى انها لصورة مصغرة من المأساة الكبيرة التى تعيشها المرأة بل الاسرة ، فى ظلمات هذه الحضارة التى لا تعترف للانسان بغير الجانب الحيــــوانى .. !

٥ ــ بقى أن ننعم النظر قليلا فى الجانب المقابل من العرض ، لنرى

مقومات الاسرة فى ظل النظام الاسلامى الصحيح . ولن تجد صعوبة فى تبين المنطلق الذى تصدر عنه ، بعد أن وضحت للبصيرة مكانة الانسان فى مفهوم الاسلام . انها الملاذ الكريم الذى يهيىء لكل من الزوجين وبكل منهما الجـو الفطرى ، الذى يتحدد مضمونه بقول الله : (ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . ان فى ذلك لآيات لقـوم يتفكرون) (الآية ٢١ من سورة الزمر) .

فالزوجة مخلوق من نفس الزوج ، وبذلك يتعين مكانها الطبيعى ، بوصفها انسانة تملك المقومات الانسانية نفسها التى تميز قرينها عن سائر المخلوقات الاخرى ، وبهذا التعيين تسقط الاحكام الزائفة التى تعتبرها روحا شيطانيا فى جسم انسان .. والمذاهب الاجتماعية المدخولـة التى تحـدد وظيفتها ضمن نطاق الإلهاء والامتاع ! ..

ثم انهـا مبعث السكينة لقرينها . والسكينة وضع نفسى يصـور الجـو الزوجى ملاذا للنفس القلقة التعبة ، تجد فيه الأنس والهدوء والطمأنينة التى تخف بها أعباء الحياة .. وهى فى الوقت نفسه منبت المودة التى هى ثمرة الانسجام الروحى بين الزوجين ، ومن ثم بين أجزاء الاسرة الآخرين مهما امتدت أعراقهم وتباعدت منازلهم . والمودة قرينة الرحمة التى هى فيض القلب الطيب .. وبهاتين الميزتين ــ المودة والرحمة ــ تجد كل مشـكلة زوجية او أسرية حلها السليم القويم .

بيـد أن مثـل هذا الكيـان الاسرى لا يمكن تأليفه على الوجه الاكمل بالجمع بين أى رجل وامرأة ، بل لا مندوحة فيه من التخير الواعى ، ومن هنا كان توكيد الاسلام على المقومات الخلقية والدينية الرفيعة . ففى الكتاب الحكيم (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم ..) (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ..)

وايثار المؤمنة أو المؤمن على المشركين لا يمت بسبب الى التمييز العرقى أو الوراثى ، بل هو منبثق من نظر الاسلام الى ثمرات كل من الفريقين للمجتمع فـ (أولئك ــ المشركون ــ يدعون الى النار) نار الشقاء الدنيوى الصادر عن الانسياق فى غير طريق الفطرة ، الصائر بأهليه أخيرا الى جهنم ، وبئس المصير .. على حين أن المؤمن انما يدعو لما يستيقنه ويسعى لتحقيقه من بث الخير والعمل الصالح ، الذى لا سبيل سواه لتحصين المسيرة الانسانية من حبائل حبائل الشيطان .. ومن أجل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليـه وسلم « اذا خطب اليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه .. ان لا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد عريض » (٤) فضابط الاختيار بالنسبة الى الزوج هو الدين العاصم من الزيغ ، والخلق المساعد على الفضيلة . وكل تجاوز لهـذا المقياس النبوى ، من اغترار ببهارج الدنيا منصبا وجاها ومالا .. انما هـو انحدار بالاسرة فالمجتمع الى مزالق الفساد منذ الخطوة الاولى .

وكذلك الشأن بالنسبة الى الزوجة ، فليس كل فتاة صالحة للبناء ، فقد تعجبك المرأة لمالها او حسبها او جمالها ، ولكن ذلك كله لا يعدو ان يكـون وسائل تدمير للحياة العائلية اذا تجردت عن فضائل الايمان والعمل الصالح، ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالهـا ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يـداك (٥) ويجعل غايـة التلاقى الزوجى استمرار النسل الصالح لحمل مسئولية الاصلاح والتصحيح ، وعن هذا يقول صلى الله عليه وسلم تزوجوا الودود الولود فاننى مكاثر بكـم الانبياء يـوم القيامـة (٦) وغير مقبول ولا معقـول أن تكون رغبتـه صلى الله عليـه

وسلم فى المكاثرة لمجرد الاعجاب بالعدد الكثيف ، وهو الذى يبين فى الاثر الصحيح أن صعلوكا من أهل التقوى يفضل ملء الارض من غيرهم (٧) ، ناهيك بالغثاء الضخم من أشباه الضفادع والببغاوات ، ولو كانوا من كبار الجامعيين والجامعيات ! .. وبهذا التحديد يغلق أبواب الاسرة المسلمة نهائيا بوجه التافهات من حثالات الفتيات ، اللواتى عرين عن الخلق والدين ، لان الطيبين للطيبات ، والخبيثين للخبيثات و (الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين) ٣ من سورة النور ومن خلال هذا المبدأ الاسلامى نلاحظ تركيز القرآن على تلك الخاصة التى اشترط توافرها فى الكتابية ليصح للمسلم تزوجها ، وهى اتصافها بالاحصان (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) ٥ — ٦ ففى التعبير بهذا اللفظ توكيد حاسم على كل ما ينطوى تحته من العفة والحشمة والبعد عن مزالق الريب . ولو أن السلطات التى تحكم الشعوب الاسلامية أخذت بهذا المبدأ لأبطلت كل عقد بين مسلم وكتابية لا تتقيد بهذه الصفات . ولكن المؤسف أن الحاكم والمحكوم فى منأى عن هذا المفهوم .. الا من رحم الله، والمغترب من أبناء المسلمين حين يؤثر الفتاة الغربية لا يشعر غالبا بأى التزام اسلامى ، وانما ينحصر همه — بعد النزوة الجنسية — فى أمر واحد هو تلقيح وجوده وبلده بخصائص الجنس الاجنبى الذى آمن بامتيازه ، أيا كانت ثمرات هذا اللقاح ! .. وما ذلك الا نتيجة الجهل المطبق للمفهوم التربوى الذى يقرره الاسلام فى هذا التوجيه النبوى الحكيم : (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة) (٨) وأى مفسدة أخطر على البيئة الاسلامية اليوم من تلك الانثى التى نشأت فى احضان الحرية الجنسية ، وأشربت تقاليد الغرب المتدهور ، بكل ما فيها من سموم وخبائث ! .. وما أكثر الرزايا التى حملتها هذه المطايا ! .

ولا حاجة الى التذكير بأن اهتمام الاسلام بأصلى الاسرة — الذكر والانثى — الى هذا الحد انما هو نابع من القدسية التى يسبغها على هذا الكيان ، الذى يريده مصنعا دائم الصلاحية لانواع الفضائل الانسانية .

٦ — على أن هناك نقطتين لا مندوحة عن وقفة عليهما لاستيفاء عناصر البحث . أما احداهما فمشكلة التعدد التى كثر فيها الجدل ، وقد نالت من الاقلام الاسلامية حظا كبيرا ، ولا أرى ضرورة لمناقشة جوانبها المختلفة فى القديم والحديث ، بعد الذى سطرته عنها فى كتابى (تأملات فى المرأة والمجتمع) وانما أريد فقط أن أضيف الى ذلك ما توفر لدى من تجربة فى هذا المضمار علمتنى مالم أكن أعلم .

لقد أكدت لى هذه التجربة أن التوحد هو الاصل فى الحياة الزوجية ، وان التعدد عارض طارىء ،ليس من مصلحة المسلم أنيتطلع اليه الا عندالضرورات التى يتعذر تحديدها ، ولا تدرك الا بعد حصولها ، لان الزواج ليس مجرد متعة يبدل الرجل وسيلتها كلما حركه الهوى او تيسرت له السبل .. وانما هو تعاون روحى متكامل غايته انشاء الجو الهادىء الودود .. وقد أودع الله فى طبيعة المرأة أسرارا عجيبة منها اعتبارها كل مشاركة فى هذا الجو عدوانا على وجودها كله ، وبدافع من هذا التصميم تجدها مستعدة لان تحيل طاقاتها البناءة الى أدوات تخريب تدمر كل شىء .. عندما تستشعر أى ظاهرة من هذا العدوان ! .. وحسبك بهذا نذيرا بنسف كل عوامل السكينة والمودة والرحمة ، التى لا شىء غيرها صالح لاعطاء الحياة الزوجية معناها الصحيح .. ناهيك بما وراء ذلك من معارك خفية وظاهرة ،

قد تشمل بشرورها القريب والبعيد من أعضاء الاسرة ! .. وهذا هو البلاء الذى دونه كل بلاء .. وكفى بالمؤمن رادعا عن هذه التجربة فى غير ضرورة حكم العليم الخبير باستحالة العدل بين النساء (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) ٤ — ١٢٩ بجانب توجيهه المؤمن الى ايثار الواحدة بمجرد ان يساوره خوف العجز عن تحقيقه : (فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ٤ — ٣) .

واما الثانية فمشكلة التربية التى لا غنى للزوجين عن اتقان اصولها الفعالة فى انشاء الابناء . ولعل أخطر جوانب هذه المشكلة هو فقدان البيت المسلم ضوابط التربية الاسلامية ، ثم قطع المدرسة — فى البلد المسلم — كل صلة لمناهجها بهذه الضوابط ! .. فنحن بيتا ومدرسة ودولة قد نعلم الكثير من نظريات الغربيين فى التربية على اختلاف موازينها ، ونحاول تطبيق كل ما وقفنا عليه منها ، سواء كان حقا أم باطلا ، وسواء أثبتت التجارب نجاحه او اخفاقه .. فى حين لا نكاد نسأل تراثنا التربوى الاسلامى عن أى شىء من ذلك ! .. ولا أذيع سرا اذا قلت اننا سلبنا أزمة التربية حتى لانفسنا فضلا عن بيوتنا ، وقد بلغت المحنة أشدها حين أخفق العلماء أنفسهم — او معظمهم — فى قيادة أهليهم الادنين الى جادة الاسلام ، حتى بات من المألوف جدا أن ترى الداعية الاسلامى يكتب ويخطب ويجهد فى عرض فضائل الاسلام على الناس ، ولكن ما ان تنظر الى سلوك الذين اليه ولايتهم حتى ترى العجب ، لانك ستجد البون شاسعا بين دعوته واسرته ! .. وانا لا أحمل بذلك على هؤلاء الفضلاء فوق ما يستحقون ، لانى أعلم بل أحس عذرهم فى هذا التباين ، الذى هو حصيلة عشرات العوامل الجبرية ، فهم لا يعفون من المسئولية عن بعض هذا التردى فى بيوتهم ، ولكن لا ننسى أنهم لم يعودوا وحدهم القابضين على توجيهها .. بل ليس فى أيديهم من أزمتها الا النزر اليسير ، أما السيطرة العملية عليها ففى أيدى المدرسين ، وحملة الاقلام ، ومؤسسات الاعلام من اذاعة وتلفزة .. وما الى ذلك من عديد المؤثرات ! .. ومعظم المسئولين عن هذه المصادر لا يملكون ذرة من الوعى الاسلامى ، اذا لم نعترف بالواقع المر ، وهو أنهم يعادون كل ما هو اسلامى ! .. حتى انهم ليصبغون المعانى الاسلامية بالالوان الدخيلة ، التى تذهب بكل أثر يتاح لها ان تتركه فى نفوس السامعين والناظرين والقارئين ! .. وبازاء ذلك كله لا يسع المفكر الغيور على أمته الا أن يتساءل فى دهشة لاذعة (كيف وبأى الوسائل يتاح للمسلمين اعادة بناء الاسرة المسلمة والجيل المسلم ، بعد أن أصبحا نهبا مباحا لكل هذه التيارات المدمرة) !

اللهم ان الظلمات لكثيفة ، والمحنة لعظيمة .. ولا مخرج منها الا بخارقة من خوارق قدرتك .. ولا حول ولا قوة الا بك .

(١ و ٣) انظر (الحجاب) للعلامة المودودى و (تاملات فى المرأة والمجتمع) لكاتب هذا البحث .

(٢) من حديث شريف رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها .

(٤) للترمذى عن أبى هريرة مرفوعا

(٥) للشيخين وابن داود والنسائى .

(٦) رواه أحمد عن أنس . وفى أبى داود والنسائى (الامم) مكان (الانبياء)

(٧) مضمون حديث رواه الشيخان — انظر جمع الفوائد رقم ٥٥٩٥

(٨) لمسلم والنسائى



اعداد : الشيخ احمد جلباية

مسجد عبد الله بن بحر

> من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله ، بنى الله له بيتا فى الجنة ..
> (رواه البخارى ومسلم وغيرهما)

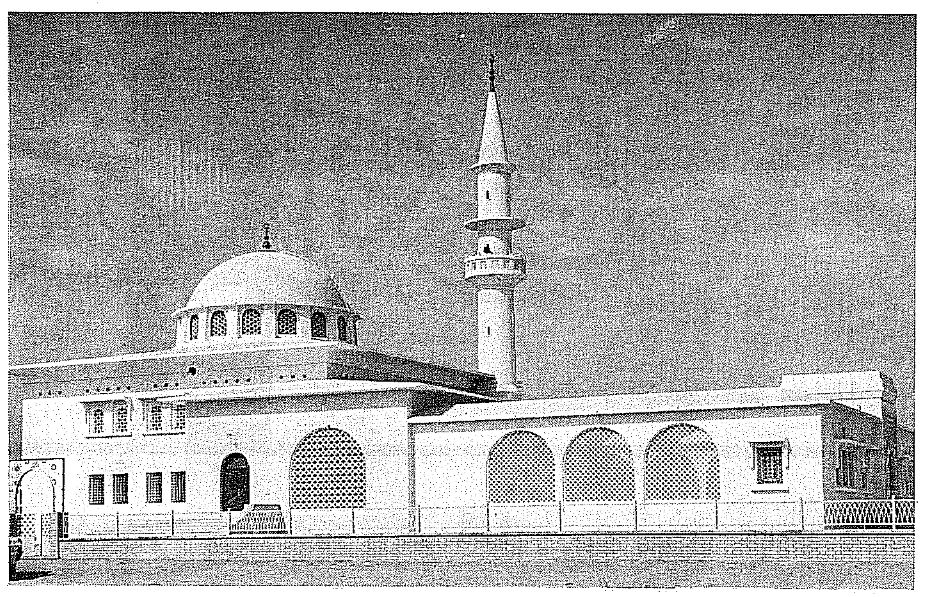
بهذا الهدى النبوى ، وبهذه التوجيهات السديدة ، اتجهت قلوب المحسنين واهل الخير ، الى بناء بيوت الله فى الارض ، لتكون مصدر اشعاع ، ومهبط رحمة ، ومنار علم ، ومبعث حكمة ، ومنبع هداية ، ومجمع خير ..

ولو قل المال ، وضاق الحال ، واشتدت الحاجة ، وكثرت المشاغل ، وانصرف الكثير الى شئون دنياهم .. ترى نفرا من الناس ، لا يشغلهم ما يشغل الناس ، ولا يصرفهم ما يصرف الناس ، انما عملهم البناء ، وغايتهم الله ..

ان المساجد لله ، ولعل الله يختار لعمارتها ، من صفت سريرته ، وكرمت علانيته ، وخلصت نيته ، وملأ الايمان قلبه ..

والايمان متى كان صادقا ، اشاع الحياة فى كل شىء ، والنور فى كل شىء ، وجعل الدنيا فى خدمة الدين ، والمادة فى خدمة الروح ، وجعل كل شىء مسخرا فى طاعة الله ، خالصا لوجهه الكريم « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، واقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، ولم يخش الا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » ..

ومن هذا المنطلق ، كان المحسنون من الناس هم الذين يقومون بمهمة عمارة المساجد ، يدفعهم الى عمارتها ايمان لا يخالطه نفاق ، وحب لله لا يشوبه رياء ، ورجاء فى الهداية ، يرد الناس الى ربهم ، ويذكرهم بلقائه ، ويخوفهم من جبروته ..

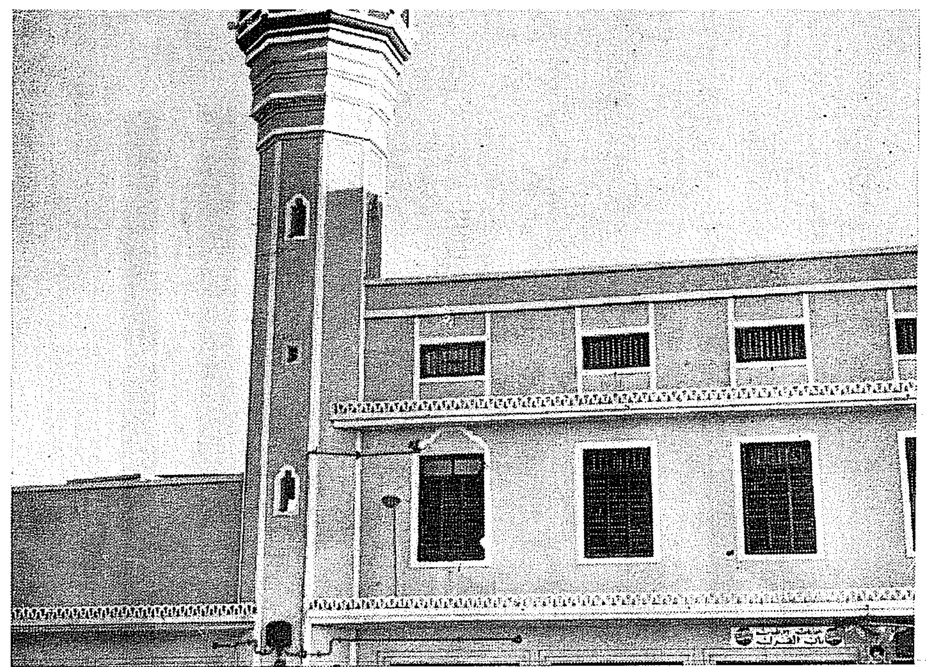


حتى قامت وزارة الاوقاف بالكويت بهذا العمل ، وحملت أعباءه ، وتحملت مسئوليته ، واخذت على عاتقها أن تنشر كلمة الله فى الارض ، وأن ترفع رايته فى السماء ..

ومسجدنا هـــذا كان يسمى من قبل « مسجد ابن ابراهيم » على الفرضة سابقا (١) او مسجد الابراهيم ، ويعتبر الاول من ثلاثة من أقـــدم مساجد الكويت .. أسسه ابن ابراهيم عام ١١٧٩ هـ . وجددت بناءه دائرة الاوقاف العـــامة بتاريخ ١٣٧٦/٣/٢٢ هـ الموافق ١٩٥٦/١٠/٢٧ م . وقد بلغت تكاليفه آنذاك ٢٠٨٠٠٠ روبية ..

ولما كانت هذه المنطقة عامرة بالمساجد ، وقد اقترب بعضها من بعض دون حاجة ، رات وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية نقل هذا المسجد الى منطقة أخرى ليس فيها مسجد ، فكان من نصيب منطقة ميدان حولى ، وهى منطقة جديدة تقع بين أحياء : السالمية والرميثية وحولى التى يوجد بها كثير من المساجد ، ولكنها بلا شـــك بعيدة عن سكان ميدان حولى ، الذين يلاقون على ظمـــأ ..

ولقد اقامته الوزارة على نفقتها فى عـــام ١٣٨٧ هـ الموافق ١٩٦٧ م . ووفـــاء منهـــا لمؤسسه الاول ، وتقديرا لمـــا قام به من جهود فى بنـــائه من قبل ، وفى امامته للناس فى الصلاة ، وتخليدا للمحسنين العاملين ، جعلت هذا المسجد الجديد يحمل اسمه فأطلقت عليه : مسجد عبد الله بن بحـــر . وهو غير مسجد محمد عبد الرحمن البحر الموجود حاليا فى شارع عبد الله السالم ..



والمسجد على بساطته تحيط به المهابة . وتبدو عليه العظمة وقد أقيم على ربوة مرتفعة بعض الشىء ، وسط المبانى الحديثة ، والفيلات الرائعة ، وحوله فضاء واسع من جيمع الجهات ، يجعل المسجد وسطه يبدو وكأنه درة بيضاء ..

وللمسجد حرم كبير يحيط به ، غطيت أرضه المؤدية الى أبوابه الخارجية بالبلاط الكبير ، والمصلون اذا اشتد بهم الحر فى الصيف يصلون فى هذا الحرم .. وعندما تدخل المسجد من أحد ابوابه الثلاثة تجد نفسك فى فناء لا تقل مساحته عن مساحة المسجد ، وبعضه مسقوف والبعض الآخر غير مسقوف ، ليتمكن المصلون من أداء الصلاة به فى جميع فصول السنة .. وفى الجهة الشرقية من الفناء ، أقيمت على جانب منه حجرتان ودورة مياه للمؤذن والخادم ، وعلى الجانب الآخر دورة مياه عامة ..

وللمسجد من الداخل ثلاثة أبواب زجاجية سميكة متجاورة . ويكاد يكون مربع الشكل ، له قبة كبيرة ترتكز على أعمدة أربعة ضخمة مضلعة من الاسمنت المسلح ..

وواجهة القبلة من الرخام الابيض الجميل ، وفيها شرفتان عن يمين المحراب ويساره ، تقوم اليمنى منهما مقام المنبر ، يقف فيها الخطيب يوم الجمعة .. وبه كذلك مكتبة فيها كثير من المراجع الاسلامية فى التفسير والحديث والفقه والسيرة وجميع المعارف الاسلامية ، وهى مفتوحة للمصلين فى أوقات الصلاة ، فيها زاد لمن اراد الاستزادة ، وفائدة لمن أراد الافادة . وعلى جانبى المحراب والشرفتين ساعتان أنيقتان ، احداهما تشير الى الزمن الغروبى ، والاخرى تشير الى الزمن الزوالى .. وتتدلى من القبة ثريا جميلة تضفى على المسجد روعة وجمالا ، والمئذنة عالية شامخة تظهر من بعيد بمكبرات الصوت التى يسمعها سكان المناطق الاخرى ..



للأستاذ احمد محمد جمال

في الحضارة الغربية المعاصرة .. « امسى البيت فندقا ، والحياة الزوجية متاعا جنسيا ، والنساء ـــ زهرات المجتمع ، ربات البيـــوت ، الأمهات ـــ تحولن الى عاملات كادحات .. يمارسن كل عمل ، انهن جزارات ، حمالات ، بائعات تذاكر ، حلاقات ، وكانسات طرق وأسواق ـــ قالت لي احداهن : حذار أن تظن المرأة في مجتمعكم الشرقي أن عملها في كـــافة المجالات تقدير لها واكرام .. انه امتهان لكرامتها ، وحط من مكانتهـــا . فنحن النساء الغربيات لم يعد في امكاننا أن نتمتع بأنوثتنا ، فقد اضـــعناها في عملنا المرهق ، ولا بأمومتنا ، فلا وقت لدينا لحنان الامومة وسعادتها .. ولا بحياة عائلية سعيدة ، لان المفاهيم تغيرت ، لم يعد الرجل هنا يطيـــق ان يرى امرأته أو قريبته لا تعمل .. ان عليها أن تعمل لتكسب قوتهـــا ، وتنفق على نفسها ، انها حياة قاسية ، لا رحمة فيها ولا مودة ، انها نوع من الجحيم الدنيوي » (١) .

وفي الحضارة الغربية المعاصرة ايضا : « تترك الامهات اطفالهن لدور الحضانة ، حتى ينصرفن لأعمالهن او مطامعهن الاجتماعية او مباذلهن او هوايتهن الأدبية والفنية ، او ارتياد دور السينما — وهكذا يضمن أوقاتهن في الكسل .. انهن مسؤولات عن اختفاء وحدة الاسرة ، واجتماعاتها التي يتصل الطفل فيها بالكبار ، فيتعلم منهم امورا كثيرة .. لان الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي والعقلي والعاطفي طبقا للقوالب الموجودة في محيطه ، فهو لا يتعلم من الاطفال الذين في مثل سنه الا قليلا .. وحين يكون مجرد وحدة في المدرسة فانه يظل غير مكتمل . وهكذا نرى أن المجتمع العصري قد ارتكب غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة ورعايتها بالمدرسة استبدالا تاما .. » (٢)

* * *

يكفي ما نقلناه آنفا عن (الأسرة) في الحضارة الغربية المعاصرة . للمقارنة بينها وبين الاسرة كما ارادها الاسلام نشأة ومكانة وآدابا ، وهو ما نوجز الحديث عنه فيما يأتي :

ان اول فكرة — عن الاسرة — يلهمها القرآن الكريم للرجل المسلم هي قوله عز وجل : « ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم أزواجا ، لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة .. » (٣)

فالسكن والمودة والرحمة : هي ما ينشده كل من الرجل والمرأة في رفيقه ، بدافع من الطبيعة الداعية الهادية التي فطرا عليها ، ولن يهدأ لأحدهما بال ، ولن يستقر حال حتى يلتقي بالآخر .. يسكن اليه ، ويواده ويرحمه ، ويقاسمه أطايب الحياة ومتاعبها . وصدق الله الذي هو اعلم بما خلق وبمن خلق اذ يقول : « علم الله انكم ستذكرونهن » (٤) اي أن بال الرجال لا يخلو من ذكر النساء والشوق اليهن ، وكذلك بال النساء لا يخلو من ذكر الرجال والشوق اليهم !

ان الرجل والمرأة — بالفطرة التي فطرا عليها — ملتقيان من بدء الخليقة ، وانما جاءت الاديان لتنظيم هذا الالتقاء ، ليكون شركة متعادلة متعاونة بينهما .. فيها حقوق يجب أن ترعى ، وواجبات ينبغي أن تؤدى ، ولها ثمار وآثار يجب أن تصان .

ذلك ان هذا الالتقاء الفطري بين الرجل والأنثى ، الذي جاءت الاديان فنظمته وسمته : (زواجا) هو نواة لشيء آخر نظمته الاديان أيضا وسمته (الاسرة) . والاسرة هي الاخرى نواة لشيء اكبر نظمته الاديان وسمته (المجتمع) .

وقد قيل في الاسرة : انها الامة الصغيرة ، وانها مدرسة النوع الانساني .. التي تعلم فيها الانسان افضل أخلاقه الاجتماعية : وهي الغيرة ، والعزة ، والوفاء ، ورعاية الحرمات ، كما قيل : انه لا بقاء لما اكتسبه الانسان من فضائل المروءة والايثار .. اذا هجر الاسرة ، وأهمل روابطها ، وعطل مسؤولياتها .

وقيل في الاسرة — كذلك — : ان الرجل اذا عاش في حرمها المقدس، وغرامها المباح ، والتزامها المعذب — كان شجاعا في كده وسعيه وانتاجه وتحصيله ، ومقداما في الطموح الى مزيد من التفوق والنجاح ، من اجل اسعاد زوجته وأولاده ، حيا وبعد أن يموت .

الأسرة كما يريدها الاسلام

تلك كلمة عامة عن الزواج وعن الاسرة ، كما تريدهما سنن الفطرة ونواميس الخليقة . أما الاسلام كشريعة ، فحديثه عن الزواج أو الاسرة معجب مطرب لم يسبقه اليه ولم يلحق به دين قديم ، ولا حضارة حديثة .

فالزواج — في منهاج الاسلام — استقرار وسكن ، وشعور بالمسؤولية وارواء لغريزة الابوة والامومة ، وللرغبات الجنسية أيضا . ولذلك كان حث الاسلام على الزواج ، وأمره بتيسيره — من جهة — ومنعه أولياء النسوة الراغبات فيه : ان يعضلوهن من جهة ثانية ، وأباحته تعدد الزوجات من جهة ثالثة ، ثم اباحته للطلاق بين زوجين متنافرين ليجد كل منهما رفيقا آخر يرضى عنه — من جهة رابعة — وشرع آدابا للاسرة تحميها من العبث والفساد والتمزق من جهة خامسة . والغاية التى يرمى اليها الاسلام ، من وراء ذلك كله : هى أن يستقر الرجال والنساء فى أسر متعاطفة متعاونة ، فيستقر بذلك المجتمع كله بعيدا عن فوضى الغرائز ، وعبث الشهوات ، آمنا من تشرد الاطفال ، وتهدم البيوت .

والزواج — فى نظر الاسلام — مع ما سبق : رباط مقدس ، وعقد بين الزوجين محترم ، يلتزم كل طرف منهما فيه بواجب شريف نحو الآخر . وحتى يكون هذا الرباط الزوجى الوثيق بعيدا عن الظنون والفتن ، لا تحوم حوله شبهة فى صهر ، ولا تهمة فى نسب ، ولئلا تكون المرأة — من ناحية أخرى — فى مقتضى هذا العقدالزوجى مجرد وسيلة للاستمتاع الجنسى وحده .. جاء التوجيه النبوى : (أعلنوا هذا الزواج ، واجعلوه فى المساجد) وذلك ليعلم الناس — عيانا او سماعا — أن فلانة زوجة لفلان ، وليعلموا كذلك ما نسل منهما من أولاد وأحفاد .

وجاءت — أيضا — الاحكام والشروط الاسلامية لصحة الزواج ، التى تكفل سلامته ابتداء ، وامانته انتهاء ، واستقراره بين ذلك : من ذلك — مثلا لا حصرا — :

● خلو المرأة من موانع عديدة مؤبدة ومؤقتة .. كحرمة الزواج بالامهات وان علون ، والبنات وان نزلن ، وبالاخوات والعمات والخالات ، وبنات الاخ وبنات الاخت . وحرمة الجمع بين الاختين ، ونكاح امرأة الأب وزوجة الابن . وقد شمل التحريم القريبات من الارضاع مثل اولائك القريبات من النسب على سواء .

● كما حرم الاسلام — مؤقتا — نكاح الحامل حتى تضع ، والمعترة حتى تستبرىء .

● واشترط الاسلام لصحة الزواج : ان يعرض ولى المرأة زواجها على خاطبها قولا ، وان يقبلها الزوج قولا كذلك ، وان يشهد على العقد شاهدان .

● وأقر الاسلام رضا المرأة واذنها ، فلا تكره على زوج لا تريده لكبر سنه او سوء خلقه — كما أقر ما قد يشترطه الزوجان أحدهما فى الآخر من تكافىء أو تقارب فى العلم والنسب والدين والحرية والصلاح والمال والعمر . وذلك ليقوم الزواج بينهما ، وتنشأ الاسرة منهما : على أساس قوى من الرضاء والصفاء .

● كما اباح الاسلام للمراة ــ باعتبارها فى المفهوم العام تابعـــة للرجل ، وهو قوام عليها ــ ان تشترط فى عقد الزوجية اذا شاءت : الا ينقلها من بلدها ، أو لا يتزوج عليها بأخرى ، أو تكون عصمتها بيدها .. وغير ذلك من اشتراطات لا تتعارض ومقاصد الزواج . فاذا نكث الزوج عما عاهد عليه الزوجة كان لها الخيار بين ان تفسخ نكاحها منه او تبقى معه (٥) .

● واوجب الاسلام على الرجل الانفاق على زوجته واولاده ، مهمـــا كانت الزوجة غنية ، وكان هو فقيرا او مريضا او لا اربة له فيها . ومن حق الزوجة ان تشترط سكنا خاصا منفردا عن اهل زوجهـــا أو زوجـــاته الاخــــريات .

* * *

● ولمـــا كانت (الاسرة) لا تعنى الزوجين واولادهما فحسب بـــل تشـــمل الآباء والأمهات والاجداد والاحفاد والأقرباء الآخرين ، فقد شرع الاسلام (للنفقات) نظاما فريدا فى احكامه والزامه بحيث يشعر ســـيد الاسرة بمسؤوليته تجاه اعضاء اسرته ، كما يشعرون هم ــ فى ظله ــ بأنهم فى مأمن من الاحتياج والضياع .

ان الاسلام يريد وئام (الاسرة) وامتدادها .. لذلك اكد واجب البر بالآباء والامهات ، على أولادهم بنين وبنات ، تأكيدا جعله قرينا للايمان بالله وتوحيد عبادته : « قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم : الا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا (٦) » وقوله سبحانه « وقضى ربك : الا تعبدوا الا اياه ، وبالوالدين احسانا » (٧) .

وزيادة فى تقوية روابط الاسرة يعتبر الاسلام الاجداد والجدات بمنزلة الآباء والامهات ، من حيث الرعاية والانفاق . وحتى اذا افتقد (المحتاج) من ينفق عليه من أب وان عـــلا او ابن وان نـــزل ، فان اخوته مطالبون ــ فى التشريع الاسلامى للاسرة ــ بأن يسدوا خلته ، ويصونوا كرامته ، ويكفوا وجهه عن مذلة السؤال .

ولا يفوتنا ــ هنـــا ــ ان الامم غير الاسلامية ، لافتقارها الى مثل التشريع الاسلامى الانسانى .. تجعل فى عامها يوما تسميه (يوم الام) لتذكر الابنـــاء من ذكور واناث بفضل أمهاتهم عليهم ، وتستهديهم لهن العطايا والهدايا ، دون الآباء فان فضلهم عند هذه الامم غير مذكور . أما الاسلام فانه بتشريعه الحكيم الرحيم يدعو المسلم كل يوم الى بر ابيه وامه معا ، ويذكره دائما بمتاعبهما فى حمله ورضاعه ، وتربيته والانفاق عليه : « اما يبلغن عندك الكبر أحدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جنـــاح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » (٨) .

والانفاق على الاولاد ــ اطعاما وكساء وايواء وتعليما حتى يكتسبوا ــ امر مقرر طبعا ومسن شرعا ، شأنه فى طبيعته وشرعيته شأن الانفاق على الآباء والامهات . والوصايا فى القرآن والسنة النبوية ــ علاوة على ذلك ــ كثيرة تفجر أقسى الافئدة : عطفا وبرا بالوالدين .

* * *

الاسرة فى التوجيه القرآنى

اهتم القرآن الكريم (بالاسرة) نشأة ومكانة واثرا — اهتماما كبيرا ، وسوف نكتفى بذكر الآيات دون شرح لها او تعليق عليها ، لان مجال الحديث هنا عن الاسرة لا يتسع لهذا التفصيل ، ولان الآيات ذاتها واضحة لفظا ومعنى — يقول الله عز وجل :

« يا أيها النـــاس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء .. »

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسـكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة .. »

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم .. »

« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة .. »

« ووصينا الانسان بوالديه احسانا .. »

« .. فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما .. »

« واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا .. »

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل .. »

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة »

« .. وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف .. »

« وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شـــيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .. »

« يا أيها الذين آمنوا ليستئذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صـــلاة الفجر وحين تضـــعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء .. ثلاث عورات لكم .. »

وغير ذلك من توجيهات قرآنية تعرضت لشؤون الاسرة من إرث ووصية وطلاق وارتجاع ، وغض للأبصار وحفظ للفروج ، وعدم ابداء زينة النساء الا لمحارمهن ، وكل ذلك لوقاية الاسرة من التصدع والانهيار .

الاسرة فى التوجيه النبوى

ونذكر الآن — بايجاز — الاهتمام النبوى بنشأة الاسرة المسلمة ، وحمايتها من التمزق ، لان فى صلاح الازواج صلاح ذريتهم ، وبالتالى : صلاح المجتمع كله .

يقول صلى الله عليه وسلم :

« تزوجوا الولود الودود ، فانى مكاثر بكم الامم يوم القيامة »

— تنكح المرأة لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »

« لأمة سوداء ذات دين أفضل »

« أنظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما » (٩)

« ان أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج »

« خياركم خياركم لأهله .. »
« من أفسد امرأة على زوجها فليس منا » .
« بروا آباءكم تبركم أبناؤكم » .
« لعن الله من استعق ولده » .

آداب الاسرة فى الاسلام

وتأكيدا لقولنا آنفا : ان الاسرة كيان اجتماعى يراد له الامتداد والسعة والخلود نثبت هنـا بعض (الآداب) التى أدب بها الاسلام كلا من الرجل والمرأة فى نطاق الزوجية المقدس ، ليبقى ظل البيت عليهما باردا كريما ، وليبقى حماه مصونا ، وبنيانه غير منهار :

(١) على الوالدين — أى الزوجين — فى منهاج الاسرة الاسلامى : ان يتشاوروا ويتراضيا فى امور أطفالهما رضاعا وتأديبا ..

(٢) على الزوج الا يتيح لزوجته الفرص لمجالسة غير المحارم من أهله واهلها ، منعا للافتتان والافساد . فقد أثمر الاختلاط المحرم بين الاسر ، وما يجرى فيه من تكشف نسائها على رجالها ، وتبادل الاسماء وأحاديث اللهو بينهم وبينهن — اثمر حب امرأة لغير زوجها ، واعجاب رجل بغـير زوجته ، ثم اغراء بالطلاق ، ووعد بالزواج .. على أنقاض بيوت تنهدم ، وأطفال يشردون !

(٣) وضع الاسلام سياجا بين الزوجين — فى فترات الاختـلاء ونزع الرداء — وبين الذين يعيشون معهما من أولاد وخدم وأتبـاع ، لئلا يطلعوا على ما بينهما من عورات وأسرار قد تغرى بالفتنة والعبث بين خادم بمخدومته ، أو بين مخدوم بخادمته .

(٤) منع الاسلام أن تتزين المرأة وتتعطر لغير زوجها ، ووصـف الحديث النبوى المرأة التى تتعطر ليجد الناس ريحها بأنها (زانية) .

(٥) ووجه الاسلام الرجل اذا أعجبه شىء من امرأة أجنبية : أن يفزع الى أهله « فان معها مثل الذى معها » !

(٥) ولكى تتوثق الاواصر بين الاسر المتقاربة والمتزاوجة — أوصى الاسلام بصلة الرحم تزاورا وتعاطفا وتصدقا وبرا .

(٦) كما منع الاسلام المرأة من أن تأذن لاحد فى بيت زوجها ، وهو كاره . والا تخرج وهو كاره.والا يتحدث احدهما الى الناس بسر صاحبه .

(٧) وبالنسبة للآباء والابناء وجه الحديث النبوى — كما وجـه القرآن من قبل — الى وجوب طاعة الابناء والبنات ، لآبائهم وامهاتهم ، وبرهم لهم ، واحسانهم اليهم ، كما أوصى الآباء والامهات —من جهة اخرى— برحمة أولادهم ، والاهتمام بتربيتهم وتعليمهم ، وتنشئتهم على الدين القويم : (ما نحل والد ولده نحلة أفضل من أدب حسن) .

اخطاء فى الاسرة المسلمة

ونختم هذه الدراسة القصيرة عن الاسرة باشارة موجزة الى بعض (الاخطاء) التى تسربت الى بيوتنا الاسلامية ، رجاء فى التنبه لها وتصحيحها

لتعود أسرنا وبيوتنا اسلامية حقـا :

● اكراه الآباء لبناتهم على التزوج بمن يكرهن . وقد منع الاسلام ذلك كما جاء فى حديث الفتاة التى شكت الى الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع لى خسيسته وانا كارهة » فأحضر الرسول أباها وجعل الامر اليها . ولكن الفتاة كانت ذكية رضية فقالت : (يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبى . ولكنى أردت أن يعلم الناس أن ليس للآباء من الامر شىء) .

● اهمال الامهات لارضاع أولادهن من ثديهن ، والاعتماد على التغذية الصناعية — أو تسليمهم الى المحاضن العـامة والمربيات الاجنبيات ، مما أوهن علائق الاسرة ، وأضعف ارتباط الابناء بآبائهم وامهاتهم ، كما اعترف بذلك علماء التربية والباحثون فى شؤون النساء والاطفال (١٠) .

● ومن المفاسد التى طرأت على الاسرة المسلمة : ظاهرة الاختـلاط بين الجنسين ، بدعوى ان ذلك من أجل ايجاد تفاهم وتعارف بينهما خطبة وزواج — وهو فى الواقع كما تشهد حضارة الغرب : فتنة وفساد كبير . وقد اعترفت بذلك صحف امريكا ومجلاتها (١١) .

● اتخاذ (المرأة) لصاقة ذباب .. بنشر صورها العارية الكاسية مجلبة لانظار الجماهير وأفكارهم ، وذلك فى الاعلانات التجـارية التى تخصها والتى لا تخصها على سواء فأنت تراها فى اعـلانات الساعات والسيارات — والادوية — والاشربة — والسجائر — ومعاجين الاسنان — والثلاجات — والدراجات الخ . ومع ذلك يزعم (النسائيون) أنهم يطالبون بحرية المرأة وكرامتها ومساواتها بالرجل زورا وبهتانا ، وهم يهينونها ويجعلونها (لصاقة ذباب) ومجلبة زبائن ، ووسيلة تكسب وارتزاق !!

❋ ❋ ❋

وبعد .. فهذا موجز عن (الاسرة) كما يريدها الاسلام ، لا كما أرادتها الحضارة الغربية المعاصرة . والموضوع مهم ويتسع لبحث طويل ، بل لكتاب كامل ، ولكن ما اثبتناه يكفى للعظة والاعتبار ، وللافتخار ايضا .. لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

---

(١) الدكتور محمد طه الجاسر / مجلة (المسلمون) / ١٣٨٢ هـ

(٢) أليكسس كاريل / فى كتابه « الانسان ذلك المجهول »

(٣) الآية ٢١ من سورة الروم

(٤) الآية ٢٣٥ من سورة البقرة

(٥) فى التوجيه النبوى : (المؤمنون عند شروطهم الا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا) ولان أحق الشروط أن توفوابه ما استحللتم به الفروج)

(٦) الآية ١٥١ من سورة الانعام

(٧) الآية ٢٣ من سورة الاسراء

(٨) الآيتان ٢٣ و ٢٤ من سورة الاسراء

(٩) من قوله صلى الله عليه وسلم للمغيرة بن شعبة عندما خطب فتاة ولم ينظر اليها .

(١٠) عن كتاب (اطفال بلا اسر) لمؤلفة اوروبية

(١١) نيويورك هيرالد تريبون / ١٩٦٢



للاستاذ : محمد همام الهاشمى

تقديـــم :

من الحقائق الثابتة التى لا تحتاج الى مزيد من التأكيد أن الأسرة هي النواة والخلية الاساسية فى المجتمع الانسانى . وذلك ما تثبته التجربة التاريخية . فما من مجتمع انسانىاستطاع أن يستغنى عن هذا التنظيم الاجتماعى الـــذى ينظم العلاقة بين الرجل والمرأة ، ويسمح لهذه العلاقة المشروعة أن تؤتى ثمارها ذرية تتجدد بها حياة المجتمع ، ويتوارث أعضاؤها حضارته جيلا بعد جيـــل ، ذلك أن وظيفة الأسرة لا تقتصر على مجرد اشباع الاحتياجـــات الجنسية والعاطفيـــة للزوجين ، ولكنها الى جانب ذلك تنشىء وتربى وتحتضن النشء وترعاه وتؤصل فيه من القيم والمثل ما يحفظ على المجتمع استمراره وتطوره ، كل ذلـــك عـــن طواطية تصدر عن الفطرة .. فطرة الله التى فطر الناس عليها إعمارا للكـــون

واستمرارا للجنس البشرى . ولو لم تكن الروابط الأسرية صادرة عن الفطرة الكامنة فى الطبيعة البشرية لاستطاعت المحاولات المتكررة من — تربوية وثورية — على مر التاريخ ان تقضى عليها . فقد نشأ من النظم السياسية منذ القدم ما حاول استقطاب ولاء الفرد للدولة عن طريق إبعاده عن الانتماء الى أى ولاء آخر ... ومن ثم فلم يكن للاسرة دور فى جمهورية أفلاطون .. وخصوصا بين الطبقة العليا المختارة والمهيأة لقيادة المجتمع .. وهذا هو موقف الرفض الكامل لمفهوم الأسرة الذى يعتمد على خصوصية العلاقة بين زوج وزوجة وأولادهما .. وعلى مر التاريخ حاولت بعض الفلسفات والنظم السياسية أن تجتذب الولاء من نطاق العلاقات الأسرية كالمزدكية فى القديم والنازية والشيوعية فى التاريخ الحديث .. وهكذا أثبت التاريخ أن كل فلسفة تعتبر أن الولاء المطلق للدولة ذو أهمية خاصة كانت تقلل من شأن الأسرة بأن تضعف من الرباط الوثيق الخاص الذى يربط أفرادها ببعضهم البعض .

والعجيب أنه ما أن تخف حدة الضغوط المذهبية أو السياسية حتى تعود العلاقات الأسرية الى سابق عهدها ، مع ما تخلفه هذه الضغوط عادة من صعوبات ومشكلات يعانى منها النشء الذى تربى فى ظل هذا الانفصال من اختلال عاطفى وتحجر فى الأحاسيس والمشاعر .

ومن هنا كان القول بأن دور الأسرة ووظيفتها بالنسبة لأعضائها وبالنسبة للمجتمع يزيد أضعافا مضاعفة عن دور ووظيفة أى عضو من أعضائها منفردا .
من أجل ذلك اجمع علماء الاجتماع على أن الأسرة هى اهم النظم الاجتماعية بل هى قاعدة كل النظم الاجتماعية الأخرى .. وعلى هذا الاساس كان النظر الى العلاقة الوثيقة بين الأسرة والمجتمع من حيث تأثر كل منهما بما يصيب الآخر من تغير أو تحول — نتيجة لظروف وأوضاع أيهما أو كليهما .. واصبح هذا المقياس من وسائل تحليل الظواهر والمشكلات الاجتماعية فى المجتمع .

ولعل أوضح دليل على ذلك ما نستمع اليه ونقراه من صيحات التحذير التى ترتفع بين آن وآخر من الباحثين والاخصائيين الاجتماعيين والنفسيين فى المجتمعات الغربية — تحذر وتنذر وتوجه الانظار الى خطورة ما اصاب الأسرة الغربية من تفكك يهدد بالقضاء على المجتمع بأسره .. وقد تعدت هذه الصيحات نطاق البحوث والكتب والدوريات المتخصصة الى المجلات العامة . فقد صدر مثلا عدد خاص من مجلة تايم الأمريكية فى ٢٨ ديسمبر ١٩٧٠ وهى تحمل على غلافها صورة رجل وامرأة وأولادهما وكتب تحتها بعنوان بارز — الأسرة الامريكية .. الى أين ؟

لقد جندت المجلة لبحث موضوع الأسرة الامريكية أكفأ باحثيها وخصصت هذا العدد من المجلة لدراسة هذا الموضوع .. تقول المجلة : إن الأسرة الامريكية غارقة فى شتى ضروب المشاكل الاجتماعية بما أصبح يهدد مستقبل الأمة الأمريكية بأسرها وأوردت المجلة أن هذا التقييم الخطير هو حصيلة ما انتهت اليه دراسات وبحوث أربعة آلاف من المتخصصين فى شئون الأسرة والطفولة الذين اجتمعوا مؤخرا فى البيت الأبيض . وذكرت المجلة أن من أهم التوصيات التى انتهى اليها هذا المؤتمر بناء على الأبحاث والدراسات التى نوقشت خلال اجتماعاتهم هو مناشدة الرئيس الأمريكى اقامة معهد يسمى « المعهد الوطنى لشئون الأسرة »

يعمل من خلاله المربون والاجتماعيون والنفسيون على تلافي اسباب التدهـــور السريع الذى تنحدر اليه الأسرة الأمريكية .

وفي هذا العدد من مجلة تايم الأمريكية تتساءل مرجريت ميد في عجب .. وهى من أشهر علماء الانتروبولوجيا في العالم المعاصر : هل تبقى الأسرة كوحدة اجتماعية بعد كل ما أصابها من انحلال ؟ ويرد عليها ريتشارد فارسون بغير تردد، مؤكدا بأنه لم تعد للأسرة الآن وظيفة ولم تعد بالضرورة الوحدة الاساسية فـى المجتمع ويحذر بول يوبينو مؤسس المعهد الأمريكى للعلاقات الأسرية بأن تحلـل الأسرة ينتهى الى تحلل المجتمع بأسره . ويضيف غيره في نفس عدد المجلة بأن هذا هو ما حدث بالفعل في أثينا في القرن الذى أعقب الحرب البولونيزية ، وفي روما في منتصف القرن الثانى بعد الميلاد .

ومن العجيب — كما يذكر فريدمان في كتابه عن القانون والمجتمع — أنـه بالرغم مما يصدر عن الدراسات الاجتماعية والنفسية من صيحات التحذير في المجتمع الغربى — وما تطالب به الدراسات من اعادة النظر في جميع السياسات والنظم التى أوصلت الأسرة والشباب الى ما انحدرت اليه ، وما توصى بـه مـن وسائل تعمل على اعادة التماسك والتراحم والتكافل والتعاون بين أفراد الأسرة وأجيالها وبينها وبين مؤسسات ونظم المجتمعات الغربية عن طريق مساعدتها في مواجهة مشكلاتها المزمنة والطارئة .

تقول أنه من العجيب انه بالرغم من كل ذلك — فان الأسرة الشرقية عامة والغربية على وجه الخصوص تتهافت على تقليد الانماط الحضارية للأسرة الغربية — وتفسير ذلك عند فريدمان أن هذه الانماط تكتسب شعبية في البلاد الشرقيـة نتيجة لما ران عليها من جمود خلال قرون عدة جعلتهـا تحاول أن تتمثـل انماط الحضارة الغربية بعد أن كيفت الأسرة حياتها مع المستويات والمفاهيم الغربية .

لا نريد من ذلك أن نتشفى فيما تواجهه الأسرة الغربية من شقاء وما يشعر الفرد في نطاقها من ضياع — وخاصة ما يتصل بالجيل الجديد — ولكننا نريد أن نستفيد العبرة من تجربة تطبيق هذه المبادىء والافكار التى نتطلع الى تقليدها حتى لا ننزلق — تدريجيا الى ما وصلوا اليه — وأن نراجع مفاهيمنـا وسياساتنـا الاجتماعية على ضوء ما تؤدى اليه من آثار ونتائج تهدد نظاما اجتماعيا هو أقدس وأهم النظم التى تقوم عليها أركان مجتمعنا ودعائمه .

الأسرة والمشكلات الاجتماعية :

وحتى تتضح الصورة المتشابكة للعلاقة الوثيقة بين الاسرة والمشـــكلات الاجتماعية في المجتمع علينا أن نوضح الاهمية الاستراتيجية للاسرة من حيث انها هى التى تقدم للمجتمع لبناته التى تحمل بناءه بالقوة والاحتمال الذى يحتاجه هذا البناء .. فهى تحيط بالفرد طوال حياته ، وهى القـــادرة على توفير الافـراد المسلحين بالمعرفة وبعادات وتقاليد المجتمع ووسائل التعامل والتفاعل في حياته بالقدر الملائم لتوافقهم الاجتماعى والنفسى .. والاسرة لا تستطيع أن تقـوم بهذا الدور الا بتدعيم المجتمع وتشجيعه باعتباره النظام الاجتماعى الكبير الذى يتلقى ما تقدمه الأسرة وبالتالى يغذى خلاياه الصغيرة .. ومن ثم فيجب أن يكون النظر

الى الأسرة باعتبارها الوسيط بين المجتمع والافراد .. وكلما كان الوسيط موصلا جيدا للحرارة ــ كان التوافق والانسجام افضل بينهما .. واذا فهى تسهم فى خلق المشكلات الاجتماعية ــ كما تسهم فى علاجها والتغلب عليها .. وهنا نجد انفسنا أمام نظريتين مختلفتين .. احداهما تقول ان الاسر المريضة تسهم بنسبة اكبر من حجمها العددي فى المشكلات الاجتماعية فى المجتمع ــ ابتداء من الطلاق وادمان أرباب الاسر أو أعضائها للمسكرات والقمار أو المخدرات الى غير ذلك من الانحرافات التى تصيب بعض الافراد بما يسبب مشاكل البغاء والجريمة وحتى حوادث المرور ، مرورا بالسرقة والغش والتزوير وغيرها ..

أما النظرية الأخرى فتتهم هذه النظرة بأنها تحاول أن تصرف أنظارنا عن الاسباب الحقيقية لهذه المشكلات ، وهى الظروف والاوضاع والنظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة فى المجتمع ــ والتى تؤثر بدورها على الأسرة وأفرادها بما يعتبر المنابع الحقيقية لهذه المشكلات ..

واذن فنحن أمام نظريتين : الاولى تعتبر الاسرة مسئولة عن المشكلات الاجتماعية .. **والثانية** تعتبر المجتمع مسئولا عما يصيب الاسرة من مشكلات تمنعها أو تعوقها من أداء وظيفتها لخدمة المجتمع .. والحقيقة أنه لا تناقض حقيقى بين النظريتين لأن كلا منها تكمل الأخرى .. اذ يستحيل الفصل بين الأسرة والمجال الاجتماعى الذى تزاول حياتها فى نطاقه .. وهو بلا شك ذو تأثير بالغ على ما يصيب الأسرة من مشكلات تنعكس بدورها على المشكلات الاجتماعية فى المجتمع ..

وتفصيل ذلك أن المشكلات الاجتماعية تجد منابعها من محصلة التفاعل بين نظم اجتماعية تفرض أنماطا سلوكية معينة .. وبين الافراد والجماعات فى المجتمع ... ومن ثم فمن الطبيعى أن تختلف هذه المشكلات ــ حجما وطابعا ومدى ــ من مكان الى مكان ، ومن زمان الى زمان بتأثير اختلاف الظروف المتداخلة فى أحداث المشكلة .

ومع ذلك ــ فالمجتمع الانسانى والافراد فى كل المجتمعات تجمعهم روابط انسانية معينة ــ فالسلوك الانسانى فى كل مكان يتشابه فى بعض معالمه الاساسية نتيجة لتوحد السمات البيولوجية للانسان أينما كان .. وهذه السمات البيولوجية تتضمن الدوافع والتوترات التى يستشعرها الانسان فى أى مجتمع .. ويؤدى منع الانسان من اشباع الحد الادنى منها الى تهديد استمرار الحياة الانسانية .. ومن ثم كان على هذه السمات البيولوجية ان تجد تنظيمات وترتيبات معينة من جانب الجماعة تستطيع أن تواجه هذه الدوافع والتوترات البيولوجية وتمدها بحد أدنى من الاشباع ــ ضمانا لاستمرار الوجود الانسانى ــ فكان قيام نظام الأسرة فى كل المجتمعات الانسانية لاشباع دوافع الفرد فى العلاقة الجنسية ، والمشاركة الوجدانية ، وتحقيق استمرار الذات عن طريق الانجاب .. كما كانت حاجة المجتمع الى قيام نظام الامن الذى يطمئن الفرد على ماله وعرضه ليستطيع أن يتفرغ لعمله ــ خدمة لاهدافه ولاستمرار المجتمع .. وهكذا فى كل النظم الاجتماعية التى تعتبر ضرورة لاستمرار بقاء أى مجتمع انسانى ــ والتى نجدها بشكل أو بآخر فى كل مجتمع .. لأنها جهود موجهة لاشباع التوترات والدوافع البيولوجية التى يستشعرها الانسان أينما كان .. مع أن هذه النظم

شاملة للمجتمعات جميعا ، الا أنها تنطوى على عادات وتقاليد وقيم تنظم عمليات الاشباع ، ومواجهة الاحتياجات الفردية بالطرق والوسائل التى تتفق مع الظروف الخاصة بالمجتمع ، وبموارده وامكانياته ، وبنظام بنائه الاجتماعى . ومن ثم فهذه العادات والتقاليد والقيم تأخذ أشكالا متعددة بتعدد المجتمعات التى تنشأ فيها بما يسمح بظهور أنماط اجتماعية مختلفة من مجتمع الى مجتمع .. أى انه بالرغم من التشابه الذى نجده فى كل المجتمعات الانسانية — من حيث وجود النظم الاساسية التى تعين الانسان على مواجهة احتياجاته واشباع رغباته (وخصوصا البيولوجية منها) الا أن هذه النظم تختلف مكوناتها من العادات — والتقاليد والقيم والتشريعات — من مكان الى مكان تبعا لاختلاف الظروف البيئية من مجتمع الى مجتمع .. ومن ثم فاننا نستطيع أن نجد تشابها فى بعض المشاكل الاجتماعية كما نستطيع أن نجد اختلافات كذلك .. وكثير من المشكلات الاجتماعية التى كانت تعانى منها المجتمعات القديمة كانت تتشابه لأنها كانت تستمد معينها من الدوافع والتوترات البيولوجية للانسان فى كل مكان .. فالفقر .. والجهل .. والمرض .. والبغاء .. وغيرها كانت جميعا مشكلات توجد فى كل مجتمع انسانى . على اختلاف فى المدى والحجم ، وفى مواجهة المجتمع لها .. ففى ظل بعض النظم الاقتصادية يعيش الفقر المدقع جنبا الى جنب مع الغنى الفاحش ، وترتفع نسب الجريمة ، كما تقع محاولات الهروب من الواقع عن طريق المسكرات والمخدرات .. وفى ظل التخلف العلمى كان المرض يفتك بالآلاف عن طريق الاوبئة والامراض وهكذا .. ومع ذلك فقد استمرت هذه المشكلات الاجتماعية حتى وقتنا الحاضر لأن الظروف المهيأة لها ما زالت مستمرة .. وان كان قد جد عليها الجديد الذى لم يكن معروفا فيما سبق أو كان أضيق نطاقا فى الماضى .

لقد أصبح المجتمع الحديث مطالبا بمواجهة هذه المشكلات التقليدية وتوفير حلول لها مستفيدا بالاكتشافات العلمية والتطبيقات العملية المذهلة التى حققها الانسان فى هذه الحقبة من التاريخ ، وكذلك تحت ضغط تيقظ الآمال الشعبية ، ومطالبة الناس فى كل مكان برفع مستوى المعيشة ونشر التعليم وتوفير الخدمات الصحية .. وهو ما تحقق فعلا فى معظم المجتمعات المتقدمة .. ومن ثم فقد تضاءلت هذه المشكلات لتشغل فى هذه المجتمعات جانبا هامشيا لا يتضح الا فى بعض فئات المجتمع .. وفى أقلياته العنصرية فى أغلب الاحيان :

كما أن نظرة المجتمع الى هذه المشكلات من حيث أسبابها ونتائجها قد تغيرت أيضا — فبدلا من النظر الى الفقر والجهل والمرض والبغاء والجريمة وغيرها باعتبار أن عيوبا فى الافراد هى التى توقعهم فى هذه المشكلات .. تغيرت النظرة بعد ذلك الى البحث عن أسباب هذه المشكلات فى الظروف الاجتماعية باعتبارها تلقى ضغوطا اجتماعية على الفرد ، أو لا تسمح له بتنمية قدراته وامكانياته الانسانية ، أو لا تساعده على التغلب على مشاكله ومواجهة احتياجاته .. ثم تطورت النظرة أخيرا الى أن هذه المشكلات وغيرها محصلة لعوامل ثلاثة : الفرد ، والظروف الاجتماعية ، والحضارة — أى التراث الحضارى — الذى يلقى بظله على حاضر المجتمع سواء من حيث الكيان الاجتماعى ، والنظم الاجتماعية . (ومن ثم يسود الاعتقاد) بأن طبيعة هذه

المشكلات الاقتصادية والصحية والاجتماعية أكبر من قدرة الافراد والمؤسسات الخاصة والجهود التطوعية فى التغلب عليها . وانها تحتاج الى عمل جماعى مشترك من القادة السياسيين ومن المجتمع ككل .. وان على الدولة أن تتدخل لتعديل النظم والتشريعات وتبنى السياسات الاجتماعية التى تتيح تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية ، وتوفير الخدمات التى تسهم فى مواجهة هذه المشكلات .

الأسرة والتغيير الاجتماعى :

واذا كان تدخل الدولة والمجتمع أمرا هاما لمساعدة الاسرة على القيام بدورها وأداء وظيفتها فى المجتمع القديم ... فان هذا التدخل يصبح أمرا أولى بالاهتمام فى ظل التغييرات الاجتماعية العنيفة التى تشهدها المجتمعات المعاصرة .. على أن يكون اهتماما علميا مخططا واعيا بآثار هذه التغييرات التى أثرت فى الأسرة من داخلها أو تحيط بها من خارجها .

ذلك أن تحت وطأة الاتجاه المتزايد لسكنى المدن ، والاقبال على التصنيع والاستفادة من منجزات التكنولوجيا الحديثة شهدت الأسرة الجديدة تغييرات فى حجمها وفى وظائفها وفى نوع العلاقات التى تسود بين أعضائها ، كما تغيرت طبيعة العلاقة بينها وبين المجتمع ..

فقد لاحظ الباحثون أن سكنى المدن الكبيرة والاتجاه الى التصنيع — كسمتين أساسيتين من سمات المجتمع الحديث — قد صاحبهما اتجاه الاسر حجما الى الكيان نتيجة لما تفرضه ظروف الحياة فى المدينة وضيق مساكنها عن استيعاب الاصول والفروع التى كانت تكون العائلة فى المجتمع القديم .. ولأن الدخول تقصر عن اعالة المرضى والمتعطلين وكبار السن ممن لا يسهمون فى ميزانية الأسرة بل يمثلون أعباء اقتصادية على مواردها — فقد تغير مفهوم التكافل الاجتماعى ، والاسرة بتركيبها الجديد أصبحت أكثر تفتحا وأشد تأثرا بالظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى المجتمع .. ولكنها أصبحت أكثر تعرضا للمشكلات — فمرض الأم أو تعطل الأب يهدد كيانها ، ومن ثم أصبحت أقل استقرارا واطمئنانا وأكثر توترا وقلقا .. واضطرت أن تتنازل عن كثير من وظائفها وواجباتها الى مؤسسات أخرى تتولى عنها تربية النشء وتعليمه والترفيه عنه .. ومن ثم أصبحت الأسرة الصغيرة لا تمارس الضبط الاجتماعى ، كما كانت تمارسه العائلة بحيث أصبحت تعجز عن التدخل فى المصير الذى يتجه اليه أولادها الذين ترعاهم مؤسسات كبيرة قد تختلف عن الأسرة فى اتجاهات اجتماعية وفكرية ..

والمجتمع الحديث — تحت وطأة سكنى المدن والتصنيع — ذو تأثير فى تغيير طبيعة العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة من حيث حقوق وواجبات اعضائها فى مواجهة بعضهم البعض — فالاقتصاد النقدى الذى يسود المدن اجتذب المرأة الى الخروج الى العمل .. واذ تستقل المرأة اقتصاديا يكون لها ان تطالب بتغيير طبيعة علاقتها بالرجل من التبعية الكاملة الى المشاركة على قدم المساواة ، وانشغالها بعملها يقصر الوقت الذى تقضيه فى رعاية أطفالها — فتضطر أن تعهد بهم الى الخدم أو دور الحضانة أو الجيرة .. مما

يعرضهم الى المعاناة العاطفية نتيجة نقص الحنان الفطرى الذى جبلت عليه قلوب الأمهات .. وتعدد مراكز السلطة داخل الاسرة بين والدين يوقع الاولاد فى حيرة نفسية ، ويشتت عواطفهم ، ويبدد بعضا من أمنهم النفسى الذى كانوا يستمدونه من الأب باعتباره المصدر الاساسى للسلطة. وفى هذا الاطار تكون دراسة دور الأب فى الاسرة ذات أهمية خاصة .. فهو الذى يضع اسرته فى المجتمع ..

فمهنته تحدد موقعهم فى النسيج الاجتماعى ، كما تقرر القدر الذى ستحصل عليه الأسرة من احتياجاتها — ففى ظل مجتمع المدنية تؤدى الفروق فى الطبقة والمركز الى فروق فى الرضا والاشباع المادى والاجتماعى والنفسى ، مما ينعكس على دور الأب فى الأسرة .. وعلى علاقاته بزوجته واولاده .. فالمركز المتدنى قد يثير انفعالات شاذة تتراوح بين التعويض من جانب أو العدوان من جانب آخر .. واحساس الأب بفشله فى شغل المركز الاجتماعى او المهنى الذى يشعر أنه يستحقه ينعكس على دوره فى الأسرة — ومن هنا كان تفسير بعض الباحثين للشدة الملحوظة من جانب آباء الطبقة الدنيا فى تربية أولادهم .. أو لا مبالاتهم المكلفة بمصير أولادهم ..

فى ظل هذه الظروف المتغيرة فى نطاق الاسرة ذاتها ، أو من حولها — فانها تسعى مضطرة الى التوافق مع الاوضاع والظروف الجديدة التى اخرجتها عما الفته ، وتواضع عليه الآباء والاجداد من عادات وتقاليد وقيم .

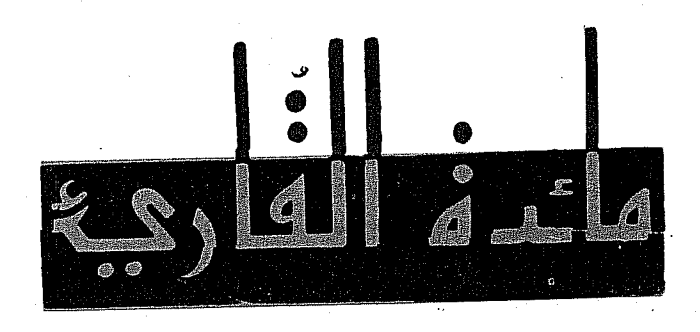
ولأن التوافق مع الجديد لا يتم بنفس الدرجة للجميع .
ولأن الجيل القديم يصر على التمسك بما الفه وتعوده .
ولأن الجيل الجديد يقبل على التغيير بتلقائية .

ينشأ ما يسمى بصراع الأجيال داخل الأسرة ، وتهتز القيم والمعايير السلوكية بما يفقدها دورها فى الضبط الاجتماعى وتوجيه الفكر والسلوك — وتتعرض الأسرة والمجتمع الى كثير من المشاكل الفردية والاجتماعية وحالة من التفكك تقتضى التدخل بالعمل الاجتماعى المخطط .. بالتشريع والبرامج والمشروعات لحماية الأسرة : بحيث « يحفظ القانون كيانها ، ويقوى أواصرها ، ويحمى فى ظلها الامومة والطفولة » .

وبعد — فاذا كان التغيير الاجتماعى قدر لا فكاك منه — فى ظل ما يحيط بنا من ظروف عالمية ضاغطة ، وما نتجه اليه بارادتنا من تحضر وتصنيع — فهل ننزلق طواعية الى التسليم بكل ما نحرص عليه من قيم وتقاليد تكافلنا وتراحمنا ؟ ام أن علينا أن نتدخل بالعلم والوعى والبصيرة فنعمل على السيطرة على مسار التغيير ، ونقوده عبر الطريق الذى يخدم تطورنا وتقدمنا — حتى يرتفع البناء لا تعوقه العقبات ، وحتى لا يقضى التطور على اصالتنا وقيمنا .. وحتى لا يسلبنا التقدم المادى المحتوى الحقيقى لحياتنا الانسانية ...

وهذا هو واجب مؤسساتنا التشريعية والتنفيذية ..

بل هو مسئولية المجتمع بكامله ..



« الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » . .

صدق الله العظيم

اذا صلت المراة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت لها فرجها ، واطاعت زوجها قيل لها ادخلى الجنة من اى الابواب شئت .

حديث نبوى

البيت تدل عليه بناته قبل ان يدل عليه أبناؤه .
لأن الفضل فى نشاتهن كلها للبيت .
من حيث يحسب لغير البيت فضل فى نشأة الابناء .

واجب المراة

اجتمع النساء مرة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارسلن احداهن الى الرسول لتقول له :
يا رسول الله : انا وافدة النساء اليك .. هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فان يصيبوا اثيبوا ، وان قتلوا كانوا احياء عند ربهم يرزقون ، ونحن معاشر النساء نقوم عليهم ، فمالنا من ذلك الأجر ؟
فاجابها عليه الصلاة والسلام بقوله : ابلغى من لقيت من النساء ان طاعة للزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك — يساوى اجر المجاهدين — وقليل منكن من يفعله .

شن وطبقـــة

شن رجل من عقلاء العرب ، أقسم الا يتزوج الا امراة عاقلـــة حكيمـــة فخرج يبحث عنها فوجد رجلا فى الطريق ، فسارا معا ، فقال له شن : اتحملنى أم أحملك ؟ فقال له الرجل : يا جاهل أنا راكب وانت راكب ، كيف احملك او تحملنى ، وسارا فوجدا فى الطريق زرعا ناضجا ، فقال شن لصاحبه : أترى هذا الزرع أكل أم لا ؟ فقال له الرجل : يا جاهل ترى نبتا ناضجا ، فتقول أكل أم لا ، وسارا فلقيتهما جنازة ، فقال شن لرفيقه : أترى صاحب هـــذا النعش حيا أو ميتا ، فقال له الرجل : ما رأيت أجهل منك ، واستضاف الرجال شنا ، وكان للرجل بنت اسمها طبقة ، فسألته عن ضيفه ، فأخبرها بكل ما كان مـــن شن وأخبرها بانه مغفل جاهل ، فقالت : يا ابت ما هذا بجاهل .

أما قوله : اتحملنى أم احملك ، فأراد اتحدثنى أم احدثك حتى نقطـــع طريقنا ، وأما قوله : أترى هذا الزرع أكل أم لا ، فأراد هل باعه اصحابه ، فاكلوا ثمنه ، أم لا ، وأما قوله فى الجنازة فأراد هل ترك ذرية يحيا بهم ذكره أم لا .

فدخل الرجل على شن ، وقال له : اتحب أن افسر لك ما سألتنى عنه ؟ قال: نعم ، ففسره فقال شن : ما هذا من كلامك فأخبرنى من صاحبه ؟ قال ابنة لى اسمها طبقة ، فخطبها وتزوجها وحملها الى اهله فقالت العرب وافق شن طبقة وذهبت مثلا لكل اثنين متوافقين ..

ذكاء المراة

كان العرب يخطبون فـــى المراة سعة الحيلة ، ومضـــاء الذكاء ، وما أرادوا بذلك الا أن يكون تراثا لبنيها .

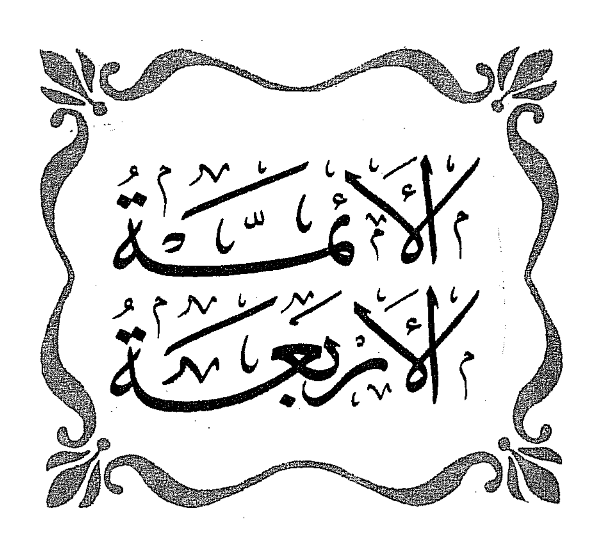
روى أن امرأ القيس الكندى اقسم يمينا الا يتزوج أمرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعـــة واثنتين ، فجعل يخطب النساء فاذا سألهن عن هذا قالـــوا : اربعة عشر ، فبينا هو يسيـــر فى جوف الليل اذا برجل مـــع ابنته ، فاعجبتـــه ، فقـــال يا جارية : ما ثمانية وأربعـــة وثنتان ، فقالت : أما ثمانيـــة فاطباء الكلبة ، وأما اربعـــة فاخلاف الناقة ، وأما ثنتان فثديا المراة ، والاطباء والأخـــلاف الأثداء وهى حلمات الضرع . فخطبها الى ابيهـــا .

المراة فى الجهاد :

طويت صحف السير والسنن والتاريخ على كثير من فضليات النساء خرجن فى رفقة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى غزواته ليداوين الجرحـــى ، ويأسون المرضى ، ويسقيـــن الماء ورجن باجر المجاهديـــن فى سبيل الله ، ومن هؤلاء :

ام سنان الاسلمية جاءت الى رسول الله وهو خـــارج الى خيبر ، فقالت :

يا رسول الله اخرج معـــك فى وجهك هذا ، اخرز السقاء واداوى المريض والجريح ان كانت جراح ــ ولا تكـــون ــ وابصر الرجل .. فقال رسول الله : اخرجى على بركة الله فان لك صواحب قد كلمننـــى واذنت لهن من قومـــك ومن غيرهم ، فان شئت فمع قومك وان شئت فمعنا ، قلت : معك، قال : فكونى مع ام سلمـــة زوجتى ، قالت : فكنت معها .



مالك . أبو حنيفة . الشافعي . أحمد

لقد كان من لطف الله بهذه الأمة ، وكان من التيسير ، ان قيض لهذه المهمة الجليلة رجالا يعدون من الافذاذ والنوابغ الذين أنجبتهم الانسانية فقها وامانة ، واخلاصا وكفاية . كان منهم هؤلاء الأربعة (ابو حنيفة م ١٥٠ هـ . ومالك م ١٧٩ هـ . والشافعي م ٢٠٤ هـ واحمد بن حنبل م ٢٤١ هـ) الذى قدر لفقههم أن يعيش الى هذا اليوم ويخضع له العالم الاسلامى . وقد فاق هؤلاء فى فهمهم الواسع ، ووقفوا حياتهم واستعملوا مواهبهم بسخاء فى تكوين هذه الثروة الفقهية والقانونية التى لا تعادلها ذخيرة فقهية فى العالم ، والتى لا تزال مرجعا ومادة واسعة للتشريع لهذا العصر . وقد توفر هؤلاء على هـذه الخدمة التى تدين لها الأمة ، ويدين لها العالم ، وآثروها على كل راحة ولذة وجاه ومنصب فى الحياة ، وقد خاب ملوك عصرهم وامراؤه . وخابت الأطماع والاغراءات ان تشغل قلوبهم ، او تتوزع عقولهم واوقاتهم ، وقد عرض على ابى حنيفة منصب القضاء الذى كان منصبا كبيرا وشرفا عظيما مرتين فرفض وامتنع ومات فى السجن وقد ضرب مالك مائتى سوط لأجل مسألة جهر بها وخلعت كتفاه . وهى أن طلاق المكره ليس بشىء . وقد قضى الشافعى معظم حياته فى عسر وضنك ، وبذل صحته وقوته فى استنباط الأحكام وتدوين الفقه ، وعارض احمد بن حنبل اتجاه حكومة هى كبرى الحكومات واقواها على ظهر الأرض فى عصره، ودافع عن السنة والفكر الاسلامى الصحيح حتى عوقب وعذب وضرب وسجن .

وقد انتج كل واحد منهم ثروة علمية ، وخلف تراثا فقهيا ينوء بالمجامع العلمية والمؤسسات الكبيرة في هذا العصر ، فقد روى ان ابا حنيفة قال ستين الف مسالة . وقال بعضهم ثلاثة وثمانين الفا : ثمانية وثلاثين الفا في العبادات وخمسة واربعين الفا في المعاملات . وقد ذكر شمس الائمة الكردري : ان عدد المسائل التي دونها يبلغ الى ست مائة الف . ومهما كان العدد مبالغا فيه فلا شك انه انتج ثروة فقهية ضخمة هي اساس هذا الفقه الحنفي الذي استطاع أن يحكم المساحة الكبرى في المملكة الاسلامية ايام ازدهارها ، ويكون دستور مملكة هي ارقى المملكات في عصرها ، وهي الدولة العباسية .

وكذلك شان مالك في الفقه ، فكتابه (المدونة) الذي هو مجموعته الفقهية ، تبلغ نحو ستة وثلاثين الف مسالة . وكتاب الأم الذي هو من افادات الشافعي مجموعة فقهية ضخمة تقع في سبعة اجزاء وقد جمع ابو بكر الخلال (٣١١ هـ) مسائل الامام احمد في اربعين مجلدا اسماه الجامع لعلوم الامام احمد ..

تلاميذ الائمة الأربعة :

وقد رزق الله هؤلاء الائمة الفقهاء تلاميذ نجباء قاموا بعلمهم وزادوا في ثروته ، وظلوا يشغلون بتنقيحه وتهذيبه ، وقد رزق الامام ابو حنيفة تلاميذ : مثل القاضي ابي يوسف (م ١٨٢ هـ) الذي استطاع بذكائه النادر ، ومقدرته الفقهية ان يكون قاضي الامبراطورية العباسية العظيمة ، والمشرف الديني عليها ، وقد الف كتاب الخراج الذي يشهد بسعة علمه ودقة فهمه ، ومحمد بن الحسن (م ١٨٩ هـ) الذي هذب الفقه الحنفي والف مؤلفات لا تزال مصدر الفقه الحنفي . وزفر بن هذيل (م ١٨٥ هـ) الذي عرف بحدة القياس وقوة الحجة .

ورزق الامام مالك تلاميذ عرفوا بحسن الوفاء لشيخهم ، والحرص على نشر مذهبه ، مثل عبد الله بن وهب (م ١٩٧ هـ) وعبد الرحمن بن القاسم العتقي (م ١٩١ هـ) واشهب بن عبد العزيز (م ٢٥٤ هـ) وعبد الله بن عبد الحكم (م ٢١٤ هـ) ويحيى بن يحيى الليثي (م ٢٣٤ هـ) الذين دانت بفضلهم مصر وشمال افريقيا بالفقه المالكي .

ورزق الامام الشافعي مثل البويطي (م ٢٣١ هـ) والمزني (م ٢٧٠ هـ) فقد دونا الفقه الشافعي وهذباه . وكذلك كان من اتباع الامام احمد مؤلف ومحقق ، مثل ابن قدامة الذي صنف (المغنى) الذي يعد من مفاخر المكتبة الاسلامية الفقهية .



د. عماد الدين خليل

كثيرة هي الاسر المسلمة التي لعبت دورها في تاريخنا ... تعاضد آباؤها واخوانها وابناؤها ونساؤها في انجاز عمل جماعي مبدع ، او صد خطر خارجي داهم ، او مد قيم الاسلام ومعطياته الى اراض جديدة ، وآفاق بعيدة ، ولقد رأينا كيف لعب بنو ارتق (١) دورهم الكبير في فجر الغزو الصليبي لعالم الاسلام ، وكيف راح الواحد منهم يسلم راية المقاومة الاسلامية للآخر ، فيمضي بها هذا اشواطا الى الامام ، فاذا مات او قتل انتقلت الراية الى التالي . وهكذا جاءت انتصارات ((البليخ)) ٤٩٧ هـ ، ((وساحة الدم)) ٥١٣ هـ ، ((وسروج)) ٥١٦ هـ ، ((وخرتبرت)) ٥١٧ هـ ، ((ومنبج)) ٥١٨ هـ ، لتشهد بان أسرة واحدة أنجبها تاريخنا يمكن ان تبر بامها المعطاء ، وتفديها عطاء وتضحية وفداء .

وفي هذا العدد الذي يصدر خاصا ((بالاسرة)) أريد أن استعرض بايجاز جهود اسرة اخرى لعبت دورها المشهور في العصر نفسه ، فأسهمت في تعزيز مواقع المقاومة ازاء الغزو الصليبي ، وحملت راية الجهاد عقودا طويلة ، محققة عبرها الانتصار تلو الانتصار ، ومسلمة اياها أخيرا لربيبها واحد ضباطها الابرار : الناصر صلاح الدين .

تلك هى أسرة آل زنكى : الجد والابن والحفيد ... فأما الحفيد « نور الدين محمود » فقد كتب عنه الكثير ، وأما الجد والابن فلم تسلط عليهما الاضواء بما فيه الكفاية ... لذا سيكون هذا المقال عرضا موجزا لما قدماه فى ساحة تاريخنا وحضارتنا (٢) .

اما الجد فهو آق سنقر بن عبد الله آل ترغان الذى ينتمى الى قبائل « السابيو » التركمانية التى قدم بعض ابنائها بصحبة السلاجقة خلال تقدمهم غربا ، وقد حظى آق سنقر هذا الملقب بقسيم الدولة ، والمعروف بالحاجب ، باهتمام المؤرخين بسبب الدور الذى لعبه على مسرح الاحداث السياسية والعسكرية للدولة السلجوقية ، فقد كان مملوكا للسلطان السلجوقى ملكشاه بن الب أرسلان ومن المقربين لديه ، وقد تربى معه ورافقه فى عهدى الطفولة والصبا ، وعندما تولى ملكشاه السلطنة عام ٤٨٥ كان آق سنقر من أعيان امرائه ، واخص أصدقائه ، وقد اعتمد عليه فى كثير من الامور ، فارتفعت منزلته ولقب بقسيم الدولة يوم كانت الالقاب لا تعطى الا لمستحقيها ، ولا توجد اشارة الى المقصود من هذا اللقب ، الا ان تسمية ابن خلكان لآق سنقر بالحاجب ، فضلا عن اشارة بعض المصادر الى كثرة اعتماد ملكشاه عليه فى مهام الامور ، ترجح أن هذا اللقب كان يعنى قيام آق سنقر بمنصب الحجابة ، ومقاسمة ملكشاه شؤون الحكم والادارة .

اشترك آق سنقر الى جانب السلاجقة فى معارك عديدة ، فقد سيره ملكشاه عام ٤٧٧ فى محاولة للاستيلاء على الموصل ، وطرد العقيليين منها ، وقد تمكنا من انجاز هذه المهمة ، وبعد مرور سنتين اشترك مع السلطان ملكشاه فى انتزاع حلب من نواب العقيليين ، فولاه اياها تقديرا لجهوده ، وقد تسلم آق سنقر منصبه فى حلب وأعمالها كمنبج ، واللاذقية ، وكفر طاب ، واستطاع أن يوسع نطاق ولايته بالاستيلاء على حمص عام ٤٨٣ هـ ، وحصن افامية عام ٤٨٤ هـ كما فرض طاعته على صاحب حصن شيزر عام ٤٨١ هـ .

وفى عام ٤٨٥ هـ اشترك مع ملكشاه فى مهاجمة العقيليين والانتصار عليهم قريبا من الموصل .

ظلت علاقة آق سنقر بالسلطان ملكشاه قائمة على الطاعة والتفاهم المشترك ، ولم يسع يوما للخروج على أوامره ، ورفض السلطان — بدوره — الاستجابة لشكاوى معارضى رفيقه القديم ، أو اقرار مساعيهم للتخلص منه ، ولما توفى ملكشاه عام ٤٨٥ هـ تولى الحكم بعده ابنه بركياروق ، ثار عليه عمه تاج الدولة تتش سلطان الشام ، وطالب بالسلطنة لنفسه ، وقد وجد آق سنقر نفسه مضطرا للانضمام اليه ، لعدم امكان مقاومته ، ولان الاخبار باستقرار بركياروق فى السلطنة جاءت متأخرة .

وقد استطاعت قوات تتش والامراء المتحالفين معه الاستيلاء على معظم مدن الجزيرة الفراتية ، ثم اجتاحت الموصل بعد أن انتصرت على العقيليين فى معركة لعب آق سنقر ، دورا رئيسيا فيها ، واتجهت بعد ذلك الى أذربيجان لمجابهة السلطان بركياروق ، وما أن التقى الجيشان حتى ادرك آق سنقر أن عليه الوفاء بعهده لملكشاه ، واستطاع أن يقنع بعض الامراء بذلك ، فانسحبوا جميعا من معسكر تتش وانضموا الى

قوات بركياروق ، الامر الذى فت في عضد تتش فآثر الانسحاب الى الشام .

ما لبث بركياروق ان امر آق سنقر بالتوجه الى حلب لايقاف مطامع عمه ، وامده بقوة من جنده لتحقيق هذا الغرض ، فلما علم تتش بذلك سار على راس جيشه لمجابهة قائده القديم .[1]

وفى التاسع من جمادى الأولى عام ٤٨٧ هـ التقى الطرفان عند تل السلطان القريب من حلب ، فحاقت الهزيمة بقوات آق سنقر ، وتمكن تتش من أسره وقتله ، ومن ثم اتجه الى حلب واستولى عليها ، وقد استطاع احد مماليك آق سنقر العاملين فى جيش تتش أن يغتال سيده السلجوقى خلال المعركة التى جرت فى العام التالى بينه وبين بركياروق فى بلاد فارس ، فحاقت الهزيمة بقوات تتش واستتب الامر لبركياروق .

انجز آق سنقر — خلال ولايته على حلب أعمالا شتى ، كان اهمها : تمكنه من تحقيق الامن شمالى الشام فى تلك الفترة التى ازداد فيها نشاط قطاع الطرق ، وانتشرت اعمال السلب والنهب ، مما الحق اضرارا بالغة بالزراعة والتجارة هناك ، وقد قام آق سنقر بنفسه « بمطاردة « الحرامية » وقطاع الطريق ، ومخيفى السبيل ، فأوقع بهم ، واستأصل شأفتهم قتلا وأسرا » [٢] وكتب الى سائر عماله يأمرهم بتتبع المفسدين وتوفير الحماية التامة للمسافرين ، وقد بلغ من تشدد آق سنقر ازاء المفسدين أن أمر بصلب عدد منهم على ابواب حلب ليثير الرعب فى قلوب الآخرين ، كما أعلن بأنه سيغرم اهالى اية قرية تتعرض القوافل التجارية المارة بها للنهب ، بمقدار ما سلب من الاموال قلت أم كثرت ، الامر الذى دفع اهالى كل قرية الى بذل جهودهم فى حراسة القوافل التى تمر بهم ، والسهر على أمنها حتى تستأنف مسيرها .

عادت هذه السياسة الحازمة التى انتهجها آق سنقر بنتائج هامة على المنطقة اذ ساد الاطمئنان وأمنت الطرق ، وانتشر العمران ، فانتعشت التجارة ، وازداد دخل البلاد بالواردين اليها بالبضائع من جميع الجهات والاقطار ، ورخصت الاسعار ، وقد بلغ من سيطرة آق سنقر على الامن فى قرى حلب وضياعها ان أرسل من ينادى فيها أن لا يغلق احد بابه ، وأن يتركوا آلاتهم الزراعية فى أماكنها ليلا ونهارا .

اتبع آق سنقر مع سكان ولايته سياسة عادلة ، فأحسن السيرة فيهم ، ونشر العدل بينهم ، وكان شديد التقوى ، عميق الايمان ، أنفق الكثير من الاموال على اعمار مسجد حلب ، وأقام الحدود الشرعية فى بلاده ، وكان كما وصفه ابن واصل الحموى ، « ذا وفاء عظيم ، وحسن عهد ، ومروءة غزيرة ، وانما كان قتله وفاء لسلطانه ، ورب نعمته ملكشاه ، وحفظا لولده — بركياروق من بعده » .[٣]

● ● ●

وأما ابنه عماد الدين زنكى الذى انتقل الى الموصل ، لكى ينال هناك الحظوة والرعاية على يد أصدقاء أبيه من ولاة السلاجقة ، فسرعان ما وجد نفسه أميرا فارسا بطلا يشار اليه بالبنان ، وكأنه كان على موعد مع حركة التاريخ ، ذلك أن نجمه لمع فى قلب الظلمة التى غطى بها الغزو الصليبى مساحات واسعة من عالم الاسلام .

كان هؤلاء الغـــزاة قد تمكنوا هنـــاك فى فترة لا تزيـــد عن العقـــد « ٤٨٩ ــ ٤٩٨ » هـ ، وأنشأوا اماراتهم الاربع ــ الرها ، انطاكيا ، بيت المقدس ، وطرابلس ــ التى أصبحت تشكل خطرا بالغا على بقية المواقع الاسلامية فى المنطقة ، وأخذ ذلك الخطر يزداد يوما بعد يـــوم بســـبب ما كانت تعانيه القوى الاسلامية آنذاك ، من ضعف وتنازع ، فالخلافتان العباسية والفاطمية ، كانتا أضعف من أن تقفا بوجه هذا الزحف الجديد ، اما السلاجقـــة فقد بددوا قواهم فى الصراع على السلطة .

ولم يبق لتحمل عبء القتال ضد الصليبيين سوى الامراء المحليين فى الجزيرة والشام ، لكن التنافس بين هؤلاء كان يعرقـــل فى كثير من الاحيان نجاح أى مشروع لطرد الغزاة .

وهكذا غدت الظروف السياسية والعسكرية فى الجزيرة والشام تحتم ظهور امير قوى يتمكن من القضاء على تناحر الامـــراء المحليين ، وتوحيد اماراتهم فى جبهة اسلامية واحدة بمقدورها التصدى للصليبيين ، وقد قدر لعماد الدين زنكى أن يقوم بهذا الـــدور بعد أن ولاه السلطان محمود السلجوقى حكم الموصل والجزيرة ، وما يفتتحه من بلاد الشام عام ٥٢١ هـ نظرا لقوة شخصيته وشجاعته ومواقفه السابقة فى القتال ضد الصليبيين ، عندما كان يعمل تحت امرة ولاة الموصل طيلة الفترة بين ٥٠٥ و ٥١٤ هـ حيث اشترك معهم فى معظم حروبهم فى هـــذا المجال ، وقد جاءت هذه التولية نصرا هاما للمسلمين فى صراعهم ضد أعدائهم ، ومبدأ عهد جديد فى تجميع قوى المقاومة الاسلامية والانتقال مـــن خطوط الدفاع الى مواقع الهجـــوم .

لم يشأ زنكى الاشتباك مع الصليبيين منذ البداية ، ورأى أن يسعى اولا الى تثبيت امارته الجديدة ، وتعزيز امكانياتها الاقتصادية والعسكرية ، وتوحيد ما يمكن توحيده من الامارات الصغيرة المتناثـــرة التى تحيط بهـــا من كل مكان ، وتشكل عوائق امام اية خطـــة يستهدف من ورائها اعلان الجهاد العـــام ضد الاعـــداء ، اذ كانت المصالح الخاصة لامرائهـــا ، والمنافسات المستمرة فيما بينهم تمنع تشكيل حلف متماسك بوجه الصليبيين. ومن ثم قام زنكى بمراسلة جوسلين امير الرها ، وعقد معه هدنة مؤقتة « يعلم انه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقى له من البلاد ، واصلاح شأنها ، والفراغ من اقطاع بلادها لجنـــد يختبرهم ، ويعـــرف نصحهم وشجاعتهم » . ويبدو أن المشاكل التى جابهت جوسلين اضطرته الى قبول هدنة لصالح غريمه المسلم .

كان هدف زنكى الاول ، اثر عقد الهدنة ، هو الاستيلاء على حلب ، واتخاذها نقطـــة انطلاق له فى بلاد الشام ، وعندما دخلها فى العـــام التالـــى (٥٢٢ هـ) لقى ترحيبا بالغا من أهاليها الذين خرجوا لاستقباله فى تظاهرة عبروا خلالها عن فرحهم بالامير الذى جاء لتخليصهم من تهـــديد الصليبيين الدائم لهم ، ومما كانوا يقومون به من تخريب لا حد له على مـــدى المناطق الزراعية المحيطـــة بمدينتهم ، وانطلق زنكى بعد ذلـــك لاكتساح ما كان يقف فى طريقه ، من حصون مستقلة ، وامارات محلية ، منتهزا فرصة هدنته مع جوسلين ، ساعيا الى توسيع حـــدود امارته فى شتى الاتجاهات .

وعند حلول عام ٥٢٤ هـ كان زنكى قد انهى الكثير من مشاكله فى المناطق الاسلامية ، كما كانت هدنته مع جوسلين قد انتهت ، فقرر البدء بالهجوم على المواقع الصليبية مستهدفا أشدها قربا وخطرا على كيانه السياسى فى حلب ، ولم يكن غير حصن الاثارب المجاور ذلك الهدف ، بسبب ما كان يلحقه من اضرار بفلاحى المنطقة من المسلمين ، وكان من فيه من الصليبيين يقاسمون سكان حلب كافة قراها ومزارعها الغربية ، ويقومون بغارات مستمرة عليهم ، وقد جمعوا فيه خيرة فرسانهم نظرا لخطورة موقعه ، وأهميته بالنسبة لاهدافهم فى المنطقة .

اتجه زنكى الى هذا الحصن وفرض الحصار عليه ، فلما علم صليبيو الشام بذلك حشدوا قواتهم فى كل مكان ، وشكلوا جيشا ضخما اتجهوا به لقتال زنكى ، فاستشار هذا أصحابه وقادته فيما يعمل ، فأجمعوا أمرهم على الانسحاب وترك الحصن ، لان لقاء الصليبيين فى بلادهم مجازفة غير مأمونة العواقب ، الا أنه اجابهم : « ان الفرنج متى رأونا قد عدنا من بين ايديهم ، طمعوا وساروا فى أثرنا ، وخربوا بلادنا ، ولا بد من لقائهم على كل حال » ومن ثم سار للقائهم بعيدا عن الاثارب وجرت بين الطرفين معركة قاسية انتهت بانتصار المسلمين ، وقتل وأسر عدد كبير من الاعداء . ثم ما لبث زنكى أن اتجه الى الحصن وفتحه عنوة ، وقتل وأسر معظم أفراد حاميته ، ثم أمر بتخريب تحصيناته ، وكيلا يكون الموقع عرضة لتهديد مستمر من قبل الصليبيين ، وتقدم من هناك الى (حارم) الواقعة على طريق انطاكية وضرب عليها الحصار ، فبذل له أهلها نصف دخل بلدهم والتمسوا مهادنته ، فأجابهم الى ذلك وقفل عائدا الى حلب .

وقد اشار ابن الاثير الى نتيجة من أهم نتائج معركة الاثارب ، وهى : ان الاحداث فى الشام أخذت تتجه اتجاها جديدا لصالح المسلمين ، الامر الذى جعل الصليبيين يدركون أن عليهم مجابهة قوة جديدة لم تكن فى حسابهم ، ويحولون خططهم العسكرية من الهجوم الى الدفاع ، بعد أن كانوا « قد طمعوا فى ملك الجميع » !!

انشغل زنكى طيلة السنوات الاربع التالية (٥٢٥ ــ ٥٢٨ هـ) بتنظيم شؤون امارته وتوسيعها ولم يستطع أن يوجه اهتمامه الى الصليبيين رغم المنازعات التى نشبت بينهم اثر وفاة (بلدوين الثانى) أمير انطاكية عام ٥٢٥ هـ .

وفى عام ٥٢٩ هـ اتيحت له الفرصة ثانية لتحقيق انتصارات جديدة فى بلاد الشام ، حيث قام بمهاجمة عدد من المواقع الصليبية المحيطة بحلب ، والتى كانت تهددها باستمرار ــ فضلا عن كونها الخط الدفاعى الذى يحمى انطاكية من هجمات المسلمين ، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها .

ادت هذه الانتصارات التى حققها زنكى ضد الصليبيين الى تنبيههم الى تزايد خطره على ممتلكاتهم فى الشام ، والى ضرورة توجيه ضربة حاسمة اليه ، وراحوا يتحينون الفرصة المواتية لانزال هذه الضربة ، وبعد عامين ، وحينما كان منهمكا فى حصاره لمدينة حمص التابعة لامارة دمشق قاموا بحشد جيش كبير تقدموا به مسرعين لمباغتة زنكى والقضاء عليه ، وكسب حكام دمشق الى جانبهم ، وعندما سمع زنكى

بذلك سار للقائهم بعيدا عن حمص كيلا يوقع نفسه فى شقى الرحا بينهم وبين الحمصيين ، ورأى أن خير وسيلة يستدرج بها الصليبيين اليه وتتيح له فى نفس الوقت تولى زمام المبادرة بنفسه ، هو أن يظهر عزمه على مهاجمة حصن بعرين الصليبى القريب .

وما أن بدأ زحفه صوب ذلك الموقع حتى تقدم اليه الصليبيون بقيادة كل من فولك ملك بيت المقدس ، وريموند كونت طرابلس ، ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين ، وقتل وأسر عدد كبير من جند العدو وأمرائه وقادته ، كان ريموند من بينهم ، أما فولك فقد تمكن من الهروب الى حصن بعرين .

ما لبث زنكى أن تقدم نحو الحصن وفرض عليه حصارا شديدا ، بينما اتجه عدد من المنهزمين من المعركة الى بلاد البيزنطيين وأوربا ، طالبين النجدة من ابناء العالم المسيحى وأمرائه قائلين لهم ان زنكى اذا ما تمكن من الاستيلاء على بعرين ، سهلت عليه السيطرة على بقية المواقع الصليبية فى الشام لعدم وجود من يدافع عنها ، فجمع المسيحيون جيشا كبيرا من الصليبيين والبيزنطيين وساروا لنجدة الحصن ، الا ان زنكى كان قد عزله عن العالم الخارجى ومنع عنه تسلل الاخبار ، كما أن تشديده الحصار على هذا الموقع أدى الى تناقص الميرة والذخيرة فيه ، الامر الذى اضطر اصحابه الى طلب الصلح ، فأجابهم زنكى اليه بعد أن علم بتقدم الاعداء لنجدته وتسلم الحصن .

بعد أن أخفقت حملة الروم والصليبيين التى قادها الامبراطور البيزنطى (حناكومنين) فى انقاذ بعرين سعت الى محاولة استغلال الفرصة ، والاستيلاء على عدد من المواقع الاسلامية فى الجهات الشمالية من الشام ، وتم عقد اتفاق بين الامبراطور ، وريموند أمير أنطاكية ، كان من أبرز بنوده أنه اذا ما استولى المتحالفون على حلب وما يحيط بها من حصون فان ريموند يقوم بالتنازل عن أنطاكية للامبراطور البيزنطى ، ويتخذ لنفسه عوضا عن ذلك ، امارة صليبية جديدة تضم حلب وشيزر وحماة وحمص ، وقد قام ريموند ــ كتأكيد لهذا الاتفاق ــ باعلان تبعيته للامبراطور .

ولكى يغطى الامبراطور على أهدافه الحقيقية سعى الى خداع زنكى الذى كان معسكرا آنذاك بين حمص وحماة بأن أرسل اليه رسولا ليقدم له بعض الهدايا ، ويخبره بعدم تعرض الامبراطور لامارته ، ثم ما لبث الاخير أن أصدر أوامره بالقاء القبض على جميع المسافرين القادمين من حلب والقرى المجاورة كيلا تصل أنباء تحركات العدو الى زنكى ، ومن ثم تقدم الامبراطور ، يصحبه أميرا الرها وأنطاكية ، وبدأوا بمهاجمة حصن بزاعة القريب من حلب ، وتمكنوا من الاستيلاء عليه ، وقد استطاع بعض أهاليه أن يفروا الى حلب حيث أنذروا المسؤولين فيها عن قرب الخطر ، فقام هؤلاء بتعزيز التحصينات الدفاعية ، وارسلوا الى زنكى يطلبون نجدة مستعجلة ، فأمدهم بقوة من الفرسان ، كان لدخولها حلب تأثير كبير على رفع معنويات أبنائها .

وعندما جوبه المتحالفون بمناعة حلب وصمودها آثروا الانسحاب ، وتقدموا الى معرة النعمان فاستولوا عليها ، وتوجه من هناك ــ بقيادة

الامبراطور — الى حصن شيزر وفرضوا الحصار عليه ساعين بذلك الى وضع أيديهم على موقع هام يمنحهم السيطرة على وادى نهر العاصى ، ويقف سدا أمام مطامح زنكى البعيدة فى المنطقة .

استنجد سلطان بن على الكنانى صاحب شيزر ، بزنكى ، فاتجه على رأس قواته شمالا وعسكر بالقرب من حماة ، وراح يشن ما يعرف اليوم بحروب العصابات ضد معسكرات الاعداء ، كما سعى الى خداعهم فأرسل اليهم يقول : « انكم قد تحصنتم بهذه الجبال — المحيطة بشيزر — فاخرجوا عنها الى الصحراء حتى نلتقى !! فان ظفرتم اخذتم شيزر وغيرها ، وان ظفرنا بكم أرحت المسلمين من شركم ، ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم ، وانما كان يفعل هذا ترهيبا لهم » .

وبهذا استغل زنكى مبادىء علم النفس الحربى ، وعمل على تحطيم الروح المعنوية للصليبيين ، وقد اشار هؤلاء على الامبراطور بلقاء عدوهم ، فرفض ذلك اعتقادا منه بأن زنكى لم يكن يظهر أمامهم من عسكره سوى القليل ، وأن وراءه قوات ضخمة اتاحت له أن يتحداهم الى اللقاء .

استمر زنكى يطلق ما فى جعبته من سهام الحيلة والدهاء ، لتفتيت هذا التحالف الخطير ، فراح يراسل صليبى الشام ويحذرهم من امبراطور الروم ، ويعلمهم انه ان استولى على حصن واحد فى الشام « أخذ البلاد التى بأيديهم منهم » ويراسل الامبراطور — من جهة أخرى — يتهدده ويوهمه أن الفرنج معه ، فسادت الشكوك بين الطرفين المسيحيين سيما وأن أميرى الرها وانطاكيا لم يسعيا الى التعاون الجاد مع الامبراطور ، فضلا عن اشتداد المنافسة بينهما وتخوف ريموند من انتصار الروم ، وبالتالى تنفيذ الاتفاقية التى وقعها معهم والتى تجعله يقف وجها لوجه أمام قوات المسلمين بعيدا عن انطاكية . ولم يرغب امير الرها — هو الآخر — فى أن يكون منافسه قريبا منه فى حلب فى حالة انتصار المتحالفين ، وتنفيذ بنود الاتفاقية المعقودة بينهم .

ولم يأل زنكى جهدا فى طلب النجدات من شتى انحاء العالم الاسلامى ، فأرسل الى بغداد يلتمس معونة السلطان مسعود السلجوقى ، والى سلاجقة آسيا الصغرى يشير عليهم بالاغارة على المواقع البيزنطية هناك ، كى يتحول اهتمامهم الى تلك الجهات ، ووردت انباء تشير الى أن أراتقة ديار بكر أرسلوا جيشا كبيرا من التركمان ، وأن قوات دمشق تحركت لمساعدة زنكى ، وازاء هذا وذاك رأى الامبراطور ضرورة الانسحاب فأنهى حصاره لشيزر فى رمضان عام ٥٣٢ بعد أن عرض عليه أميرها مبلغا من المال ، وضريبة سنوية كرمز لتبعيته ، وقاد القوات المسيحية المتنازعة عائدا الى انطاكية . وحينذاك انقض زنكى على آلاتهم الحربية الثقيلة (ومجانيقهم العظام) فاستولى عليها ورفعها الى قلعة حلب ، كما أرسل بعض جنده فى آثار قوات العدو المنسحب فقتلوا وأسروا عددا كبيرا منهم .

ويبدو واضحا أن أهم النتائج التى اسفرت عن فشل حملة التحالف المسيحى هذه ، هى تدهور العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين ، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضد نشاط زنكى فى المنطقة فى السنين التالية ، وقد اندفع زنكى فى أعقاب انتصاره ذاك فانقض على عدد من

المواقع الصليبية شمالى الشام واستولى على أربعة منها ، ثم قفل عائدا الى الموصل .

انهمك زنكى فى الفترة التالية بالعمل على اتمام خطته بتوحيد الجبهة الاسلامية ، كى يكون اكثر قدرة على مجابهة الصليبيين ، وقام عام ٥٣٣ باستئناف السعى من أجل تحقيق هدفه القديم بالاستيلاء على دمشق وتوحيد الجبهة الشامية ، فاتجه اليها فى اواخر ذلك العام وفرض عليها حصارا شديدا كاد أن يسقطها فى يديه ، لولا استنجاد امرائها بصليبيى بيت المقدس ، واستجابة هؤلاء لهم ، رغبة منهم فى القضاء على الخطر المشترك ، الذى يمثله وجود زنكى فى المنطقة ، الامر الذى اضطر الاخير الى الانسحاب .

وفى عام ٥٣٨ هـ اتيح لزنكى استغلال مركزه القوى فى ديار بكر ، والقيام بفتح عدد من المواقع والحصون العائدة لامارة الرها الصليبية ، وكان هدفه من وراء ذلك تمهيد الطريق لانزال ضربته المباشرة بالرها نفسها ، وتحقيق حلمه الذى طالما راود خياله عبر سنى صراعه الطويل ضد الصليبيين .

كانت الرها من أهم المراكز الصليبية باعتبارها قاعدة لاحدى اماراتهم الاربع فى الشرق الاسلامى ، ولقربها من العراق ، وقوة تحصيناتها ، وما كانت تسببه للمناطق الاسلامية المجاورة من أخطار لا تقف عند حد ، وتشكل عائقا يحول دون قيام زنكى بتوحيد الجبهة الاسلامية فى الجزيرة ، وشمالى الشام ، بسبب تدخلها المستمر لصالح أعدائه من أمراء المسلمين فى المنطقة ، وتهديدها الدائم لخطوط المواصلات الاسلامية التى تربط بين الموصل وحلب من جهة ، وبين بلاد فارس وسلاجقة آسيا الصغرى من جهة أخرى .

من اجل ذلك راح زنكى يعد العدة للاستيلاء عليها ، وتأمين الاهداف الكبرى التى يتيحها اسقاط هذا الجدار ، منتظرا سنوح الفرصة لتوجيه ضربته ودخول المدينة التى كان ذكرها ــ كما يقول ابن القلانسى : « جائلا فى خلده ، وأمرها ماثلا فى خاطره وقلبه » وسرعان ما غدت ظروف الصليبيين فى أواخر الثلاثينيات ملائمة الى حد كبير لقيامه بهذه الخطوة ، اذ اشتد النزاع بين ريموند امير انطاكية ، وجوسلين الثانى أمير الرها ، وانتهى الامر بمقاطعة أحدهما للآخر وعدم نجدته لصاحبه فى حالة تعرض امارته لغزو خارجى ، ومما زاد أمر الصليبيين سوءا وفاة فولك ملك بيت المقدس ، ومجىء بلدوين الثالث الى العرش ، وهو حديث السن ، ضعيف الشخصية ، الامر الذى جعل الصليبيين لا يخضعون لارادة مدبرة تستطيع أن تنهى ما قام بين جوسلين ، وريموند من نزاع ، وتوحد قواهما بمواجهة المسلمين .

هذا الى أن التحالف القديم بين الصليبيين ، والامبراطور البيزنطى قد انتهى عام ٥٣٧ هـ وحل محله عداء شديد ، وحروب دائمة بين الطرفين بسبب أطماعهما الدائمة ، واخيرا جاءت وفاة حنا كومنين لكى تخلص زنكى من عدو خطر لدود ، ثم ان موقع الرها نفسه كان ملائما لمهاجمة زنكى بعد ، اذ أحاط بها المسلمون من كل مكان ، وفصلها الفرات عن بقية الامارات الصليبية فى الشام .

استغل زنكى الفرصة ، وسعى الى تدبير خدعة تتيح له تحقيق هدفه من أقصر طريق ، وكان يعلم انه لن يستطيع أن ينال غرضه من الرها ما دام جوسلين وقواته موجودين فيها ، وهكذا انصب اهتمامه على ايجاد وسيلة تدفع غريمه الى مغادرة مقر امارته ، فاتجه الى آمد ، وأظهر أنه يعتزم حصارها ، وأنها هدفه دون غيرها ، وبث عيونه — فى الوقت نفسه — ليطلعوه — اولا بأول — على تحركات أميرها الذى ما أن رأى انهماك زنكى بحروبه فى ديار بكر حتى غادر مقر امارته على رأس قواته بعد أن اتخذ اجراء احتياطيا ، بأن عقد هدنة مع قرا أرسلان صاحب حصن كيفا الذى كان قد التجأ اليه بعد تهديد زنكى لامارته ، ومن ثم اتجه الى تل باشر الواقعة على الضفة الغربية للفرات ، كى يتخلص — هناك — من كل مسئولية ويتفرغ لملذاته .

وجاءت عيون زنكى لتطلعه على النبأ الذى كان يتحرق شوقا اليه ، فأسرع بالتوجه الى الرها « مستعينا على السرعة بركوب النجائب والابل » ، مستنفرا كل قادر على حمل السلاح من مسلمى المنطقة للجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الله ، وما لبث ان انهالت عليه جموع المتطوعين ، فطوق بهم الرها من جهاتها الاربع . وحاول — فى البدء — أن يتوسل بالطرق السلمية علها تحقق هدفه دون اضطرار لرفع السيف ، فراسل أهالى الرها باذلا لهم الأمان ، طالبا منهم أن يفتحوا له الابواب قبل أن يجد نفسه مضطرا الى تدمير أسوار بلدهم ، واخلاء ديارهم ، الا أنهم أبوا قبول الأمان . وحينئذ اشتد زنكى فى التضييق على الحصن مستخدما آلات الحصار الضخمة التى جلبها معه لتدمير أسواره ، قبل أن تتاح الفرصة لتجمع الصليبيين ، والتقدم لانقاذ هذا الموقع الخطير .

وارسل جوسلين — لدى سماعه نبأ الهجوم — فى طلب نجدة مستعجلة من كافة الامارات الصليبية ، فلم يستجب له سوى (ميلزاند) الوصية على بيت المقدس التى وصلت نجدتها بعد فوات الأوان ، كما أنه قام بمحاولة للدخول الى المدينة ، أو ارسال نجدة لتعزيز دفاعها ، فحيل بينه وبين ذلك .

وفى السادس والعشرين من جمادى الآخرة (٥٣٩ هـ) وبعد مرور ثمان وعشرين يوما على بدء الحصار انهارت بعض أجزاء الحصن اثر الضرب المركز الشديد الذى تعرضت له ، فاجتاحت قوات المسلمين المدينة ، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت بعد يومين ، وقام القس اليعقوبى برصوما باجراءات تسليم الرها لزنكى ، الذى أصدر أوامره الى جنده بايقاف أعمال القتل والأسر والسلب واعادة ما استولوا عليه من سبى وغنائم ، وأعقب ذلك باصدار أمر آخر بالاسراع فى تنظيم ما اضطرب من أمور الرها ، وتعمير ما تهدم خلال أيام القتال الطويلة ، ورتب من رآه أهلا لتدبير أمرها ، والاجتهاد فى مصالحها ، « ووعد أهلها باجمال السيرة وبسط العدالة » مستهدفا من وراء ذلك استمالة سكانها الاصليين من المسيحيين الشرقيين ، ضد الصليبيين الكاثوليك ، الامر الذى يؤكده قيامه بتدمير عدد من الكنائس الكاثوليكية واحتفاظه بكنائس الشرقيين .

حقق زنكى بفتح الرها أهم أعماله التى قام بها ضد الصليبيين طوال

حكمه ، وكان لهذا النصر نتائج هامة فى العالمين الاسلامى والمسيحى ، كما كانت له نتائجه بالنسبة لزنكى وامارته ، فأما بالنسبة للمسلمين ، فقد أعطاهم سقوط أولى الامارات الصليبية املا جديدا ، وعد نصرا عظيما للاسلام « لم ينتفع المسلمون بمثله وطار فى الآفاق ذكره ، وصار حديث المحافل » اذ أنه أوضح مدى قدرة المسلمين على مجابهة القوى الصليبية ، وانتزاع أقوى حصونهم منهم ، كما أن هذا الانتصار مهد الطريق أمام الذين أعقبوا زنكى لاكمال عمله ، واسقاط بقية الامارات الصليبية ، واحدة تلو الاخرى .

كما أدى الى القضاء على الحواجز التى أقامها الصليبيون فى هذه المنطقة والتى أعاقت الاتصال بين سلاجقة آسيا الصغرى ، وسلاجقة العراق ، وبلاد فارس .

وأما فيما يتعلق بالعالم المسيحى ، فقد أثار سقوط الرها مخاوف المؤسسات الصليبية فى أوروبا ونبههم الى خطورة الاوضاع فى الجزيرة والشام وتحولها الى اتجاه مضاد لمصالحهم واهدافهم ، لذلك نشطوا فى الدعوة الى حملة صليبية جديدة ، وصلت الشام بعد مقتل زنكى ، وتولى ابنه نور الدين زعامة المسلمين فى الشام ، وعرفت بالحملة الصليبية الثانية ، كما أن سقوط هذا الموقع الهام دفع ريموند ، أمير انطاكية الى الاعتقاد بعدم قدرته على مجابهة زنكى بمفرده ، والذهاب ـ بالتالى ـ الى القسطنطينية لاعلان تبعيته للامبراطور البيزنطى (مانويل) الذى وعده بمساعدته ضد غريمه .

فاذا ما انتقلنا الى امارة زنكى وجدنا كيف كان لسقوط الرها دور كبير فى تخليصها من مصدر قريب للخطر كان يهدد المنطقة دوما بشن الغارات « فأصبح أهلها بعد الخوف آمنين » . كما أن هذا النصر مهد الطريق أمام زنكى للاستيلاء على الحصون الصليبية المجاورة ، وفرض سيطرته التامة على ممتلكات أعدائه فى المنطقة .

وفوق هذا وذاك حقق فتح الرها نتائج هامة بالنسبة لزنكى نفسه ، اذ عزز مركزه تجاه السلطان السلجوقى ، والخليفة العباسى الذى أنعم عليه بعدد كبير من الالقاب الشرفية كالأمير المظفر ، ركن الاسلام ، زعيم جيوش المسلمين ، ملك الأمراء ، أمير العراقين والشام ، كما أن هذا النصر جعل من زنكى أمام المسلمين ، والمدافع عن الدين ، والمجاهد فى سبيل اعلاء كلمة الله .

استغل زنكى فرصة سقوط الرها ، واضطراب أمور الصليبيين فى المنطقة وأخذ يسعى للاستيلاء على مراكزهم وحصونهم هناك ، فاتجه الى سروج التى تخلت عنها حاميتها مولية الفرار واستولى عليها ، وما لبثت الحصون المجاورة أن أخذت تسقط فى يديه واحدة تلو الاخرى . ويقول ابن القلانسى : « وجعل ـ زنكى ـ لا يمر بعمل من أعمالها ، ولا معقل من معاقلها ، الا سلم اليه فى الحال » . ولم يوقف زنكى عن تقدمه سوى نبأ اغتيال نائبه فى الموصل مما دفعه الى وقف عملياته والعودة الى هناك لاقرار الامور فى مقر حكمه .

ما لبث سكان الرها من الارمن أن دبروا ـ فى العام التالى ـ مؤامرة استهدفت الفتك بالمسلمين واعادة المدينة الى السيطرة الصليبية بعد القيام باستدعاء جوسلين ، الا أن زنكى سرعان ما تمكن من كشف

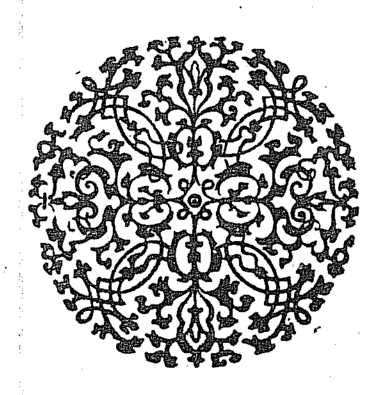
هذه المحاولة الخطيرة ، والقبض على مدبريها واعدامهم ، ثم أعقب ذلك بنفى عدد كبير من الأرمن كيلا يتاح لهم مرة أخرى أن يسعوا الى طعن المسلمين من الخلف ، وتسليم أهم مواقعهم لقمة سائغة للغزاة الصليبيين .

استأنف زنكى سعيه للسيطرة على دمشق وتوحيد الجبهة الاسلامية فى قلب الشام لمجابهة الصليبيين هناك ، وتحقيق مزيد من الانتصارات ، الا أن مقتله عام ٥٤١ خلال حصاره لاحدى المواقع المطلة على الفرات وضع حدا لهذه المحاولة التى كان زنكى يطمح لتحقيقها منذ بداية حكمه .

—— ● ——

وهكذا تبدو لنا واضحة أهمية الدور الذى لعبه زنكى فى تاريخنا الاسلامى ، اذ يعتبر من أولئك الرواد الذين سعوا لتجميع القوى الاسلامية وفق برنامج مرسوم لمجابهة تزايد الخطر الصليبى الذى لم توقفه المحاولات الجدية التى سبقت زنكى وبخاصة تلك التى تمت على يد كل من (مودود بن التونتكين ٥٠٢ — ٥٠٧) و (ايلغازى وبلك الارتقيين ٥١٢ — ٥١٨ هـ) و (آق سنقر البرسقى ٥١٨ — ٥٢٠ هـ) .

ومن المرجح أنه لو تمكن زنكى من فتح (دمشق) وانجاز محاولته لتوحيد الشام ، ولو لم يقتل — وهو فى قمة انتصاراته ضد الصليبيين — لكان قد استطاع أن يستكمل الاجزاء المتبقية من برنامجه ، ولتكاملت أمام الباحث الحديث الصورة الواضحة للدور الذى قام به فى التاريخ الاسلامى ، وهو دور فاصل ، تتضح خطورته اذا ما عرفنا أن نور الدين محمود ، ومن بعده الناصر صلاح الدين ، لم تكن جهودهما سوى اتمام للعمل الذى بدأه زنكى ، وفى نفس الطريق .



---

١) أنظر الاسرة المجاهدة ، الوعى الاسلامى عدد ٥٢ — السنة الخامسة .
٢) أنظر كتاب (عماد الدين زنكى) للمؤلف ، وهو اطروحة ماجستير نشرته الدار العلمية فى بيروت عام ١٩٧١ م .

من رياض السيرة :

عروس ، ومهر ، وحفل عرس

عن ربيعة الاسلمى قال ــ كنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا ربيعة الا تزوج قال قلت والله يا رسول الله ما أريد أن أتزوج ما عندى ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلنى عنك شىء فاعرض عنى فخدمته ما خدمته ثم قال لى الثانية يا ربيعة الا تزوج فقلت ما أريد أن أتزوج ما عندى ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلنى عنك شىء فأعرض عنى ثم رجعت الى نفسى فقلت والله لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما يصلحنى فى الدنيا والآخرة أعلم منى والله لئن قال تزوج لأقولن نعم يا رسول الله مرنى بما شئت قال فقال يا ربيعة الا تزوج فقلت بلى مرنى بما شئت قال انطلق الى آل فلان حى من الانصار وكـــان فيهم تراخ عن النبى صلى الله عليه وسلم فقال لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلنى اليكم يأمركم أن تزوجونى فلانة لامرأة منهم ، فذهبت ، فقلت لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلنى اليكم يأمركم أن تزوجونى فلانة فقالوا مرحبا برسول الله وبرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا يرجع رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بحاجته فزوجونى وما سألونى البينة فرجعت الى سول الله صلى الله عليه وسلم حزينا فقال لى مالك يا ربيعة فقلت يا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بحاجته فزوجونى والطفونى وما سألونى البينة فرجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حزينا فقال لى مالك يا ربيعة فقلت يارسول الله أتيت قوما كراما فزوجونى وأكرمونى والطفونى وماسألونى بينة وليس عندى صداق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بريدة المسلمى اجمعوا له وزن نواة من ذهب قال فجمعوا لى وزن نواة من ذهب فأخذت ما جمعوا لى فأتيت به النبى صلى الله عليه وسلم فقال اذهب بهذا اليهم فقل هذا صداقها فأتيتهم فقلت هذا صداقها فرضوه وقبلوه وقالوا كثير طيب قال ثم رجعت الى النبى صلى الله عليه وسلم حزينا فقال يا ربيعة مالك حزين فقلت يا رسول الله ما رأيت قوما أكرم منهم رضوا بما آتيتهم وأحسنوا وقالوا كثير طيب وليس عندى ما أولم قال يا بريدة أجمعوا له شاة قال فجمعوا لى كبشا عظيما سمينا فقال لى رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم اذهب الى عائشة فقل لها فلتبعث بالمكتل الذى فيه الطعام قال فأتيتها فقلت لها ما أمرنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت هذا المكتل فيه تسع آصع شعير لا والله ان أصبح لنا طعام غيره خذه فأخذته فأتيت به النبى صلى الله عليه وسلم وأخبرته بما قالت عائشة فقال اذهب بهذا اليهم فقل ليصبح هذا عندكم خبزا فذهب اليهم وذهبت بالكبش ومعى أناس من أسلم فقال ليصبح هذا عندكم خبزا وهـــذا طبيخا فقالوا أما الخبز فسنكفيكموه وأما الكبش فاكفونا أنتم فأخذنا الكبش أنا وأناس من أسلم فذبحناه وسلخناه وطبخناه فأصبح عندنا خبز ولحم فأولمت ودعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم .



لم يعرف الانسان النقد عند بدء ظهوره على سطح المعمورة حين كان يعيش فى الغابات ويجد طعامه وكساءه ، ولما تعلم الزراعة وانخرط فى سلك الجماعة استخدم نظام المبادلة بين سلعة وأخرى ، ومن السلع التى تم التبادل بها المحار فى بلاد الصين والثيران فى بلاد اليونان ، والشاى والأرز فى بلدان أخرى ، لكن هذه السلع قابلة للتلف أو صعبة النقل كالثيران ولهذا اقتضى الأمر أن يعتمد على سلعة تجمع بين المنفعة وطول البقاء ، وقابلية التجزئة وسهولة النقل فابتكر التعامل بالمعادن من ذهب وفضة لعظم مزاياها .

وقد تعامل المصريون القدماء بالذهب فى القرن الثلاثين قبل الميلاد على هيئة حلقات ذات وزن معين للاشياء الثمينة ، أما النحاس فقد كان للمبادلات البسيطة . واستخدمت بابل فى بلاد العراق القديمة قطعا من الفضة تزن الواحدة منها جزءا من الستين من الرطل .

ويعتبر النقد الذهبى والفضى الذى صدر فى عهد الملك كرستوس ملك ليديا بآسيا الصغرى وقد حكم بين عامى ٥٦١ — ٥٤٦ ق.م أول عملة فى التاريخ ، وانتشرت بعدها فى بلاد اليونان حيث تم تطويرها فى رسمها وتصميمها .

وكلمة الدينار يونانية الأصل وهو وحدة العملة الذهبية ووزنه ٤ر٢٥ جراما .

أما الدرهم (الدراخما) فيونانى أيضا ، ويصنع من الفضة ووزنه ٢ر٩٧ جراما ، أما الفلس فكان وزنه



نقود معاوية بن أبى سفيان

يعادل ١ : ٤٨ من الدرهم ويصنع من النحاس .

ويقول المؤرخ البلاذرى ان دنانير هرقل كانت ترد على أهل مكة فى الجاهلية بينما ترد الدراهم الساسانية اليها أيضا وكانت قريش تزن الفضة بوزن تسميه درهما وتزن الذهب بوزن تسميه دينارا وكل عشرة من أوزان الدراهم تعادل سبعة من أوزان الدنانير ووزن الشعيرة يعادل ١ — ٦٠ من الدرهم .

وكان أهل يثرب يتعاملون بالدراهم منذ قدم الرسول عليه الصلاة والسلام فأرشدهم الى وزن مكة ، ويطلق على المثقال من الذهب دينارا ويعادل اثنين وعشرين قيراطا الا حبة ، ويزن اثنين وسبعين حبة شعير ، وفرض رسولنا عليه أفضل الصلاة والسلام زكاة الاموال فجعل فى كل خمس أواق من الفضة الخالصة خمسة دراهم وهى النواة ، وفرض فى كل عشرين دينارا نصف دينار .

وقد ضرب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الدراهم على نسق الدرهم الكسروى وشكله وأضاف اليه عبارة « الحمد لله » وفى بعضه « محمد رسول الله » وفى الآخر « لا اله الا الله وحده » وكان وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل ، كما ضرب الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان دينارا وعليه نقش تمثال يتقلد سيفا ولما أعلن عبد الله بن الزبير استقلال الحجاز وانفصالها عن الدولة الأموية ضرب دراهم مدورة نقش على أحد وجهيها « محمد رسول الله » وعلى القفا أمر الله بالوفاء والعدل » وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم فى العراق ، وجعل وزن كل عشرة منها سبعة مثاقيل .

ولما استقر الأمر لعبد الملك بن مروان بعد قتل ابن الزبير وأخيه ضرب الدينار العربى الموحد الذى بعث به الى الولايات الاسلامية وذلك فى عام ٧٤ هـ وقد اختلفت الروايات التاريخية حول سبب ضرب هذا الدينار فقيل ان خالد بن يزيد بن معاوية قال له « ان العلماء من أهل الكتاب الأول يذكرون أنهم يجدون فى كتبهم أن أطول الخلفاء عمرا من قدس الله تعالى فى درهم ، أما الرواية الثانية فهى الكتاب الذى بعث به الخليفة الى ملك الروم وذكر فيه سورة الاخلاص مما أغضب الامبراطور ، وكتب لعبد الملك أن لم تركوا هذا ذكرنا نبيكم فى دنانيرنا بما تكرهون « فعظم ذلك على عبد الملك واستشار الناس فأشاروا عليه بضرب عملة عربية وترك استخدام الدنانير الرومية والراجح أن عبد الملك رأى أن الدولة العربية وقد عظمت مكانتها السياسية والحربية جدير بها أن تستقل بضرب عملة عربية عنوانا لاستقلالها الاقتصادى ، وتحررا من رابطة بيزنطة .

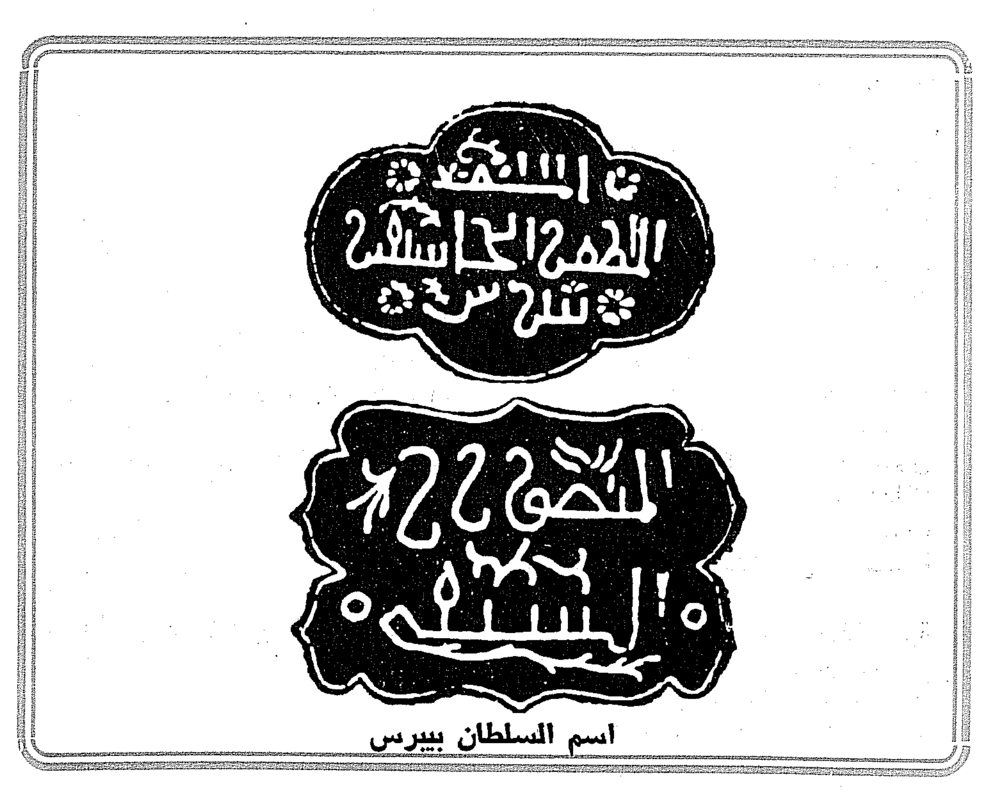
بالسكة (١)

وبعث الخليفة الى الحجاج بالعراق فسيره الى الآفاق ليضرب بها الدراهم والدنانير ، وعلى الولاة فى الامصار أن يكتبوا الى الخليفة بما يجتمع فغلبهم من المال كى يحصيه عندهم وتحمل اليه الاموال أولا بأول وقدر ضريبة مقدارها . درهما عن كل مائة درهم مقابل ثمن الحطب وأجر الضرب ونقش على الدينار الاموى فى الوجه « قل هو الله أحد » وعلى القفا « لا اله الا الله » ونقش فى الطوق « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

وعندما بدأ عبد الملك تفكيره فى ضرب الدينار العربى عمد الى نقد من النحاس لهرقل ملك الروم وابنيه ، كان يضرب فى مدينة الاسكندرية مصر آنذاك ، وهذا النقد لم يكن يحمل تاريخا فضرب على مثاله ديناره الذهب عدا بعض التغيير فاستبدل رسم الصلبان بالحلقات والكرات مما وجد على الوجهين وأحاطهما بكلمات التوحيد بخط كوفى بسيط ، وكان هذا أول نقد عربى يحمل الشعائر الاسلامية ، ولم يذكر فى الدينار تاريخ الضرب .

وقد أدخلت تحسينات على هذه العملة ، واستبدلت النواقص وزيد على أحد الوجهين تاريخ الضرب بحروف كوفية ورفع الحرفان اللاتينيان اللذان كانا منقوشين فى الدينار الاول واستبدلت صورة الامبراطور وابنيه بنقش يمثل صورة الخليفة وقد تقلد سيفه ، أما المرحلة الثالثة فكانت عام ٧٧ هـ حين أصبح الدينار عربيا خالصا لا يحمل الا كتابات كوفية ، واستمر هذا الطراز سائدا حتى نهاية الدولة الاموية .

والجدير بالذكر أن الدينار الذهبى الموحد الذى ضربه الخليفة عبد الملك لم يسمح بضربه فى غير الفسطاط بمصر ، وفى دمشق بالشام ، وكان وزن الدرهم ستة دوانق ، وتسمى خفافا أى خفيفة الوزن ، وبعضها ثقالا ، كل درهم ثمانية ، وتسمى البغلية « بلدة قريبة من الحلة بالعراق » أو نسبة الى رجل يدعى بغل ، كان يقوم بضربها ويعادل الدانق قيراطين ، والقيراط أربع حبات من حبات الحنطة كما وجدت دراهم وزنها أربع دوانق ، ولما أرادوا جباية الخراج جمعوا بين الدرهمين « الدرهم الذى يزن أربع دوانق » والذى يزن ثمانية دوانق ،



اسم السلطان بيبرس

وأخذ معدل الوزنين فصار الدرهم الشرعى يزن ستة دوانق . ولهذا قال المؤرخون ان دنانير ودراهم عبد الملك ذات ثلاث فضائل ، فان كل سبعة مثاقيل تزن عشرة دراهم ، وأنه عدل بين صغار الدراهم وكبارها فصارت ستة دوانق ، والثالثة أنها موافقة لما سنه الرسول عليه الصلاة والسلام بغير وكس ولا شطط » وهكذا أصبح الدرهم الشرعى الذى اجتمعت عليه الأمة يزن خمسين حبة وخمسا حبة من الشعير أو الحنطة .

وقد ضرب الوليد بن عبد الملك أجزاء من الدينار فضرب نصف دينار يزن ٢ر١٣ جراما وضرب ثلث دينار يزن وزنه ٤٢ر١ جراما ولم يضع الأمويون أسماءهم ، ولا أسماء أحد من أبنائهم أو قوادهم على الدينار كما فعل العباسيون فيما بعد ، ولعل عبد الملك الأموى هو الخليفة الذى وضع صورته على الدينار كما كان يفعل البيزنطيون ، ثم تركه عندما ترك طراز نقودهم ، ونظرا لعدم تسجيل اسم الخليفة على الدينار فقد أدى هذا الى الالتباس اعتمادا على التاريخ فقط فاذا توفى أحد الخلفاء فى سنة ما وتولى خليفة آخر مكانه ، فهذا الدينار اذا عثر عليه لا يمكن نسبته الى خليفة معين ، بل يمكن نسبته الى كليهما .

ولم يذكر الأمويون مدن الضرب الا على الدينار الذى ضرب فى مدينة طرابلس الغرب والقيروان بالمغرب الأوسط ، وظلت الدنانير العربية الاندلسية ينقش عليها الكتاب باللغتين العربية واللاتينية .

الدينار العباسى :

وحين تولى أبو العباس السفاح الخلافة العباسية ضرب دينارا فى مدينة الانبار اعلانا لزوال الدولة

الأموية ، وميزه عن الدينار الأموى بحذف سورة الاخلاص التى كانت تكتب فى مركز الوجه ونقش محلها « محمد رسول الله » ، كما ظل حجم الدينار ووزنه وقطره كما كان أيام الأمويين ، ولم يذكر مدينة الضرب ، أو اسمه اقتداء بالأمويين .

وقد مر الدينار العباسى بثلاث مراحل **المرحلة الأولى** تبدأ من ١٣٢ — ٢١٨ هـ وتبدأ **المرحلة الثانية** من ٢١٨ — ٣٣٤ هو **والثالثة** من ٣٣٤ — ٦٥٦ هـ وفى **المرحلة الأولى** أدخل المأمون تعديلا على ما كان يكتب على الوجه فاستبدله بما كان يكتب على القفا فدون فى مركز الوجه « لا اله الا الله وحده لا شريك له » وفى مركز القفا « محمد رسول الله » واستحدثت كلمة الامام كما أدخلت كتابة بين الطوق والمركز عرفت باسم النطاق فدون فى نطاق الوجه « بسم الله ضرب هذا الدينار بمدينة كذا سنة كذا .. » وفى نطاق القفا كتبت عبارة « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

وفى **المرحلة الثانية** استمر الدينار يضرب على نمط واحد على آخر ما وصل اليه زمن المأمون فذكر اسم الخليفة ، ومدينة الضرب ، وباقى النصوص ، ولم يطرأ على وزن الدينار أو قطره الا شىء يسير من التبدل .

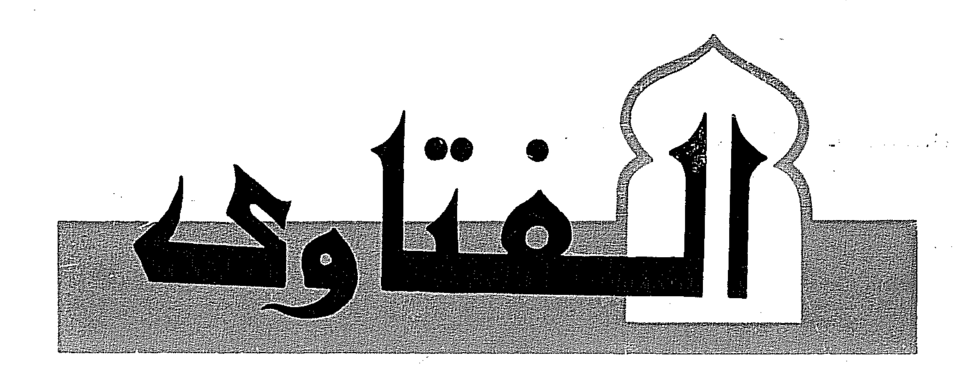
وفى خلال هذه نقشت أسماء أولياء العهد ، وأمراء البيت العباسى كما دونت على النقود أسماء الحكام الذين استأثروا بالسلطة دون الخلفاء من بويهين وغيرهم كما ضرب بعض الخلفاء أسماءهم مع أسماء أبنائهم على العملة .

وفى **المرحلة الثالثة** كتبت أسماء حكام السلاجقة ، كما نقشت أسماء خلفاء بنى العباس أيضا . وضرب حكام الولايات أمثال ابن طولون والى مصر عملة تحمل اسمه اعلانا لاستقلاله بحكم مصر ، وضرب الاخشيديون ثم الفاطميون عملة باسمهم أيضا .

وقد كان الدينار العربى عملة دولية ونقدا ممتازا فى القرن العاشر الميلادى تعامل به أهل جنوب شرق آسيا ، كما أن الدينار الأندلسى كان عملة متداولة فى ممالك أوربا الى جانب العملة الفرنسية .

وكانت العملة الفاطمية قبسا للعملة التى ضربها البنادقة ، كما استعانوا بصناع من العرب والمسلمين للعمل فى دور سك النقود .

وهكذا كان الدينار العربى ذا عيار من الذهب مرتفع ووزن ثابت لا يقل عن ٢٥ر٤ جراما وله مكانته الدولية بسبب الرخاء الاقتصادى ، والمكانة السياسية التى وصلت اليها الدولة الاسلامية فى هذه الحقبة الزاهرة من تاريخنا المجيد .



المكافأة ميراث

السؤال :

توفى رجل عن زوجته وبنته ووالده ووالدته ، وترك مكافأته عن مدة خدمته فى الحكومة ، فكيف توزع هذه المكافأة ؟

عدى الهندى — دبى

الاجابة :

هذه المكافأة تعتبر ميراثا عن المتوفى وبناء على هذا توزع طبقا لأحكام المواريث فى الشريعة الاسلامية فيكون لزوجته ثمنها فرضا ولابنته نصفها فرضا ، ولأمه سدسها فرضا لوجود الفرع الوارث ولأبيه الباقى فرضا وتعصيبا .

ميراث ووصية واجبة

السؤال :

توفى رجل عن زوجة وأربعة أبناء وثلاث بنات ، وعن ولدى بنت توفيت فى حياته ، فما نصيب كل من هؤلاء فى التركة ؟

وهبة على — القاهرة

الاجابة :

تقسم هذه التركة خمسة وتسعين سهما : منها سبعة أسهم لولدى البنت المتوفاة وصية واجبة بالسوية بينهما ، والباقى هو الميراث ، فتعطى الزوجة منه الثمن لوجود الفرع الوارث وهو أحد عشر سهما ، ويخص كل ابن أربعة عشر سهما ، وكل بنت سبعة أسهم .

تسعير مواد التموين

السؤال :

هل يجوز شرعا للحاكم أن يحدد ثمن بيع بعض المواد الخاصة بالتموين ؟

سعيد الرزاز ــ حلب

الاجابة :

اذا اقتضت المصلحة العامة تدخل الحاكم لوضع سعر معين لسلعة من السلع والزام التجار البيع للجمهور بهذا الثمن ومعاقبتهم اذا خالفوا كان ذلك جائزا شرعا رعاية للمصلحة واستنادا للقاعدة الشرعية العامة (لا ضرر ولا ضرار) وبناء على هذا يحرم على التاجر أن يبيع بأعلى من السعر الذى قرره ولى الأمر ..

غسل شعر المرأة

السؤال :

أنا سيدة متزوجة وموظفة ومواظبة على الصلاة والحمد لله ، وأجد عند اغتسالى من الجنابة مشقة شديدة فى غسل شعر رأسى حيث يصعب على تسويته وتزيينه بعد الغسل كما كان ، فهل يكفينى صب الماء عليه دون نقضه ؟

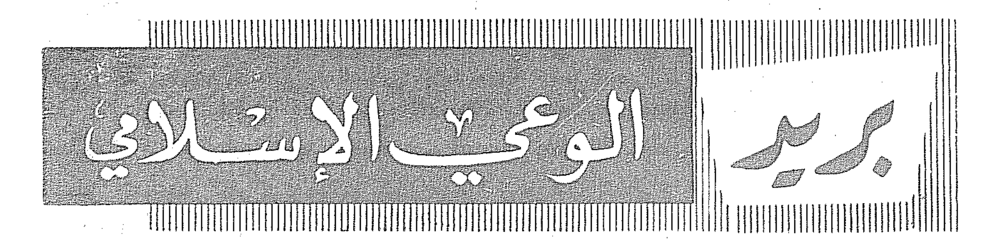
مريم الفهد ــ الكويت

الاجابة :

يجب عند الاغتسال من الجنابة تعميم بشرة الجسم بالماء عند جميع الأئمة ، ومن البشرة بشرة الرأس قال على رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من ترك موضع شعرة من جنابة لم يصبها الماء فعل الله به كذا وكذا من النار) رواه أحمد ..

ومثل غسل الجنابة الغسل من الحيض والنفاس ، فيجب على المرأة فى الغسل ايصال الماء الى منابت شعر رأسها فاذا كان الماء يصل الى هذه المنابت دون حاجة الى نقض الضفائر أو تسريحة الشعر مثلا لم يلزم نقضها ولا اعادة التسريح . روى أن أم سلمة قالت يا رسول الله انى امرأة أشد ضفر رأسى أفأنقضه للغسل من الجنابة (وفى رواية للحيض والجنابة) فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا . انما يكفيك أن تحثى على رأسك ثلاث حثيات من ماء ، ثم تفيضى عليك الماء فاذا أنت قد طهرت .

أما اذا لم يصل الماء الى منابت الشعر الا بنقض الضفائر مثلا فيجب نقضها ..



مسلم حائــر

السؤال :

وقعت فى فاحشة بينة ، وترتب عليها طلاق زوجة من زوجها ، وطــلاق زوجتى منى ، وقد تزوجت بالسيدة الأولى بعد تطليقها فماذا أصنع للتكفير عن ذنبى ؟

هـ ــ ش ــ البحرين

• • • • • • •

الاجابة :

ان هذه الفاحشة من كبائر الاثم لما فيها من عدوان على العرض ، وانتهاك لحرية الأسرة واجتراء على شرع الله وحدوده ، وهى من أكبر الكبائر التى توجب لفاعلها الخزى فى الدنيا ، والعذاب الشديد فى الآخرة .

ولكن الله سبحانه فتح باب التوبة للمذنبين وأمرهم بالمبادرة اليها ، ووعدهم بقبول توبتهم اذا هم أخلصــوا وأنابوا واستقاموا قال تعالى فى سورة الفرقان بعد أن ذكر الفواحش ومنها الزنا (الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحــا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا) .

وعليك أن تديم الاستغفار والعمل الصالح ، وترجو من الله أن يلهم صاحب الحق الذى اجترأت على عرضه التجاوز عنك يوم الحساب .

قبلة بيت المقــدس

السؤال :

كيف توجه النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة الى بيت المقدس مــع انه لا توجد آية فى القرآن الكريم تفرض عليه ذلك وهل كان يتوجه اليها فى مكة قبل الهجرة ؟

الفاضل بن على ــ المغرب

• • • • • • •

الاجابة :

الذى عليه جمهور الفقهاء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى

فى مكة بعد فرض الصلاة عليه متوجها الى الكعبة المشرفة ولم يزل يصلى اليها طول مقامه بها ، ولما هاجر الى المدينة أوحى اليه بوحى غير متلو ان يصلى الى صخرة بيت المقدس ، فصلى اليها ستة عشر شهرا ، أو سبعة عشرا شهرا على ما رواه البخارى ، ثم نسخ الله ذلك وأمره أن يستقبل الكعبة فى صلاته قال تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .. وقد أنكر اليهود ذلك ، وطعنوا فى الاسلام ، وقالوا إن محمدا يأمر أصحابه بشىء ثم ينهاهم عنه، فأنزل الله عز وجل « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » ..

السؤال :

تاريخ الطبرى

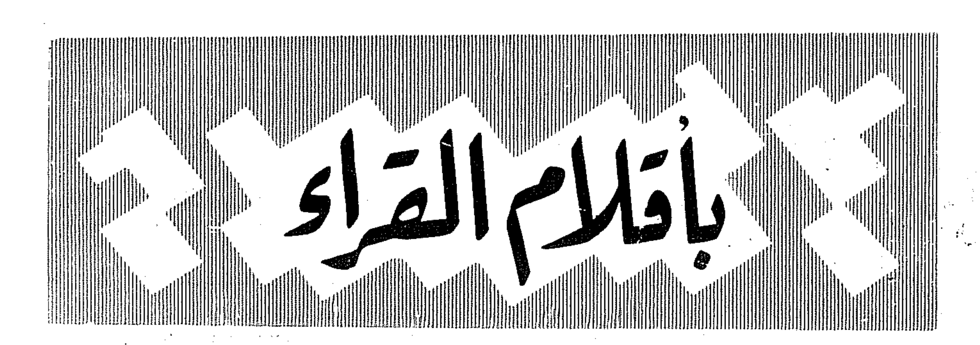
قرأت فى تاريخ الطبرى أن آدم عليه السلام هبط من الجنة فى الهند ، وان حواء هبطت بجدة ، فجاء فى طلبها حتى اجتمعا ، فازدلفت اليه حواء ، فلذلك سمى المكان المزدلفة ، وتعارفا بعرفات ، فلذلك سميت عرفات ، فهل هذا صحيح ..

عز الدين فياض — السودان

• • • • • • •

الاجابة :

حرص الامام الطبرى فى كتابه (تاريخ الأمم والملوك) على تسجيل الروايات وجمعها دون الاشارة الى توثيقها أو تضعيفها ، ولم يذكر المؤلفات التى نقل عنها ، ويؤخذ عليه انه ذكر خرافات وأسرائيليات ولم يعلق عليها بما يدل على تكذيبه لها ، وأغلب الظن أنه سجل مثل هذه الخرافات لأنها مما سمعه أو قرأه دون تعليق لأنه رسم لنفسه خطة وهى أن يسجل الروايات دون تعقيب ، أشار الى هذا فى مقدمة كتابه فقال : انه سيذكر أخبارا عن الماضين قد ينكرها القارىء ، أو يستسيغها السامع ، فليعلم أن اللوم على من نقلت عنهم ، وأننى انما سجلت ما سمعت ، أو قرأت والمنصفون من العلماء مع اعترافهم بقيمة الكتاب وقدره أخذوا عدم تمحيصه لبعض الأخبار والروايات وعدم تعقيبه عليها بما يبين درجتها من الصحة والضعف ، وهذا الذى ورد فى الرسالة من الخرافات التى لا يعرف لها أصل ولا سند .



ذكرى الهجرة الخالــــدة

كتب الأستاذ خير الله التركستانى تحت هذا العنوان يقول :

استقبلت الصحارى والجبال والوديان موكب النور الذى تغشى أمامه كل الأعين المريضة والحاقدة الزائغة عن الحق ، وكان خلفه بعوث من قريش تحلـم بالجعل الذى فرضه على أنفسهم كبارها لمن يلحق بالركب ويثنيه عن غايته الكبرى. كلهم كانوا بمكة فى عجب وفى غيظ ونقمة ، والصاحبان ضمهما مكان أمين (اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) ..

اذن لقد انتصرت الفكرة ، وانتكست كل أحلام قريش وفشلت مساعيها ، وخذل كبراؤها ، وانها لتنتظر اليوم الذى يأتى وترى فيه أن ذلك الرجل والسيد المنتظر ، خاتما للأنبياء والمرسلين ، أكمل خلق الله وأعظمهم شأنا ومقاما .

وفى يثرب ، المدينة التى طيبها الله جل شأنه لرسوله الاعظم ، كانت قـد سبقته اليها البشائر والآمال من أهلها ، الأوس والخزوج ، وقد نذروا أنفسهم لنصرة هذا القادم العظيم عليهم ، يحمل أقدس رسالة ، ويريد أنبل غاية ، ويسعى بآيات ربه البينات لاصلاح العالمين .

٢٢ وعلى مشارف طيبة الطيبة بضاحية (قباء) توقف الموكب النورانى حيث صلى محمد الهادى وصاحبه ومن سارع فى مقابلتهما صلاة الحمد والشكر ، وأقام الرسول عليه الصلاة والسلام آنئذ أول مسجد أسس على التقوى فكان تفسيرا أوليا للفكرة التى انتصرب : أن يعبد الله وحده ، وأن يجتمع الناس على هـداه وعلى اصلاح شئونهم .. أول مسجد يلتقى فيه المسلمون فى مساواة (كأسنان المشط) منيبين الى بارئهم ، خاشعين بين يديه ، يصـل بعضهم بعضا اخـاء وتراحما .

وما هى الا نحو عشر سنين حتى دخل محمد عليه الصلاة والسلام مكـة التى طورد منها ، دخلها والمؤمنون فاتحا بالقرآن ، يهدم الأصنام ويبدد ظلمـات الجهل ، ويطهر البيت العتيق من رجس الأوثان ، فلا يعبد من دون الله أحد (لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد) ..

ان لنا معشر المسلمين عظات بالغات فى هذه الهجـرة التى منهـا كانت الانطلاقة الاولى الى أفضل وجود ، وأكمل حياة ، فلنراجع أعمالنا ، ولنتعظ بجهاد المؤمنين المخلصين ، ولندعو الى روحانية الدين الحنيف التى تقربنا الى الغاية من وجودنا .. وقد اصطلحت المادية اليوم لمقاومة مبـادىء الحق والعدالـة والايمان .

وحرى بنا أن نجند أنفسنا لندرأ أخطار تلك المادية ، وأن نكون فى هجرة دائمة لنشر الدين والتمسك بفضائله وأهدابه والذود عن حياضه .

الشـــــباب

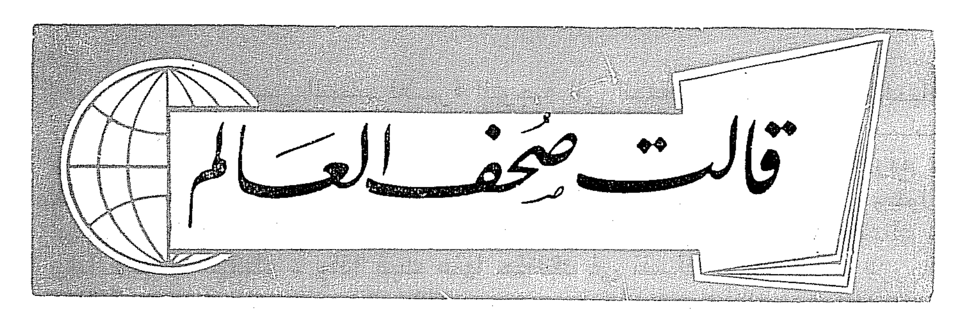
يقول الأستاذ محمد سيد أحمد المسير تحت هذا العنوان :

ان الشباب فى العالم كله تتصارعه الآن مذاهب شتى ونزعات مختلفة .. وهو من هذا وذاك فى حيرة وقلق واضطراب ، والقائمون على أمر الشبـــــاب يحاولون ، تحليل ذلك وتعليله ولكنهم جميعا فى غفلة عن العنصر الأساسى الذى أفتقده العالم ، وكان الفراغ منه سببا فى كل ما نراه من انحراف .. السـلوك وخرافة الفكر .. انه الايمان صانع المعجزات ، والقادر وحده على مقاومة كل اغراء وارهاب بشخصية متفاعلة مع الحق بعيدة كل البعد عن التقليد الأعمـى والمجاملة الحمقاء .. ولما كان الشباب فى كل أمة هم عمد حياتها ، وقوة نهضتها، فمن الوفاء لهم ولأمتهم أن تتوافر لهم من خلال البيئة والمجتمع ، من فضائــــل العادات ، وكريم التقاليد ، ومناهج التربية القويمة ما يكفل لهم أن يثبوا أقويـــاء مبرئين من أسباب الضعف ودواعى الانحلال .. كذلك من الخير أن يعرف كل فرد موقعه الذى يجب أن تبرز فيه شخصيته ، وتحقق لها ولمجتمعها الأمل الذى ترنو اليه .. فمواقف الرجولة ومواقف الأنوثة كل منها متى أكد دوره الرئيسى فـــى معركة الحياة استقلالا وتكاملا كان جديرا بلقب البطولة الرائعة .. فمثلا الأمومة المؤمنة التى تولى وجهها شطر المبادىء والمثل ، وتغرس فى بنيها روح الايثـــار والتضحية ، وتفجر فى أبنائها ينابيع الخير — هى بحق عبقرية فذة وبطولة نادرة نادرة لا تقل عن بطولة الرجولة فى ساحة الوغى .

ان عصر الكهوف قد ولى ، وبلغت الانسانية رشدها وتخلصت من كل آثاره اللهم الا من شريعة الغاب التى ما زالت سائدة فى مثل فلسطين وجنوب افريقيا ، فاذا حاول شباب اليوم استعادة هذا الماضى بكل مآسيه بأن يعيشوا عـــــراة الأجسام رجالا ونساء ، ويمارسوا الجنس كحيوانات الغاب ، ويتخلوا عن كرامة الانسان بتلك الوحشية الفاحشة .. فهذا وباء يجب أن يحاصر ويحصر ..!!

ان مسئولية هذا الانحراف تقع أولا على المجتمع والأسرة ، حيث لا يوجـد الناصح الأمين ، وحيث وئد صوت الحق وحيث تفككت العرى وأصبحنا أمـــــام مهزلة دعاوى الحرية الهوجاء ، والمجتمع المفتوح أو المفضوح على حد سواء .

يحاول بعض الكتاب أن يجعل من ظاهرة الهيبز رد فعل وتمردا على المجتمع الذى يعيشون فيه حيث ساءت العلاقات وتقطعـــت الاواصر .. وعلى فـــرض التسليم الجدلى بذلك فان هذه الظاهرة ليست بالظاهرة الصحية ، فلم تتخذ موقف التصحيح لمجتمعها ، ولم تحاول النهوض به من وهدته ، بل كانت عاملا مساعدا — ان لم تكن عاملا أساسيا — على هدم المجتمع وتفتيت قيمه الراشدة ، وتحطيم معالمه الانسانية .. واذا توجهنا الى الاسلام نستلهم منه الرشد نجد أنه رســـم صورة ايجابية وضاءة لمحاولة تقويم المجتمع الفاسد ، واتخذت تلك الصــــورة عناوين رئيسية فى الاسلام وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو بمعنى آخر التواصى بالحق أو التناصح .. وبهذا استحقت الأمة المسلمة الخيرية كما فـــى قوله تعالى : **((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله))** وذلك لأنها تملك القدرة والحيوية على التجديد والتجدد بأصالة وموضوعية تتوخى حرية الرأى الناضج والنقد البناء حرصا على سلامة المجتمـــع وأمنه ..



عن مجلة الأصالة الجزائرية :

بما أن الشريعة الاسلامية تعتبر الأسرة الخلية الأساسية للحياة الاجتماعية وتربية النشء .

وبما أن نظام الأسرة فى البلدان العربيــة والاسلامية يواجه أخطار التفكك والانحلال الذى يظهر بصفة خاصة فى سلوك الشـــباب . وذلك بسبب أزمات ناشئة عن تطوره السريع من جهة ، وتسرب تيارات ثقافية وحضارية أجنبية لا يتماشى بعضها مع الأسس الأصيلة لهذا النظام .

وبما أن وجود نظام متماسك للأسرة يمثل القاعدة الاساسية ، والشرط الأول للانطلاق فى بناء شخصيتنا الوطنيــة والحضارية المتميزة والمتفتحة فى نفس الوقت ، وبما أن الثقافة والتوعية يجب أن تصل الى داخل هــذه الأسرة لقيامها بتربيــة اسلامية بناءة سوية ، فان الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى يوصى بما يلى :

١ ــ وجوب تعليم المرأة حتى تتمكن من القيام بمسؤولياتها فى تربية النشء ، والمشاركة الفعالة فى تطوير مجتمعاتنا النامية ، وذلك بايصال الثقافة الى داخل الأسرة بالوسائل المختلفة ، ومشاركة المرأة فى الحياة الثقافية داخل المســاجد والمعاهد والندوات مع تشجيع المنشورات المتخصصة فى مشاكل التربية والأسرة

٢ ــ التأكيد على ضرورة توحيد القوانين الخاصة بالأسرة فى جميع البــلاد لاسلامية لضبط أنظمتنا وتشريعاتنا فى هذا الميدان طبقا لمبادىء الاسلام .

٣ ــ تشجيع الدراسات الاجتماعية والعلمية الخاصة بالأسرة فى بلادنا لعربية والاسلامية لاحصاء مشاكلها ، وفهم ظروفها واقتراح الحلول اللازمة لها .

٤ ــ مقاومة التأثيرات والحركات التى تهدد كيان الأسرة الاسلامية ســـواء كانت ثقافية أو مادية أو اعلامية وتعبئة جميع الوسائل والامكانيات لتوعيــة المواطنين بهذه الأخطار .

٥ ــ ابعاد النشء وخاصة البنت عن المدارس التبشيرية المنتشرة فى جميع البلاد العربية والاسلامية .

٦ ــ العناية بالأسرة المسلمة خارج العالم الاسلامى ، وخاصة فى أوروبا وأمريكا بشمالها وجنوبها حيث تتعرض هذه الأسرة للذوبان والإمحاء .

تنظيم الأسرة الاســلامية

عن مجلة دعوة الحق المغربيــة :

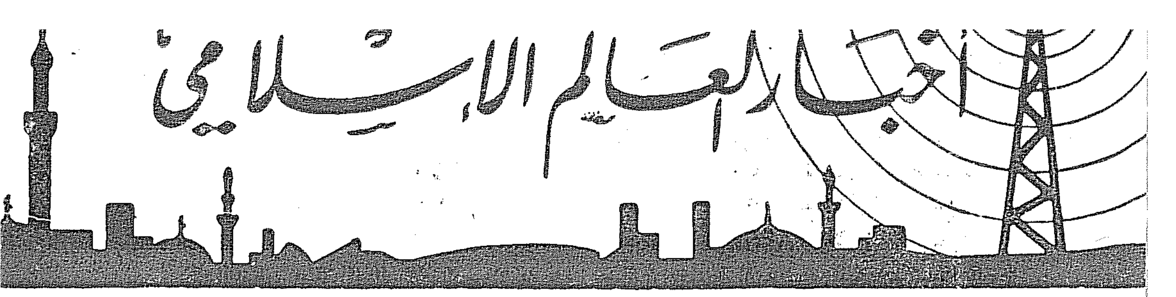
ان أول ما وضــع من التشريعات لتنظيم حياة البشر : الوصيــة بالوالدين فهما رمز الحياة الأسرية وعمودها الفقرى ، وكان ذلك بعد الأمر بعبادة الله وحده قال تعالى : ((**وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه ، وبالوالدين احسانا**)) .

وكان من أسس التنظيم للأسرة التوجيه الى الدقة فى اختيار شريك الحياة والعناية بتلمس جوانب الخير فيه ، تلك الجوانب التى تؤهله لتحمل التبعات وتقدير المسؤوليات ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : ((**تنكح المرأة الأربع : لمالها ، ولحسبها ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك**)) . ويقول أيضا : ((**الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة التى اذا أمرتها أطاعتك ، واذا دعوتها أجابتك ، واذا غبت عنها حفظتك فى نفسك ومالك**)) . والزوجة المثالية تكون اما لشباب مؤمن طاهر يعرف ربه ويعرف حق الوطن عليه وينفع نفسه وغيره : ((**والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا**)) . ففى حسن اختيار الزوجة اطمئنان للقلب وارتياح للنفس ، ولا ينبغى الاندفاع وراء صيد براق خلاب ، من غير تفكير ولا تدبير ، وقد نهانا ديننا عن الزواج من بيئة هابطة فاسقة لا أخلاق لها ولا أمن يرجى فيها **ولا أمين الا من يخشى الله** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**اياكم وخضراء الدمن ، قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء**)) . وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم راعى بأن الأم هى القدوة لابنتها وابنها : ((**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**)) .

وعلى الأب الولى أن يكون مراعيا الجانب الدينى فيمن يختاره زوجا لابنته ، فلا يهمل هذا الأساس : ((**اذا خطب اليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ألا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض**)) . وذلك لأن الزواج المؤسس على هذا المنهج الذى أرشد اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى الأسرة على تقوى من الله ورضوان وذلك مما امتازت به الشريعة الاسلامية . ومن زوج ابنته من فاسق أو مستهتر بدينه فقد أساء اليها وجنى عليها .

كما نظم الاسلام العلاقة بين الشريكين على أساس العدل والتعاون ((**ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف**)) واختار للاشراف على الأسرة ورقابة سير الأمور فيها من كانت أسهمه فى الشركة أكثر ومؤهلاته القيادية أقوى وأكمل فقال سبحانه : ((**وللرجال عليهن درجة**)) . وقال : ((**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم**)) . وحث على اخلاص الطرفين بعضهما لبعض وعدم تقصير أحد فى الواجبات المكلف بها ازاء الآخر فقال تعالى : ((**فالصاحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله**)) . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « **والرجل راع فى أهل بيته ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها**)) . ولا بد فى هذه الشركة من التشاور والتعاون واحترام رأى المرأة عند النظر فى المشاكل ، قال تعالى فى حق الزوجين : ((**فان أراد فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما**)) . فذكر التراضى والتشاور دليلا على أن للمرأة رأيها ولها شخصيتها المستقلة فى بحث المشاكل وسياسة البيت بعيدة عن الاستبداد والتحكم من أى طرف من الطرفين .

ان هذه الشركة لا بد لها من أرباح ، وما هى الا الذرية ، وقد أمر الله بالعناية بها ، كما أمر الله هذا الناشىء الجديد أن يدفع لأبويه ضريبة التربية فيبر بهما ويحسن اليهما خصوصا عندما تشتد اليه حاجتهما كما يقول تعالى : ((**أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا**)) . ففى هذا الأدب من التكامل والتضامن ما يسمو على كل تشريع وفى هذا التنظيم السماوى الذى وضعه العليم بأحوال الناس ما يفوق كل تنظيم .



اعــداد الاستاذ عبد المعطى بيومى

الكـــويت : صرح سمو أمير البلاد المعظم بأن الكويت تقف الى جانـب دول المواجهة وهى عـلى استعداد لدفع كل ما لديها من مال ورجال .

● أدلى معالى وزير الخارجية بتصريح جـاء فيه أن الكويت ترفض وجود قواعد عسكرية أجنبية فى أى بلد عربى .

● وافق مجلس الوزراء على اقتراح قدمه وزير الأوقاف والشئون الاســـلامية باقتطاع (١٠٠ فلس) لتمويل صندوق المعونة الطبية لمعالجة غير الكويتيين .

● احتفلت وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية بذكرى الهجرة النبوية فى مسجد السوق الكبير ، وقد افتتح معالى الوزير الاستاذ راشد الفرحان الحفل بكلمة تحدث فيها عن واقــع المسلمين وواجبهم فى ضوء ما توصى به الهجرة النبوية من تضحية وجهاد .

● أقامت وزارة التربية مسابقات لتحفيظ القرآن الكريم اشترك فيها عدد كبير من تلاميذ الابتدائى والمتوسط والثانوى وقد وزعت الجوائز على المتفوقين .

● تقوم وزارة الأوقاف بتجميع ما ينشر فى الصحف والمطبوعات العربية والاجنبية وتصحيح كل شبهة تثـار والرد عليها .

● رحبت وزارة الاوقاف بزيارة السيد سكرتير عام اتحاد الجمعيات الاسلامية فى بريطانيا للبلاد للبحث فى جمع التبرعات لاقامة مركز دائم للاتحاد .

● أحيل للوزارة طلب الامانة العامة للجامعة العربية لموافاتها بأسماء المؤسســات والمعاهد الاسلامية تحقيقا لرغبة المعهد الدولى لحقوق الانسان فى جنيف .

● كما أحيل للوزارة طلب الامانة العامة للجامعة العربية لموافاتها بأسماء المؤسســات والمعاهد

● وتبحث وزارة الاوقاف كذلك طلب رئيس الاتحاد الاسلامى لكلومبيا البريطانية بكندا بخصوص حاجة المسلمين الى بناء مسجد هناك .

● تقرر التبرع للمسلمين فى الفلبين بمساعدات مالية لسـد حاجة المنظمات وأسر الشهداء والجامعة الاسلامية .

القاهـــرة : أعلن الرئيس أنور السادات أن قرار المعركة مع اسرائيل لتخليص الاراضى المحتلة قـد اتخذ ولا رجعة فيـه .

● أهدت الأمانة العامة لمجمع البحوث الاسلامية عددا ضخما من الكتب الدينية لبعض مراكز جمعيات الشبان المسلمين .

● بعثت وزارة الاوقاف بعض القراء الى مساجد كينيا ، وقد رجـا المسلمون فى كينيا أن تبعث الوزارة عددا من الوعاظ والمرشدين .

● رأس فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود وزير الاوقاف وشئون الازهر بعثة الحج الأزهرية وقد قام معالى وزير الأوقاف بالقاء عدد من المحاضرات فى جوانب الثقافة الاسلامية .

● بحث رئيس جمعيات الشبان المسلمين مع مفتى طشقند وسائل تدعيم التعـــاون بين الجمعيات والمسلمين فى روسـيا .

الســـعودية : انتقل الى رحاب الله معالى أمين رابطة العالم الاسلامى الشيخ محمد سرور

الصبان ، والوعى الاسلامى اذ تنعى هذا الرجل المجاهد للعالم الاسلامى لترجو من الله المغفرة له والعـزاء للمسلمين .

● استنكرت رابطة العالم الاسلامى المجازر الوحشية التى يرتكبها الهنود ضد سـكان باكستان الشرقية ولفتت نظر المنظمات العالمية لتعمل معها من أجل حقوق الانسان .

● أهدت رابطة العالم الاسلامى (مصحف مكـة) وترجمة (صحيح البخارى) بالانجليزية وعددا من الكتب الدينية للبطل المسلم (محمد على كلاى) أثناء زيارته للسعودية فى الشـهر المـاضى .

● بلغ عدد الحجاج هذا العام حوالى مليون وربع مليون حـاج .

● رصدت الحكومة (٣٠٠) ألف جنيه استرلينى فى ميزانية العام القادم لاقامة مصنع للكسـوة الشريفـة .

الأردن : احتجت الاردن لدى هيئة الصليب الأحمر الدولية بسبب مواصلة اسرائيل انتهاكها لحقوق الانسان فى الاراضى المحتلة وابعاد المواطنين العرب من ديارهم .

● قامت المقاومة الفلسطينية بارسال طرود ناسفة أثارت الرعب فى اسرائيل فى أيام عيـد الميـلاد .

لبنـان : ندد الرئيس اللبنانى بتحدى الصهيونية للضمير العالمى والقيم الدولية واستنكر اقدام اسرائيل على تغيير معالم القدس العربية وسعيها من أجل تهويدها .

ليبيـا : بعث الرئيس القذافى برقية الى الرئيس الباكستانى ضمنها استعداده للتأييد العملى دون التأييد بالكلمات وأعرب عن أمله فى أن يتغلب الرئيس بوتو على المصاعب الكبيرة التى تواجهه.

● أعلن الرئيس القذافى أن ليبيا لا تنظر الى الصراع العربى الاسرائيلى على أنه مشكلة الشرق الاوسط بل على أساس قضية فلسطين وضرورة اعادة حقوق الفلسطينيين فى بلادهم .

● تلقت اللجنة الاسلامية لعون الطلاب العرب فى ليبيا من امارة أبو ظبى عشرة آلاف جنيـه استرلينى .

تـونس : قرر اتحاد العمال تقديم معونة للثورة الفلسطينية بمبلغ (٢٥٠) ألف دينار تونسى .

● أقيم مهرجان بمناسبة مرور (١٣٠٠) سنة على انشاء مدينة قيروان عاصمة الفاطميين ومعقل الاسلام فى عصرهم .

الجـزائر : دعا الرئيس بومدين الدول العربية للتعاون فيما بينها باخلاص من أجل تنسـيق الجهود وتوحيدها للحرب ضد اسرائيل دفاعا وانقاذا للاراضى المحتلة .

● وقعت ٤ اتفاقيات بين الجزائر وتونس تتناول الحدود وبعض القطاعات الاقتصـادية وينتظر أن توقع الدولتان مزيدا من الاتفاقيات فى اطار بناء المغرب العربى الكبير .

المغـرب : ستصدر وزارة الثقافة والتعليم مجلة جديدة باسم (الباحث) للبحث فى جميـع ميـادين المعـرفة .

الصـومال : قام الرئيس محمد زياد بجولة فى بعض الدول العربية استهدفت تدعيم العلاقات بين الصومال والبلاد العربية وبحث قضية فلسطين على ضوء التطورات الاخيرة .

باكسـتان : قام الرئيس الباكستانى بجولة فى بعض الدول العربية والاسلامية لشرح حقائق الموقف فى باكستان .

● سيرأس الرئيس الباكستانى بنفسه لجنة الطاقة الذرية الباكستانية وسيعمل على تطوير الابحاث العلمية فى البلاد .

أندونيسـيا : اتفقت الاحزاب الاسلامية فى أندونيسيا على انشاء سكرتارية واحدة لها جميعا لتوحيد ساسة وآراء هذه الاحزاب .

« الى راغبى الاشتراك »

تصلنا رسائل كثيرة من القراء بقصد الاشتراك فى المجلة ، ورغبة منا فى تسهيل الام عليهم ، وتفاديا لضياع المجلة فى البريد ، رأينا عدم قبول الاشتراكات عندنا من الآن ، وعل الراغبين فى الاشتراك أن يتعاملوا رأسا مع متعهد التوزيع عندهم ، وهذا بيان بالمتعهدين

القاهرة : شركة توزيع الأخبار ـ ٧ شارع الصحافة .

جدة : الدار السعودية للنشر ـ ص.ب ٢٠٤٣ .

الرياض : مكتبة مكة ـ شارع الملك عبد العزيز .

الطائف : مكتبة الثقافة للصحافة ـ ص.ب ٢٢ .

مكة المكرمة : مكتبة الثقافة للصحافة ـ ص.ب ٤٦ .

المدينة المنورة : مكتبة ومطبعة ضياء .

عدن : وكالة الأهرام التجارية ـ السيد محمد قائد محمد .

المكلا : مكتبة الشعب ـ ص.ب ٢٨ .

مسقط : المكتبة الجديثة ـ السيد يوسف فاضل .

صنعاء : مكتبة المنار الاسلامية ـ السيد عاصم ثابت .

دمشق : الشركة العامة للمطبوعات ـ ص.ب ٢٣٦٦ .

الخرطوم : الدار السودانية للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٢٤٧٣ .

الأبيض/السودان : مؤسسة عروس الرمال الصحفية ـ ص.ب ٦٧ .

عمان : الشركة الأردنية لتوزيع المطبوعات ـ ص.ب ٢١٥ .

طرابلس الغرب : مكتبة الفرجانى ـ ص.ب ١٣٢ .

بنغازى : مكتبة الوحدة الوطنية ـ ص.ب ٢٨٠ .

تونس : الشركة التونسية للتوزيع .

بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ كورنيش المزرعة .

دبى : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر .

ابو ظبى : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ السيد غازى بساط .

الكويت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ ص.ب ١٧١٩ .

الدوحة : سالم الانصارى ـ الدوحة / قطر .

ونوجه النظر الى انه لا يوجد لدينا الآن نسخ من الاعداد السابقة من المجلة

اقرأ في هذا العدد

مطابع مؤسسة فهد المرزوق الصحفية — الكويت